أساطير في أصل النار

تأليف: جيمس فريزر

ترجمة: يوسف شلب الشام





أساطير

في أصل النار

دار الكندي
للترجمة والنشر والتوزيع
الطبعة الاولى ١٩٨٨

٢٠٠٠ / ٩ / ١٩٨٨
طبع في مطابع دار العلم
التنضيد الضوئي :
مكتب الفيحاء ـ دمشق

جيمس فريزر

أساطير في أصل النار



[illegible]:
يوسف [illegible] الشام



الاخراج: سهام بطرس

تمهيد

قد نستطيع أن نحدد معنى الميثولوجيا بأنها فلسفة الإنسان البدائي، فتكـون بذلك أول محاولة للإجابة على أسئلة عامة تتعلق بالعالم طرحها العقل الإنساني منذ أقدم العصور البدائية ولا تزال تشغله حتى هذه الساعة الأخيرة من وجـود الإنســان. والمهمة التي تطرحها الميثولوجيا على عاتق المتقصي لها لا تقل عن المهمة التي تأخذها الفلسفة على عاتقها وإن كان مجـالهـا أكثر اتساعاً، أو يأخذها العلم على عاتقه ولكن في مجال أوسع وأوسع. وبما أننا محاطون من كل الجهات بالأسرار فإننا مدفوعون بغريزتنا لأن نكشف الغطاء الذي يسترها على أمل أن نتمكن في إحدى المرات من أن نكتشف السر الأكبر الذي لم تتمكن أجيال وأجيال من الباحثين من أن تكتشفه على الرغم من كل ما بذلته من محاولات. وهذا مسعى خالد ومتابعة لا نهاية لها لأنظمة من الأساطير والفلسفات والعلوم يعرضها أصحابها وهم

على ثقة كاملة بصحتها، ويتم بناؤها كأنها حصون منيعة لا ينال منها الزمان خالدة أبد الدهر، وتلتمع على أيديهم للحظة كما يلتمع قوس قزح ثم ما تلبث أن تنطفىء كفقاعات على سطح نهر أو كضباب تبدده أشعة الشمس. كذلك كانت وكذلك ستبقى، ولا ينبغي للفيلسوف أو لعالم الطبيعة أن يرمي بأحجاره على البيوت الزجاجية التي أقامها من سبقوه من صناع الأساطير، ذلك لأن واحداً من أكبر الفلاسفة هو أفلاطون ذاته وجد نفسه مجبراً على سد الثغرات التي بدت في نظامه الفلسفي بجسور من الأساطير مهما بدت لنا الآن خفيفة وهوائية فقد بقيت هي وزال البناء الفلسفي الذي خصصت في الأصل لدعمه وتقويته. فإلى باني الجسور الأسمى، إلى هذا الحبر الأعظم، نحن مدينون بما ورد في المحاورات الأفلاطونية من تحليقات في خيال ملائكي وما ورد من تشبيه رائع في جمهوريته.

ومن أجل أن يكون تاريخ الفلسفة كاملاً غير منقوص، ومن أجل أن يكون تاريخ العلم كاملاً غير منقوص، ينبغي علينا أن نبدأ بعرض للميثولوجيا. فأهمية الأساطير مسألة معترف بها على أساس أنها وثائق عن التفكير الإنساني وهو لا يزال في حالة الجنين. ونحن لا نتقبلها لأنها تشبع في نفوسنا تسلية عابثة ولكن لانها تلقي ضوءاً ينير لنا طريق التطور الفكري الذي سار عليه جنسنا البشري. ولا يزال أمامنا الكثير من العمل لجمع الأساطير ومقارنتها قبل أن نتمكن من تصنيف كل أساطير العالم وتبويبها في مجموعة كاملة حيث نستطيع من خلال هذا المعرض «لحفريات» الفكر الإنساني أن نكشف النقاب عن مرحلة بدائية من مراحل مسيرة هذا الفكر منذ بداياته المتواضعة حتى مساراته العليا لا تزال مجهولة منا. وأنا أقدم محاولتي هذه مع كتاباتي الأخرى مساهمة مني في «علم مستحاثات» الفكر الإنساني الذي لابد أن يكتب.

جيمس ج. فريزر

١ ـ مقدمة

من بين كل المخترعات الإنسانية ربما كانت طريقة اشعال النار أهمها وأغناها من حيث النتائج . ولابد أنها تعود إلى زمان موغل في القدم ، ذلك لأنه لا يوجد على ما يبدو أي دليل مؤكد عن وجود قبيلة مهما كانت موحشة تجهل استعمال النار أو طريقة إيقادها . ومن المؤكد أنه يوجد الكثير من القبائل الوحشية وبعض الشعوب نصف المتحضرة التي تروي قصصاً عن عصر كان فيه أجدادها لا يعرفون النار ثم كيف توصل هؤلاء الجدود إلى معرفة استعمالها وطريقة إيقادها بواسطة الأخشاب أو الأحجار . ولكن من المشكوك فيه أن تكون هذه القصص نابعة عن ذكريات لأحداث تدعي تذكرها ، إذ من المحتمل أن تكون مجرد افتراضات اخترعها أناس كانوا لا يزالون يتمتعون بفكر طفولي عن طريقه يلجؤون إلى حل معضلة كانت بطبيعة الحال مطروحة على أذهانهم بمجرد أن بدؤوا في التفكير في أصل الحياة الإنسانية وأصل المجتمع .

والخلاصة هي أن مثل هذه الحكايات في معظمها إن لم تكن جميعها إنما هي مجرد أساطير. ومع ذلك، وحتى لو كانت مجرد أساطير، فإنها تستحق أن تُدرس. ذلك لأن هذه الأساطير وإن كانت لم تستطع أبداً أن تفسر الأحداث التي حاولت إيضاحها فإنها تلقي الضوء عرضاً على الحالة الذهنية لأولئك الناس الذين اخترعوها أو الذين صدقوها. ثم إن العقل الإنساني ليس أقل جدارة لأن يُدرس مثل غيره من ظواهر الطبيعة التي لا يمتاز عنها في واقع الأمر بأي شيء.

وإذا ما وضعنا على حدة ما يمكن تسميته بالقيمة النفسية للأساطير فإن عدداً من المؤرخين الذين بحثوا في أصل النار أعطوا تفسيرات ممكنة عن الوسائل المختلفة التي تعلم بواسطتها الأناس البدائيون استعمال هذا العنصر الهام والطريقة التي توصلوا بها إلى ذلك. ويبدو في النتيجة أن مما يستحق اهتمامنا أن نجمع وأن نقارن الروايات الشفهية التي تركها الإنسان حول هذا الموضوع، وذلك كي نعطي من جهة أمثلة عن الهمجية البدائية، ومن جهة أخرى لكي تعيننا هذه الروايات على حل المعضلة الأساسية التي هي موضوع بحثها. وأعتقد على حد علمي أن مثل هذا المجهود لم يبذله أحد حتى الآن، وما أقدمه هنا ينبغي أن ينظر إليه بكل بساطة على أنه أول محاولة لإلقاء نظرة شاملة، أو على أنه أول «تخميرة» في ميدان واسع خصيب كما كان يمكن لباكون أن يقول عنه. وأنا لا أشك بأن أولئك الذين سيجيئون بعدي سيملؤون الكثير من الفجوات التي لابد أن تكون موجودة في محاولتي هذه، أو أنهم - من أجل أن يكملوا «هذه الاستعارة الباكونية» - سيجدون الكثير من «العناقيد» المخبأة عن ناظري أو البعيدة عن أن تطالها يداي.

ومن أجل إظهار مدى انتشار هذه الروايات وتحديد العلاقات التي بينها ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، فإنني سأتبع نظاماً جغرافياً، أو نظاماً آخر عرقياً يقود إلى النتيجة نفسها بأن أبدأ بالهمجيين الأكثر بدائية ممن هم معروفون لدينا وأقصد بهم التاسمانيين.

٢ - أصل النار في تاسمانيا

يروي أحد الوطنيين من قبيلة أويسترباي في تاسمانيا قصة أصل النار لدى شعبه على الشكل التالي:

«عاش أبي وجدي، كلهم عاشوا في هذه البلاد منذ أمد طويل دون أن يكون ثمة نار. ثم أتى رجلان أسودان وناما في أسفل التلة - تلة من بلادي. ومن قمة التلة رآهما أبي، من قمة التلة وقف أولئك الذين هم من بلادي ينظرون إليهما، فخافا - وهربا كلاهما، ثم عادا بعد بعض الوقت -، ثم أسرعا بإيقاد النار - أوقدا ناراً من الخشب، ومنذ ذلك الوقت لم تختف النار قط من بلادي. وقد أصبح الرجلان الآن في الغيوم. وفي الليلة الصافية تراهما كنجمين. فهما اللذان أتيا بالنار إلى آبائي.

وقد مكث الرجلان بعض الوقت في بلاد آبائي. وكانت امرأتان تستحمان بالقرب من ساحل صخري تكثر فيه الصدفيات. وكانت المرأتان

كئيبتين، كانتا حزينتين، لأن زوجيهما كانا غير وفيين، فقد ذهبا مع صبيتين فتيتين. فالمرأتان كانتا وحيدتين. وكانتا تسبحان في الماء وغطستا للبحث عن الجمبري. وكان ثمة شفنين بحري يختبىء في تجويفة الصخر، شِفنين كبير ذو منخز. كان هذا الشفنين كبيراً وله منخز طويل جداً. وكان من ثقبه يترصد المرأتين ورآهما تغطسان، فوخزهما بمنخازه فقتلهما وأخذهما. وقد اختفتا لفترة من الزمن عن الأنظار. ولكن الشفنين ما لبث أن عاد قريباً جداً من الشاطىء. وكان يقف في الماء الهادىء بالقرب من الشاطىء الرملي. وكانت المرأتان مثبتتين تماماً في منخزه، وكانتا ميتتين! فقام الرجلان الأسودان يقاتلان الشفنين حتى قتلاه بحربتيهما ـ وكانت المرأتان ميتتين! فأوقد الرجلان ناراً ـ ناراً من الحطب. وعلى كل من جانبيها وضعا إحدى المرأتين، فكانت النار في وسطهما، ولكن المرأتين كانتا ميتتين.

فذهب الرجلان الأسودان يبحثان عن نملٍ، عن بضع نملات زرق، ووضعاها على نهدي المرأتين. فقامت بعضهما بقسوة وقوة، فانتعشت المرأتان وعادتا إلى الحياة من جديد. ثم ما لبث أن أتى ضباب، ضباب أسود كالليل، فذهب الرجلان واختفت المرأتان، فقد مرّوا عبر الضباب، الضباب المظلم الكثيف، وأصبح مكانهم في العيوم. ففي الليل البارد الصافي ترى نجمتين، فالرجلان هناك ومعهما المرأتان، فهم هناك نجمتان!».

في هذه القصة يُنسب أصل النار إى النجمتين Pollux, castor اللتين ظهرتا في يوم من الأيام على الأرض في هيأة رجلين ورمتا بالنار «كنجمة» بين البشر المحرومين منها. ولكن القصة لا توضح ما إذا كان هذان المحسنان قد أتيا معهما بالنار من السماء أم أنهما حملاها بعد ذلك إلى السماء بعد أن استقرا هناك، أي لا توضح ما إذا كان أصل النار أرضياً أم أنها قدمت من النجوم.

٣ ـ أصل النار في أستراليا

عنـد بعض السكـان الأصليين في دولـة فيكتـوريا (من الـولايات الاستـرالية) «تـوجد رواية شفهية يتناقلونها وتقول بأن أصل استعمال النار بطريقة سلمية إنما يعود حصراً إلى غربان كانت تسكن جبال غرامبيان، فلما وجدوها ثمينة جداً منعوها على أي حيوان. ومع ذلك فإن طائراً صغيراً يسمى «الـطائـر ذا الـذنب النـاري» لاحظ أن الغربان كانوا يتسلون بأن يتقاذفوا بجمـرات من النار فيما بينهم فالتقط واحدة منها وطار. ولكن عُقاباً اسمه تاراكوك اختطف الجمرة من الطائر الصغير ونشر النار في كل البلاد. ومنذ ذلك الوقتْ أصبحت النيران دائمة بحيث تُشعل كل واحدة منها من الأخرى».

والتنـويه بجبال غرامبيان التي تقع إلى الجنوب الغربي من فكتوريا يوحي بأن هذه القصة كانت منتشرة بين السكان الأصليين المجاورين لهذه

الجبال. وثمة قصة أخرى كما يقولون كان يرويها السكان الأصليون في جيبسلاند التي تقع إلى الجنوب الشرقي من فكتوريا شبيهة بالقصة الأولى. وهذه القصة تقول إن الوطنيين (هكذا! سنسمي السكان الأصليين) لم يكونوا يمتلكون النار في أحد العصور الماضية. فكان الشعب فريسة لسوء حظ شديد لأنه لم يكن ثمة أية وسيلة لطهو الطعام ولا نار يستدفىء بها المرء في البرد الشديد. وكانت النار ملكاً لسيدتين لم تكونا تكنان أية صداقة للسود، فكانتا تحتفظان بالنار وتحرسانها بكل عناية وحذر. فقرر رجل ممن يحبون السود أن يأخذ النار من السيدتين، فادعى أنه مغرم بهما وأخذ يصاحبهما في الحل والترحال. وفي أحد الأيام انتهز الفرصة المناسبة وسرق جمرة خبأها وراء ظهره ولاذ بالفرار. وهكذا عاد إلى السود وأعطاهم النار التي سرقها فاعتبروه منذ ذلك الوقت أكبر المحسنين. وقد أصبح الآن طائراً صغيراً على ذنبه علامة حمراء هي أثر من هذه النار.

في هذه القصة التي يرويها وطنيو جيبسلاند يشير العصفور ذو الذنب الذي عليه أثر من النار إلى الطائر الصغير ذي الذنب الناري الذي ورد ذكره في القصة السابقة. ولكن القصة هنا أصبحت أكثر عقلانية بإسنادها سرقة النار إلى رجل تحول فيما بعد إلى عصفور. وإليكم نصاً مختصراً آخر للقصة نفسها يقول لنا: «إن النار بحسب المعتقدات التقليدية لسكان جيبسلاند إنما تمت سرقتها مبدئياً ومنذ زمن طويل على يد أجدادهم من شرشور (نوع من الطيور) له ذنب من نار وبطريقة مثيرة للفضول».

وفي كوينزلاند الشمالية التي تقع إلى الشمال من جيبسلاند يعتقد الوطنيون بنوع من القرابة بين النار الأولى وبين هذا الطائر الصغير. فالوطنيون في رأس غرافتون على الساحل الشرقي من كوينزلاند يقولون إن أحداً في الأيام الخوالي لم يكن يمتلك النار. وهكذا صعد بن جير- بن جير، وهو طائر صغير ذو ظهر أحمر (من فصيلة الدُخَّلة الأسترالية -MALUR US)، صعد إلى السماء من أجل الحصول عليها ونجح في ذلك. ولكن الخوف من أن أصدقاءه في الأرض لن يتمكنوا من الإفادة منها دفعه لأن

يخبئها تحت ذنبه. وعندما سأله أحد أصدقائه لدى عودته كيف جرت معه الأمور أجابه بأن جهوده ذهبت أدراج الرياح، ولكنه اقترح عليه في الوقت نفسه أن يحاول الحصول على النار من مختلف أنواع الأخشاب. فباشر صديقه العمل مستخدماً قطعاً من الخشب من مختلف الأجناس وحاول أن يجعل النار تنبثق منها بأن يدير قطعة منها على طرف الأخرى. ولكن ذلك كان عبثاً. وأخيراً عندما يئس من ذلك ترك الأمر كله. وعندما عاد انفجر بالضحك، وإلى صديقه بن جير - بن جير الذي سأله عن سبب ضحكه قال: «ذلك لأنك تحتفظ بالنار على طرف ذيلك» مشيراً بذلك إلى البقعة الحمراء الموجودة على ظهر الطير. عند ذلك اضطر بن جير - بن جير إلى الاعتراف بأنه يمتلك النار، ثم عرّف صديقه أخيراً على نوع الخشب الخاص الذي منه يستطيع الحصول عليها. وهكذا نرى في نصين من هذه القصة أن الطائر جالب النار كان في إحداها «صَعوةً ROITELET» (نوع من الطيور الصغيرة الملونة) وفي الثانية «شرشوراً PINSON» ، وبما أنه لا يوجد طائر الصعوة على ما يبدو في أستراليا فإنني أفترض أن الطائر المقصود هو طائر الدغل (ATRICHORNIS) الذي له قامة «سُمّنة» تقريباً ويعيش في قلب الدغلات Maquis الأسترالية. ونحن نعرف نوعين من الـ «Atrichornis» هما الكلاموزا Clamosa والأتريكورنيس روفيسان. فالأول أكبر حجماً وله ظهر رمادي، وكل ريشة منه تختلف عن الأخرى ببعض الفوارق اللونية، أما عنقه وبطنه فهما أبيضان يضربان إلى الحمرة، وله في صدره بقعة سوداء، بينما خاصرتاه رماديتان وريشه الكاسي لطرف الذنب ذو لون أصهب. أما الثاني (الأتريكورنيس روفيسان) فإن الأبيض والأسود من الأجزاء السابقة يحل محلهما فيه اللون الرمادي، وهي مخططة بالخطوط الرمادية التي تختلف عن بعضها بعض الاختلاف كما هو شأن الريش الأعلى. أما أسفل الذنب فضارب إلى الحمرة من هذا الطائر فهو الذي يفسر القصة التي تروي تخبئته النار تحت ذنبه. فالقصة كما هو جلي إنما هي أسطورة مخصصة لتفسير لون الريش في هذا الطير.

وفي روايات أسطورية أخرى من أستراليا ليس طائراً من نوع الصعوة Roitelet من جلب النار وإنما هو الصقر. وتقص علينا أسطورة من هذا النوع القصة التالية: منذ زمن طويل كان البانديكو الصغير وحده الذي يمتلك قبساً من النار ويحافظ عليه بكل حرص وغيرة. وكان يأخذه معه حيثما ذهب ولا يعيره لأي مخلوق. وهكذا عقد بقية الحيوانات مجلساً قرروا فيه أن يحصلوا على النار طوعاً أو كرهاً من البانديكو*. وقد أوفدت الحمامة والصقر لتنفيذ هذه المهمة. وعندما فشلت كل محاولاتهما لإقناع البانديكو بأن يتقاسم ما يمتلكه مع جيرانه انتهزت الحمامة الفرصة التي وجدتها مناسبة فانقضت على الكنز بغية الحصول عليه. ولكنها أصيبت بخيبة الأمل عندما تمكن البانديكو من رمي النار بجانب الماء وفي نيته أن يطفئها إلى الأبد. ولكن الصقر ذا العين الحادة الذي كان يحوم حول المكان انقض على النار قبل أن تسقط في الماء ورمى في رمشة عين قبساً منها بعيداً عن مجرى الماء فوقع على العشب اليابس العالي الذي كان موجوداً على الطرف المقابل من المجرى، فاشتعل العشب وامتد اللهيب في جميع البلاد. وعند ذلك أحس الرجل الأسود بالنار وقال إن ذلك خير.

وإليكم قصة أخرى: بين قبائل غاليا الجنوبية الجديدة توجد، أو بالأحرى كانت توجد، رواية شفهية واسعة الانتشار كانت الأرض بموجبها مبدئياً معمورة بجنس من البشر أقوى بكثير من الجنس الموجود حالياً من حيث تمرسه في فنون السحر. وقد عُرف هذا الجنس تحت أسماء مختلفة بين شتى القبائل. فالواتهي ـ واتهي كانوا يطلقون على هؤلاء الناس اسم بوكوموري ويقولون إنهم تحولوا في النهاية إلى حيوانات. وإليك قصتهم عن أصل النار: في يوم من الأيام كان اثنان من البوكوموري هما وحدهما اللذين يمتلكان النار. وكان أحدهما كورامبان ـ أي فأر ماء ـ، أما الثاني فكان باندا ويندا ـ أي قادوساً (نوع من السمك) ـ. وكان كلاهما يحتفظان بكل غيرة

---

* البانديكو: نوع من الكنغر صغير الحجم ـ المترجم ـ

بسر النار في مكان مكشوف وسط مجموعات من القصب في نهر موراي. وقد بذلت كثير من الجهود على يد البوكوموري الآخرين وعلى يد أناس من الجنس الحالي للحصول على قبس من النار ولكنها ذهبت أدراج الرياح. وفي أحد الأيام اكتشف الكاريغاري - أي الصقر - الذي كان أصله بطبيعة الحال من البوكوميري، اكتشف فأر الماء والقادوس وهما في طريقهما إلى شيٍّ رخويات كانا قد حصلا عليها من النهر. فطار عالياً بحيث لم يكن في إمكانهما رؤيته، ثم نفخ نفخة كبيرة أثارت زويعة بين عيدان القصب اليابسة فتوزعت النيران في كل اتجاه لدرجة أن كل مجموعات القصب أصبحت طعمة للنيران. وامتد الحريق إلى الغابة وإلى مساحات واسعة تغطيها الأشجار حتى انقلبت كلها صحراء لم تنبت فيها شجرة واحدة منذ ذلك اليوم. ومن أجل ذلك نرى الآن نهر موراي يجري في سهول واسعة وعارية كانت فيما مضى مستورة بالغابات.

ولقبيلة تاتاتهي، وهي قبيلة من المنطقة نفسها، حكاية مشابهة للسابقة. فهم يقولون إن فأر ماء يسمونه نغورانغبين كان يعيش في نهر موراي ويسكن في كوخ كبير حيث يحتفظ فيه بالنار لطبخ الرخويات التي كان يلتقطها من الماء. وكان يحرس هذه النار بغيرة وحرص. ولكنه بينما كان مشغولاً في أعماق النهر بالتقاط الرخويات طار قبس من النار فالتقطه صقر (كبريدكا) كان قد هيأ بعضاً من المواد القابلة للاشتعال فأشعل ناراً لم تأكل بيت فأر الماء وحده وإنما امتدت إلى مساحة واسعة من الغابة. ومن أجل ذلك أصبحت السهول المجاورة عارية تماماً من الأشجار، ولكن الإنسان عرف منذ ذلك الوقت كيف يحصل على النار عن طريق الحك.

أما الكابي، وهم قبيلة من جنوب غرب كوينسلاند، فهم يروون أن الصل الأطرش (نوع من الأفاعي الصغيرة) كان وحده يمتلك النار فيما مضى من الزمان، وكان يحتفظ بها في ملجأ داخل جسمه. وقد حاولت كل الطيور عبثاً أن تحصل على هذه النار حتى أتى الصقر الصغير الذي أخذ يقوم

بحركات طريفة لم يتمكن الصل أمامها أن يحتفظ بوقاره فانفجر بالضحك فخرجت النار من جوفه وأصبحت مشاعاً للجميع.

وفي أرض الوارّامونغا، وهم قبيلة من وسط أستراليا تقبع إلى الجنوب من سلسلة مورشيزون، يمكن للمرء أن يشاهد شجرتين جميلتين من أشجار السنط تنهضان على ضفاف مجرى مائي جاف. ويقول الوطنيون إن هاتين الشجرتين تدلان على المكان الذي قام فيه اثنان من أجدادهم الصقور بإشعال النار لأول مرة بحك قضبان من الخشب. وكان اسما هذين الجدين الصقرين هما كيركالانجي ووارّابولابولا. وعلى الرغم من أنهما كانا طائرين فقد كانا أول من صنع النار في هذا الجزء من البلاد. وكانا يحملان معهما دائماً (غاباتهما النارية)*. وفي أحد الأيام قام كيركالانجي بإشعال نار أكبر مما كان ينوي أن يفعل حتى أنه لقي حتفه فيها وأكله اللهب. وقد حزن وارّابولابولا حزناً كبيراً بسبب هذا الحادث المشؤوم فاتخذ طريقه نحو ما يعرف اليوم بكوينزلاند ولم يعد أحد يسمع عنه شيئاً بعد ذلك. وفي هذه الأثناء وصل القمر، وكان في ذلك الوقت رجلاً يمشي على الأرض، فالتقى بامرأة من البانديكو بالقرب من المكان الذي كان كيركالانجي قد أشعل النار فيه، وقام بنزهة معها. وبينما كانا يجلسان على أكمة ويطيلان الحديث وهما يديران ظهرهما للنار اقتربت هذه منهما دون أن يلاحظا ذلك حتى احترقت المرأة احتراقاً كاملاً وأغمي عليها في الهواء الطلق ثم ما لبثت أن ماتت على الفور. ولكن الرجل القمر الذي لم يكن رجلاً عادياً من الفانين تمكن من إعادتها إلى الحياة أو إلى الوعي وصعدا كلاهما إلى السماء. «وتلك لفتة تثير الفضول، كما يضيف السير بالدوين سبنسر، من أنه لدى جميع القبائل يعتبر القمر رجلاً بينما تعتبر الشمس أنثى».

أما لدى المارا وهم قبيلة تسكن الساحل الجنوبي الغربي من خليج

---

* غابة النار: جهاز مؤلف من خشبتين يستعمل لإشعال النار بحك إحداهما بالأخرى، وسيمر معنا وصف لذلك في المستقبل ـ المترجم ـ

كاربانتاري، فتوجد رواية متناقلة كان يوجد بموجبها شجرة صنوبر كبيرة تصل إلى السماء. وكانت العادة أن يتسلق الشجرة الرجال والنساء والأطفال في كل يوم ليصلوا إلى السماء ويعودوا منها. وفي أحد الأيام بينما كانوا في أعلى الشجرة تمكن صقر عجوز اسمه كاكان أن يكتشف طريقة الحصول على النار بحك قضيبين من الخشب ببعضهما. ولكنه عندما قام شجار بينه وبين صقر أبيض اشتعلت النار في البلاد حتى قضت على شجرة الصنوبر ذاتها لسوء الحظ ولم يعد بإمكان الناس الذين كانوا في أعلاها أن ينزلوا إلى الأرض، وهكذا بقي هؤلاء الناس منذ ذلك الوقت بصورة دائمة في السماء. وكانوا يتزينون بأنواع من الزجاج يضعونها على رؤوسهم وأعناقهم ومرافقهم وركبهم وبعض الثنايا الأخرى من أجسادهم، وبريق هذه الحلي الزجاجية هو السبب فيما نراه في الليل من أنوار نسميها النجوم.

في هذه الأساطير الأسترالية نجد صعوبة كبيرة في التمييز بين مفهومين، أولهما أن أول صانع للنار إنما كان طائراً، والثاني أنه كان رجلاً يحمل اسم طائر أو أنه شُبِّه بطائر لسبب من الأسباب. والصعوبة تعود إلى الالتباس بين الإنسان وبين طوطمه من الحيوان، ذلك الالتباس الذي لا وجود له في عقل البدائيين. فالاسترالي لا يستطيع أن يميز بين الانسان وبين حيوانه الطوطم لأنهما في نظره متطابقان. فإذا سألته مثلاً ما المقصود في بعض القصص من الكنغر هل هو الحيوان أم الإنسان الذي يعتبر الكنغر طوطماً له وقف عاجزاً عن الإجابة على هذا السؤال بل وعاجزاً عن فهمه.

وفي التراث الاسطوري للبوانديك ـ وهم قبيلة كانت تسكن مبدئياً في الزاوية الجنوبية الغربية لأستراليا الجنوبية ـ يبدو أن مُدخل النار كان كُتوّة (وهو نوع من الببغاوات الكبيرة البيضاء اللون التي يسهل تعليمها النطق). وبموجب نص هذه الرواية يقال ان النار إنما أتت من عُرف الببغاء الأحمر، وهو طير كان البوانديك يسمونه مار. فيقال إن واحداً من هذه الببغاوات أخفى النار على قبيلته بدافع من مصلحته الخاصة فاغتاظ رفاقه من أنانيته

تلك. وهكذا عقد الكتـوّات (الببغاوات) مؤتمراً ليضعوا خطة من أجل أن يسرقوا النار منه. واتفقوا على أن يذبحوا كنغراً ويدعوا «المار» كي يقاسمهم لحم هذا الحيوان. وعندما يأخذ المار حصته ليطبخها على ناره يتبعه بقية الكتـوات ليروا كيف يصنع النار. وقد نفذت الخطة فعلاً، فقد أتى المار وأخذ حصته من الكنغر، وكانت تتألف من الرأس والكتفين والجلد، وحمل المار كل ذلك إلى منزله وهيأ اللحم للشواء. وقد راقبه بقية الكتوات ورأوا كيف أخـــذ أليافـاً من لحـاء الشجـر ومن العشب ووضعهـا على الأرض لإشعالها، ثم كيف حك رأسه بمخالبه وكيف صنع النار، ولكن بقي عليهم أن يجدوا الطريقة التي يمكنهم بها الحصول عليها. فتطوع كتوة صغير بأن يذهب فيسرق النار من مار. وهكذا أخذ ينزلق بكل حذر خلال العشب حتى اقترب من النار المشتهاة. وعند ذلك أخذ قضيباً من الخشب ووضعه في النار خفية عن مار فأشعله وطار نحو رفاقه. وسَعُد الكتوات لأنهم عرفوا أخيراً فن صنع النار، ولكن مار اغتاظ غيظاً شديداً حتى أنه وضع النار في العشب وأحرق كل البلاد ما بين جبل شانك حتى خليج غيشين. فكانت نتيجة ذلك أن غضب بط المسك (الكروم croom) من إحراق بلاده فهز جناحيه وصفق بهما فجلب بذلك الماء الذي ملأ البحيرات والمستنقعات.

يتضح من هذا النص أن الصانع الأول للنار يفترض أن يكون كتوة بسيطاً وأن هذه الأسطورة لم تخترع إلا لتفسير الريش الأحمر الذي يعلو فلنسوته. إلا أن نصاً آخر لهذه الحكاية يرويه البوانديك يذهبون فيه إلى أن صانـع النـار كان رجلاً تحول بعد ذلك إلى كُتوة. فمنذ زمن طويل - كما يروون لنا - كان السود يعيشون دون أن يمتلكوا ناراً لطبخ طعامهم، وكل ما كانوا يعرفونه عنها أن رجلاً اسمه «مار» (أي الكتوّة أو الببغاء الأبيض) كان يعيش بعيداً عنهم إلى الغرب وأنه كان يمتلك النار ويحتفظ بها من أجله وحده مخبئاً إياها في باقة الريش التي كان يحملها فوق رأسه. وكان رجلاً شديداً لا يستطيع أحد أن يقوم بمهاجمته هجوماً مباشراً من الأمام وأن يسلبه ما لديه بسبب قوة النار التي يحملها، فكان لابد إذن من اللجوء إلى الحيلة

لفعل ذلك. وهكذا دعا القومُ إلى مؤتمر كبير للقبيلة وأرسلوا الرسل للإخبار عن اليوم الذي سيتم فيه. وقدم مار إلى هذا المؤتمر كما قدم الآخرون. وعندما ذُبح كنغر ليُقدَّم في الوليمة أعطوه قطعة شهية ولكنه رفضها مبدياً رغبته في أخذ الجلد. وقد أخذه فعلاً وحمله إلى خيمته التي كان قد أقامها بعيدة بعض الشيء. وكان الآخرون قد استبد بهم الفضول ليعرفوا ماذا سيفعل بهذا الجلد «لأنه ـ كما يقولون ـ لا يصلح للأكل إن لم يعالجه بالنار». فتعهد شاب بارع اسمه بريت بأن يتبعه ويراقبه متسللاً عبر العشب دون أن يمكِّنه من أن يراه. وقد نفذ ذلك بالفعل ورأى مار وقد مد يده ـ بعد أن تثاءب ـ إلى رأسه وكأنه يريد حكَّه وسحب النار من المكان الذي يخبئها فيه. وعندما اكتشف السر عاد بريت وروى لقومه المؤتمرين ما رآه. وعند ذلك تقدم شخص آخر اسمه تاتكانّا وعرض على المجتمعين أن يذهب ليستزيد علماً عن هذا الموضوع، وهيأ نفسه ليقترب من النار أكثر ما يستطيع وأن يحس بحرارتها. وعندما عاد قدم تقريره وأظهر للجميع كيف أن صدره أصبح أحمر من حروق النار. ثم ذهب ثالث وهو يحمل قضيباً من الخشب ورأى مار وهو يحرق شعر جلد الكنغر، وتمكن من أن يدس القضيب في النار دون أن يلاحظه أحد، ولكنه عندما انسحب أمسكت النار مصادفة بالعشب وانتشرت في الحراج الجافة. أما مار فقد غضب غضباً شديداً فأمسك بهراوته وأسرع إلى المكان الذي يجتمع الآخرون فيه لأنه كان يشك ـ ومعه الحق في ذلك ـ بأنهم كانوا يدبرون لسرقة النار منه. وقد تأكدت شكوكه عندما رأى تاتكانا الذي كان صدره الأحمر دليلاً على أن له ضلعاً في الموضوع. أما تاتكانا الذي كان له قامة قميئة فقد أخذ بالانتحاب، ولكن كارتانغ تحدى تشدق مار وعرض أن يتصارع معه لأنه أكبر قامة من تاتكانا. إلا أن الآخرين لم يبقوا مكتوفي الأيدي، فنشبت معركة عامة تلقى كارتانغ خلالها ضربة هراوة تركت فيه أثراً على شكل كُلّاب فقضى نحبه وقفز من الأرض إلى شجرة تحول فوقها فوراً إلى طائر يسمونه قاوند أستراليا، ولا يزال هذا الطائر يحمل تحت جناحه علامة تشبه الكلاب من أثر الضربة التي وجهها مار إليه.

وتحول تاتكانًا القميء القامة إلى طائر «أبو الحن» بسبب صدره الأحمر. أما بريت المقدام فقد تحول إلى طائر يسكن الآن في الأحراج الممتدة على طول الساحل. وقد تلقى شخص آخر ضخم وطويل القامة في هذه المعركة ضربة على قَذاله بطعنة حربة سببت جرحاً عميقاً، فما كان منه بتأثير الألم الشديد إلا أن سارع وألقى بنفسه في اليم حيث لا نزال نراه حتى اليوم يُخرج نافورة ماء من الجرح الذي تلقاه في رقبته. أما نحن فنسميه الحوت. ومنذ ذلك الوقت المليء بالأحداث إذا تعرض الوطنيون لانطفاء نارهم تمكنوا بسهولة أن يصنعوها بحك عودين من الخشب الذي يجب أن يتزودوا به على الدوام. وتتم هذه العملية بأن يلقوا بالقطعة الأولى من الخشب أفقياً على الأرض، ثم يأتوا بالقطعة الثانية فيجعلوها مستدقة الرأس ويدخلوها من رأسها الدقيق هذا في فُرضة جعلوها في القطعة الأولى بحيث تكون عمودية عليها، وبعد ذلك يأخذون بإدارة هذه القطعة العمودية بسرعة بين أيديهم حتى تلتهب القطعتان بعد القليل من الوقت. ولكنهم يعرفون أيضاً كيف أن مثل هذه النار يمكن أن تلتهم أدغال الماكي كما فعلت في عهد مار.

هذا النص من الأسطورة يهدف إلى تفسير كيف توصل الوطنيون إلى الحصول على النار بحك قطعتين من أخشاب الكزانتوري (نوع من الصنوبريات). ولكنها تفسر عرضاً سبب العلامات المميزة ليس لطير واحد وإنما لعدد من الطيور كما تفسر الشق الموجود في رقبة الحوت. ويبدو أن الشكل البدائي لهذه القصة كان يضم عدداً أكبر من الحيوانات ومن الطيور، فالسيدة جيمس سميث التي كانت مبشرة والتي ندين لها بما قدمته لنا من لوحة ثمينة عن قبيلة البوانديك التي عاشت بين ظهرانيها أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، اعترفت لنا بأنها نسيت أسماء معظم الذين اشتركوا في معركة النار، وقد أضافت أيضاً: «وإن هذا لمؤسف، لأن أسماءهم ضرورية لتقديم القصة بكامل مهارتها». أما ما يختص بالحيوانات فمن الواضح أن القصة إنما هي أسطورة حيوانية مخصصة لتفسير بعض الملامح المميزة لمجموعة الحيوانات الأسترالية. فأبو الحن الذي لعب دوراً من الدرجة الأولى لا يمكن

أن يكون أبا الحن الذي يسكن الجزر البريطانية لأن هذا الأخير لا يبدو من السهل أن نجده في أستراليا. وربما كان المستعمرون الأولون قد طابقوا بين طير أسترالي له صدر أحمر وريش أحمر مع صديقهم المعروف ذي الريش الذي تركوه في وطنهم القديم. وقد اكتشفت السيدة سميث أن هذه القصة عن أصل النار كانت منتشرة بين الوطنيين الذين يسكنون فقط الزاوية القصوى من جنوبي غرب أستراليا الجنوبية بين جبل غامبيي وخليج ماك دونيل. وكانت مجهولة من السود الذين يسكنون أبعد من ذلك إلى الشمال على ساحل خليج ريفولي وخليج غيشين، ولكن الوطنيين الذين يعيشون أبعد من ذلك أيضاً إلى الشمال على خليج رنكونتر الذي يصب فيه نهر موراي كانوا يعرفون قصة شبيهة بذلك. وهذا النص الذي وصل إلينا من خليج رنكونتر كان قد سجله أيضاً مكتشف آخر، وإليك هو: اجتمع الأجداد مرة في موتابا رينغار ليقيموا حفلة رقص. وبما أنهم لا يملكون ناراً لم يكن باستطاعتهم أن يرقصوا في الليل وإنما وجب عليهم أن يقتصروا في رقصهم على النهار. وبما أن الطقس كان حاراً جداً فإن عرقهم الذي سال من أجسادهم شكل هذه المستنقعات الواسعة التي لا نزال نراها حتى اليوم، كما أن خبطات أقدام الراقصين أنتجت أعراضاً أرضية هي اليوم تلك الروابي والوديان. ولكنهم كانوا يعرفون أن رجلاً طويلاً وقوياً اسمه كوندول كان يعيش في الشرق ويمتلك النار، فأرسلوا له مبعوثين هما كوراتجي وكاناماري لدعوته إلى الوليمة. فأتى ولكنه خبأ ناره. فامتعض الرجال من ذلك وقرروا أن يأخذوا منه النار بالقوة. وفي بادىء الأمر لم يغامر أحد بالاقتراب منه. وأخيراً قام رجل يسمى ريبال فجمع قوته في قبضتيه كي يضربه بحربة ويسرق النار منه. وهكذا رمى حربته فجرحه في رقبته. وقد نجم عن ذلك كثير من الضحك كما نجم عنه كثير من الصراخ وانقلب الجمع كله تقريباً إلى حيوانات من مختلف الأنواع. أما كوندو نفسه فجرى نحو البحر وأصبح حوتاً وصار يطلق الماء من الجرح الذي تلقاه في رقبته. وانقلب المبعوثان كوراتجي وكاناماري إلى سمكتين صغيرتين. وحدث لحظة تحولهما هذا أن

كانماري كان يلبس جلد كنغر بينما كوراتجي لم يكن لديه إلا قبعة من الطحالب، وهذا هو السبب الذي من أجله أصبح للسمك المسمى كانماري كثير من الدهن تحت جلده بينما كان السمك المسمى كوراتجي دقيقاً وناشفاً. وتحول آخرون إلى حيوانات جرابية Opossums وتسلقوا الأشجار. أما الشبان الأنيقون الذين كانوا يتزينون بطاقيات من الريش فانقلبوا إلى كُتوّات (ببغاوات) واحتفظوا بطاقياتهم الريشية على شكل قُنزعة. وأما ريبال فقد أخذ النار من كوندول وخبأها في خشب الكزانتوري حيث لا تزال موجودة حتى اليوم وحيث لا يزال بإمكاننا استخراجها عن طريق الحك. والطريقة التي كانت قبيلة خليج رنكونتر تحصل بها على النار من خشب الكزانتوري هي التالية: يأخذ الوطنيون كِسرة من خشب الكزانتوري ويضعونها على الأرض بحيث تكون جهتها المسطحة إلى الأعلى، ثم يأخذون قطعة أرق منها من الخشب نفسه فيسندون طرفها الأسفل على الأولى بينما يأخذون طرفها الأعلى بين راحتيهم ويحركونها بحركة دائرية وذلك بتحريك أكفهم إلى الأمام وإلى الوراء ويستمرون على هذا الحال حتى تمسك النار بالخشب.

هذا النص من القصة يكمل ولا شك رواية البوانديك كما نقلتها السيدة سميث من حيث أنه يمدنا بتفاصيل أكثر في موضوع تحول الناس إلى حيوانات بعد اكتشاف النار. ولكنه يختلف عن رواية البوانديك بشكل يثير الفضول من حيث أنه يجعل الحوت لا الببغاء هو المالك الأصلي للنار.

وثمة قصص أسترالية أخرى تقيم علاقة بين الزاغ (نوع من الغربان) وبين اكتشاف النار. فالوطنيون في وادي نهر يارّا الذي يصب في مرفأ فيليب حيث تنتصب الآن مدينة ملبورن يقولون إنه كان يوجد في قديم الزمان امرأة اسمها كاراكاروك هي التي تعرف وحدها كيف تصنع النار. وكانت تحتفظ بها في طرف عصا من خشب اليام تعتمد عليها ـ كما هي حال النساء الأستراليات الوطنيات ـ في البحث عن الجذور الصالحة للأكل واقتلاعها كما في البحث عن الحشرات والحراذين لتستخدم كلها طعاماً للعائلة.

ولكنها كانت ترفض أن تشارك أحداً غيرها بالنار. إلا أن وونغ ـ الذي هو الزاغ ـ وضع خطة لأخذها منها. وكانت هذه المرأة تحب كثيراً أن تأكل بيض النمل. فصنع وونغ (أو لعله أخذ) عدداً كبيراً من الثعابين ووضعها تحت وكر للنمل. ثم دعا كاراكاروك لأن تأتي وتستخرج البيض من الأرض. وبعد أن حفرت قليلاً وجدت الثعابين أمامها فنصحها وونغ بأن تقتلها بعصاها من خشب اليام. فضربتها تنفيذاً للنصيحة، وعندما فعلت سقطت النار من عصا اليام حيث كانت تخبئها. فانقض وونغ على النار فالتقطها ونجا بنفسه. أما المرأة فقد رفعها بونجيل خالق البشر إلى السماء حيث لا تزال تلمع هناك على هيئة النجوم السبعة التي نطلق عليها نحن اسم «الثريا». إلا أن وونغ بعد أن أخذ النار بدا أكثر أنانية مما كانت عليه المرأة قبل ذلك لأنه لم يشأ أن يعطي النار لأحد. فغضب بونجيل غضباً شديداً على وونغ وجمع السود كلهم وجعلهم يوجهون إليه كلاماً قاسياً حتى جعلوه يشعر بالخوف. ومن أجل أن ينقذ نفسه ويحرق الآخرين رمى بالنار بينهم فالتقط كل واحد منهم قليلاً منها وذهب في حال سبيله. ولكن تشير تشر وترار أخذا قليلاً من النار وأشعلا العشب الذي يحيط بوونغ فأحرقوه. عند ذلك قال بونجيل لوونغ: «ستصبح زاغاً يطير في كل مكان ولن تكون إنساناً بعد الآن». أما تشيرتشير وترار فقد احترقا في النار التي أشعلاها وهما الآن حجران كبيران في سفح جبل داندينونغ.

وتروي قبيلة بونارونغ التي كانت تسكن المنطقة الممتدة إلى الجنوب الغربي من ملبورن قصة مشابهة في تفسير أصل النار. إلا أن الزاغ (وونغ) في هذه القصة كان منذ الأصل طيراً ولم يكن رجلاً تحول بعد ذلك إلى زاغ. والقصة التي تحتوي على الكثير من إعادات القصة السابقة هي التالية: كانت اثنتان من النساء تقطعان شجرة في سعيهما للوصول إلى بيض النمل عندما هاجمهما عدد من الأفاعي. وقد ناضلت المرأتان بشدة دون أن تتمكنا من قتل هذه الثعابين. وفي النهاية كسرت إحدى المرأتين العصا التي كانت تستخدمها في القتال (كان ـ نام) فخرجت النار منها فوراً. عند ذلك انقض

الزاغ فالتقط النار وطار بها، ولكن شابين هما تورت وترار لحقا به وأمسكاه، ولما خاف رمى النار فاشتعل على الأثر حريق كبير أثار الرعب بين السود بينما قضى نحبهما كل من الرجلين الطيبين تورت وترار. وقد نزل بونجيل بنفسه من السماء وقال للسود: «الآن وقد أصبحتم تمتلكون النار لا تضيعوها»، ثم أراهم كلاً من تورت وترار لحظة من الزمن قبل أن يمضي بهما معه ويضعهما حيث لا يزالان يلمعان في السماء على هيئة نجمين. إلا أن السود أضاعوا بعد ذلك النار. وقدم الشتاء وأصابهم برد شديد ولم يعد لهم قط مكان يطبخون فيه زادهم، فاضطروا لأن يأكلوه نيئاً وبارداً كما تفعل الكلاب. وازداد عدد الأفاعي أيضاً. وفي النهاية أرسل بال ـ يانغ ـ وكان قد انتشل المرأتين السالف ذكرهما من الماء ـ أرسل كاراكاروك من السماء لحراستهما. وكانت كاراكاروك هذه أختاً لبال ـ يانغ ولا تزال تحترمها النساء السوداوات حتى اليوم. وكانت كاراكاروك الطيبة هذه جميلة للغاية وطويلة للغاية كما كان لها عصا طويلة كانت تذهب بها عبر البلاد لتقتل العديد من الأفاعي وإن كانت تترك بعضاً منها على قيد الحياة هنا وهناك. وعندما كانت تضرب إحدى الأفاعي تكسرت عصاها الكبيرة فخرجت منها النار فاختطفها الزاغ وطار بها من جديد وأصبح السود لبعض الوقت ضحية حزن شديد. ولكن ما لبث تورت وترار أن نزلا في إحدى الليالي من السماء واختلطا بالسود وقالا لهم بأن الزاغ خبأ النار في جبل يسمى نون ـ بير ـ وون ثم عادا ثانية إلى السماء. وبعد قليل عاد ترار سليماً معافى ومعه النار مغلفةً بلحاء كان قد انتزعه من بعض الأشجار كما يفعل الوطنيون عندما يسافرون ليحملوا النار معهم ويحفظوها من الانطفاء. أما تورت فقد عاد إلى مسكنه في السماء ولم يرجع بعد ذلك قط إلى السود. وهم يقولون إنه مات محترقاً على جبل اسمه نون ـ ني ـ أو بينما كان يشعل ناراً، إلا أن بعضاً من السحرة ينكرون أنه مات محترقاً على هذا الجبل ويذهبون إلى أن بونجيل حوله نظراً لأعماله الطيبة إلى نجم من النار هو الذي يسميه البيض بكوكب المريخ. وفي هذه الأثناء كانت كاراكاروك قد قالت للنساء أن يتفحصن العصا التي كانت

كسرتها والتي خرج منها دخان النار، لأنه لا يجب على النساء بعد ذلك أن يفقدن هذه الهبة الثمينة. ومع ذلك فإن هذا لم يكن كافياً. فقد قام ترار المحبوب بقيادة الرجال إلى جبل ينمو فيه نوع خاص من الخشب يسمى جيل ـ ووك هو الذي نصنع منه (غابات النار)، وهناك أراهم كيف يصنعون النار من هذه البدائل ويستفيدون منها بحيث يكون في متناول يدهم دائماً طرائق إشعالها، ثم طار بعد ذلك نحو السماء ولم يعد يراه أحد.

وتُروى قصة مشابهة عن أصل النار عند الورونجيري، وهم قبيلة كانت تسكن في الزمن الذي نشأت فيه ملبورن في المنطقة الواقعة إلى الشمال والشمال الشرقي من المدينة والتي تشمل سهل يارّا ووادي هذا النهر حتى منبعه كما تشمل المنحدرات الشمالية لجبال دينديرونغ. وبموجب هذه القصة فإن الكارات غوروك ـ اللواتي هن قطعاً الكاراكاروك في القصتين السابقتين ـ كن زمرة من النساء الشابات يفتشن عن بيوض النمل بواسطة عصواتهن من خشب اليام التي كانت تحتوي في نهاياتها على الفحم الملتهب. ولكن الزاغ (وا ـ آنغ) سرق منهن النار عن طريق الدهاء والمكر. وعندم أخرج زاغ المسك (بيلان ـ بيلان) إعصاراً من جيبه بناء على طلب بونجيل طارت النساء إلى السماء حيث انقلبن إلى كوكبة نجوم الثريا وما زلن يحملن النار في أطراف عصواتهن من خشب اليام.

ويروي المحترم روبرت هاملتون من ملبورن القصة نفسها مع شيء قلل من الاختلاف بعد أن سمعها من فم أكبر عجوز من الوطنيين. وعلى الرغم من أنه لم يقل ذلك إلا أننا نتوقع أن يكون الوطنيون الذين أخذ هذه الأسطورة عنهم يسكنون المنطقة المجاورة للمدينة. وروايته لهذه الأسطورة هي التالية: «كيف تم الحصول على النار الأولى ـ تمكنت فتاة اسمها الوطني مون ـ مون ـ ديك، بطريقة أو بأخرى، أن تصبح مالكة للنار، فاحتفظت بها على طرف عصاها من خشب اليام. (وعصا اليام ـ وهذا ما يجب تفسيره ـ هي عصا طولها خمسة أقدام تصلب طرفها الحاد بفعل النار وتستخدم في اقتلاع الجذور). وكانت الفتاة تقدح النار على هواها ولكن

شيئاً لم يكن يستطيع إقناعها بأن تشاطر بفوائدها الآخرين، وقد ذهبت كل المحاولات للتغلب على عنادها بالقوة أو بالدهاء أدراج الرياح. عند ذلك أرسل بونجيل ابنه لمساعدة بني البشر. ولما لم يتمكن هذا من إقناع الفتاة بأن تخضع عن طيب خاطر لجأ إلى الحيلة للوصول إلى مبتغاه. وبعد أن دفن أفعى سامة في وكر كبير للنمل رجا الفتاة أن تأتي للبحث عن بيوض النمل التي كانت قطعاً حقيقية من الحلوى. وقد نبشت الأفعى بطبيعة الحال. فصاح تارّانغ: «اضربيها! اضربيها!»، فلما ضربتها بعصاها من اليام انبثقت منها النار فأمسك بها تارّانغ وقدّمها لبني الإنسان. ومن أجل أن يمنع الفتاة من أن تستعيد احتكارها قام بنقلها إلى مكان في السماء حيث أصبحت «كوكبة النجوم السبعة (أو الثريا)» ولا تزال تُرى هناك حتى الآن».

في هذا النص لم يجر أي تلميح للزاغ، ولكن يمكننا أن نتكهن بأنه يتخفى هنا تحت شخصية المخادع تارانغ بن بونجيل الذي سرق النار من المرأة مستعملاً الخدعة نفسها التي كان قد استعملها الزاغ في النص الأول. والتفسير الذي قدمه لنا الدكتور هاملتون في موضوع عصا اليام يفسر لنا لماذا اعتقدوا أن النار كانت مخبأة فيها. فبما أن طرف العصا كان قد غُطِّس في النار لتقسيته فلابد أنه امتص قليلاً من النار في ركيبه ذاته بحيث أن أية صدمة شديدة بعض الشيء لابد من أن تكون كافية لطرد العنصر الناري من الخشب الذي كان مشرباً أو محملاً به كما يمكن أن يقال. وبموجب مبادىء الفلسفة الطبيعية للبدائيين تبدو هذه المحاكمة سليمة ليس فيها إلى الخطأ من سبيل.

في هذه الأسطورة التي يمكن تسميتها أسطورة ملبورن باعتبارها كانت منتشرة بين الوطنيين المجاورين لهذه المدينة فإن من المفيد أن نلاحظ أن أصل النار يقترن بالثريا أو النجوم السبعة التي يفترض أنها حملت إلى السماء كما فعلت على سطح الأرض النار نفسها في عصواتها من اليام. وربما كان من قبيل المصادفة المحضة أن أناساً آخرين من الوطنيين التاسمانيين الأفظاظ الذين يسكنون الطرف الآخر من البحر غير بعيدين عن

القبائل التي تسكن أقصى الجنوب من أستراليا يربطون هم أيضاً بين النيران الأرضية والنيران السماوية ويفكرون هم أيضاً بأن نيران السماء إنما أشعلت في بادىء الأمر على الأرض.

كذلك أمكننا الحصول على نص آخر للأسطورة نفسها ومن أرض فكتوريا أيضاً من ويسترن بورت، وهو خليج يبعد قليلاً عن ملبورن، وهذا النص هو التالي: عند بداية العالم كان عدد من الشباب يجلسون في الظلام في حالاة عماء. وكان ثمة رجل عجوز اسمه بونديبل رفع يده نحو الشمس (جيرر) بطلب من ابنته الطيبة كاراكاروك، فقامت الشمس بناء على ذلك فأدفأت الأرض وجعلتها تنفتح كأنها الباب فدخل إليها الضياء منذ ذلك الوقت. وعندما رأى بونديبل أن الأرض مليئة بالأفاعي أعطى لابنته كاراكاروك عصا طويلة أخذت بها تقتل الأفاعي حيثما وجدتها. ولكن يبدو لسوء الحظ أن العصا قد انكسرت فخرجت منها النار، وهكذا يكون خير كبير قد نجم عما بدا أنه شر، ومنذ ذلك الوقت بدأ الناس يطبخون طعامهم وهم فرحون. ولكن وانغ، . وهو كائن غامض له شكل الزاغ (ذكرنا أنه نوع من الغربان) طار بالنار وترك الناس في حالة تستحق الرثاء. إلا أن كاراكاروك ما لبثت أن أعادت النار إليهم ولم يعد لها أن تضيع بعد ذلك أبداً. أما بونديبل (وهو نفسه بونجيل) فقد عاش كما يقال بالقرب من شلالات لالآل على المارابول ثم ما لبث أن صعد إلى السماء، والنور الذي يصدر عن المريخ هو ناره، وهم يطلقون اسم بونديبل على هذا الكوكب.

في هذا النص من ويسترون بورت يعود الزاغ إلى الظهور ولكن الثريا تختفي. ومع ذلك فإن كلمة كاراكاروك التي هي الاسم الوطني لهذه الكوكبة من النجوم تنبئنا بوجودها. ويبدو من منطوق هذه القصة السابقة أن الوطنيين يعتبرون المريخ أباً للثريا.

أما عند قبيلة بورونغ التي توجد على بعد كبير من هؤلاء الوطنيين السالف ذكرهم وتسكن في بلاد «دغل مالّي» البائسة حول بحيرة تيرّيل إلى الشمال الغربي من فكتوريا فتوجد رواية أخرى تتناقلها الشفاه وتقول إن النار

الأولى إنما تم تقديمها إلى الوطنيين على يد الزاغ الذي يطابقونه مع نجمة الكانوبوس.

وفي بعض الأحيان النادرة على ما يبدو يعيد الوطنيون الأستراليون أصل النار إلى مصدر أقرب الى العقل من النجوم ألا وهو الشمس. وهكذا يروي الوطنيون الذين يسكنون حوالي بحيرة كونداه إلى الجنوب الغربي من فكتوريا، يروون قصة مفادها أنه كان يوجد في الماضي رجل رمى في الهواء نحو الغيوم حربة كان قد ربط بها حبلاً، ثم تسلق هذا الحبل إلى الشمس فجلب منها النار إلى الأرض. وتروي إحدى القبائل المجاورة لماري ـ بورغ في كوينزلاند كيف أتى الناس بالنار من الشمس ولكن بطريقة مختلفة: ففي البدء عندما أسكن بيرّالُ الناسَ السودَ في الأرض البدائية التي كانت تشبه دكة من الرمال سألوه أين يمكنهم أن يجدوا الحرارة في النهار والنار في الليل. فأجابهم أنهم إذا ذهبوا في اتجاه حدده لهم فإنهم سيجدون الشمس، وإذا اقتطعوا قطعة منها فإنهم سيجدون النار. وعندما ذهبوا بعيداً في الاتجاه المقصود وجدوا أن الشمس تخرج من ثقب في الصباح لتدخل في ثقب آخر عندما يحل المساء. وعند ذلك انقضوا فانتزعوا جزءاً من قرصها فكانت لهم النار.

إلا أن أصل النار كما يعتقد وطنيو مقاطعة كولكادون (أو كالكادون) إلى الشمال الغربي من كوينزلاند يبدو أكثر معقولية. فهم يقولون أنه كانت توجد في ماضي الزمان قبيلة من السود تتجمع على الهضاب المكشوفة من البلاد. وفي يوم صيد مجزٍ تجمعت جثث صيدهم من الكنغر وامتدت فوق معسكرهم. وعند ذلك انفجرت عاصفة قوية وانقضت صاعقة فأحرقت العشب اليابس الذي كان يغطي التلال فاشتعل اشتعالاً مخيفاً محرقاً وشاوياً شياً جزئياً قسماً من جثث الكنغر الميتة. وعندما أخذ الناس يأكلون هذا اللحم الذي شوته النار نصف شواء وجدوه أشهى بكثير من اللحم النيء الذي جعلوه غذاء لهم حتى ذلك الوقت. فأرسلوا عجوزاً من النساء لتتبع النار التي رأوا أنها لا تزال تشتعل في أسفل التلال وأوكلوا إليها أن تأتيهم

بقبس منها. فعادت بعد قليل وهي تحمل عصا ملتهبة. فأطلقوا عليها لقب الحارسة الدائمة للنار ونصحها شيوخ القبيلة بألا تترك النار تنطفىء بعد ذلك أبداً. وقد قامت هذه المرأة بمهمتها خير قيام خلال العديد من السنين، حتى أتت ليلة غمرت فيها المياه المعسكر في فصل الأمطار وتراخت يقظة العجوز فانطفأت النار. وعوقبت المرأة على غفلتها وإهمالها بـأن تتيه وحدها في الأدغال حتى تجد النار التي كانت سبباً في فقدانها. فأمضت زمناً طويلاً وهي في وحدتها تمشي في الصحراء دون أثر يرشد خطاها وهي تبحث عن مرامها دون جدوى. وانتهى بها الأمر في أحد الأيام إلى غابة كثيفة. وكانت قد فقـدت صبـرها فأرادت أن تطفىء غضبها فانتزعت غصنين من بعض الأشجار وأخذت تحكمهما بقوة وعصبية. ولشدة دهشتها اندلعت منهما النار ففرحت فرحاً شديداً وعادت منتصرة إلى شعبها باكتشافها الثمين الذي لم يفقدوه بعد ذلك قط.

أما الأرونتا من سكان أستراليا الوسطى فإن لديهم رواية عن أصل النار تقول إن رجلاً في الأيام الغابرة التي يطلقون عليها اسم ألشيرينغا ينتمي إلى طوطم من الأرونغا أو الأورو (صنفان من الكنغر) مضى إلى الشرق في إثر واحد من الأورو عملاق الجثة كان يحمل النار في جسده. وكان هذا الرجل يحمل معه اثنتين من الشورونغا، أي عصاوين أو حجرين مقدسين حاول بهما إشعال النار ولكن دون جدوى. وكان يتتبع الأورو إلى الغرب محـاولاً دائمـاً أن يقتله. وكان الرجل والأورو يعسكران دائماً على مسافة قليلة من بعضهما. وفي إحدى الليالي استيقظ الرجل فرأى ناراً تشتعل قرب الأورو فذهب إليها حالاً ونال قسطاً منها فطبخ به لحم أورو كان قد أتى به معه وتغذى منه. أما الأورو ففر إلى الشرق مديراً ظهره لما كان قد تركه من آثار أقدام. وحاول الرجل أن يصنع النار مرة أخرى ففشل أيضاً ورأى أنه لابد من مطاردة الأورو من جديد حتى وصل الإثنان كلاهما إلى المكان الأول الـذي كانـا قد انـطلقا منه. وأخيراً نجح الرجل بقتل الحيوان بشورونغتيه (عصاويه) وأخذ يتفحص جسده جيداً ليرى كيف كان الحيوان يصنع النار

ومن أين كانت تأتيه. ثم قطع في النهاية عضوه التناسلي الذي كان طويلاً جداً وفلقـه إلى نصفين فلاحظ أنه كان يحتوي على نار شديدة الاحمرار انتزعها منه واستخدمها لطهو طعامه. ثم عاش بعد ذلك مدة طويلة من لحم هذا الأورو الضخم. وعندما انطفأت النار التي استخرجها من جسده حاول أن يوقدها من جديد فنجح في ذلك وهو يغني دائماً نفس اللحن الذي يضم هذه الكلمات:

أوربما لارا كيتي

آلكنا مونغا

إلباو فيتا فيتا

أمـا قبـائـل الوونكونغورو التي تسكن أستراليا الوسطى وتضم بينها الديبري فيربطون بين أصل النار وبين هضبة رملية تقع إلى الشرق من بحيرة بيرينغوندي. وهم يقولون إنه في قديم الزمان وقبل أن يصل البيض إلى البلاد أتى واحد من أجدادهم الأسطوريين الذين يسمونهم مورا أو مورا ـ مورا، أتى من الجنوب وعسكر وراء رابية رملية كبيرة. وعند غروب الشمس تماماً رأى بارالانا الذي كان هو نفسه من الأجداد أيضاً. وقد وجد بارالانا هذا وهو يتناول طعاماً من السمك النيء فسأله لماذا يفعل ذلك. فأجاب بارالانا: «هذا السمك طيب جداً فكيف تأكله أنت؟» فأجاب الآخر: «إنني أحب طهـو الأسمـاك فهي أفضـل عنـدما تُطهى». ثم رجا بارالانا أن يأتي إلى معسكره وقال له إنه سيريه كيف سيتصرف. وهناك أشعل ناراً ووضع على رمادها بضع سمكات وقدمها إلى بارالانا عندما نضجت فأكلها هذا وسأله كيف يسمي هذا الشيء الـذي استخدمه لتجهيز الأسماك، فأجابه الآخر بأنها تسمى ناراً وأراه كيف يتم إشعالها. وعندما تعلم بارالانا هذا السر قتل معلمه وحمل ناره إلى ما وراء تلة الرمال. وهناك، بعد أن تسلح بهذه الآلة الجديدة أقام معسكره وجنّد إحدى قبائل السود في وجه القبائل الأخرى التي أخذت تقدم له ما يطلبه من طعام ومن فتيات جميلات. إلا أن اثنتين من هؤلاء الفتيات قررتا أخيراً ألا تقيما معه وانتظرتا حتى غط في نوم عميق وهربتا

بسـرعة تحملان معهما جمرة من النار قدمتاها إلى شعبهما وعلمتاه يكف يحافظ على النار دائمة الاشتعال.

إلا أن الـوونكو نغورو أنفسهم يروون قصة أخرى عن امرأةٍ (مورا) سرقت النار من امرأة عجوز اسمها ناردو شيلباني بعد أن قتلتها، وقد تحولت هذه المرأة القتيل إلى تَمٍّ (إوز عراقي طويل العنق) وطارت وهي تحمل جذوة في فمها، ومن أجل ذلك كان لهذه التمّات السود كلها حواف حمر في داخل منقارها دليلاً على حملها النار. وفي ضوء هاتين القصتين السالفتين نستطيع أن نفترض أنهما تستندان إلى خلفية أسطورية كان يؤمن بهـا الوونكونغورو وتقول بأن التم هي أول من حمل النار إلى البشرية وأنها عندما فعلت ذلك أحرقت داخل منقارها.

وتحكي رواية أخرى موجودة لدى الكاكادو في أستراليا الشمالية أن رجلين كانـا أخـوين غير شقيقين يسميان كلاهما نيمبيا مايانوغو ذهبا إلى الصيد مع أميهما. فأمسك الرجلان ببط وبطيور من الزقزاق بينما جمعت المرأتان كميات كبيرة من الجذور والحبوب من المستنقعات. ولم يكن لدى الرجال في تلك الحقبة من الزمان نار ولا يعرفون كيف يشعلونها بينما كانت النساء يعرفن ذلك. وبينما ذهب الرجلان للصيد في الحرج طهت المرأتان طعامهما وأكلتاه وحدهما، وما كادتا تنتهيان منه حتى رأتا الرجلين عائدين. ولما كانتا لا ترغبان في أن يعرفا كيفية صنع النار فقد جمعتا الرماد بسرعة ـ وكان لا يزال مشتعلاً ـ وأخفتاه في فرجيهما كي لا يستطيع الرجلان أن يرياه. وعندما وصل الرجلان قالا: «أين النار؟»، فأجابت المرأتان: «لا توجد نار»، ونتـج عن ذلك شجار كبير وضجة عالية. وأخيراً أعطت المرأتان للرجلين بعضاً من جذور الزنبق التي كانتا قد جمعتاها وطبختاها. وبعد أن أكلوا كثيراً من اللحم وجـذور الـزنبق ناموا كلهم مدة طويلة. وعند استيقاظهم ذهب الرجلان للصيد مرة أخرى وأخذت المرأتان تطهوان طعامهما. وكان الطقس حاراً جـداً ففسدت كل الطيور التي كان الرجلان قد اصطاداها. فأتيا بمؤن جديدة، وبينمـا كانـا لا يزالان بعيدين رأيا اشتعـال النار وهي تومض في

معسكر المرأتين. فطار زقزاق وأنذر المرأتين بقدوم الرجلين. ومرة أخرى خبأتا الرماد في المكان نفسه من جسديهما ومن جديد سأل الرجلان أين النار ولكن المرأتين تمسكتا بقولهما إنه لا توجد نار. فقال الرجلان: «لقد رأيناها»، فأجابت المرأتان: «كلا، أنتما تهزآن منا إذ لا توجد نار»، فأجاب الرجلان: «لقد رأيناها كبيرة، فإذا لم يكن عندكما نار فكيف تطهوان طعامكما؟ فهل الشمس هي التي طبخته؟ وإذا كانت الشمس هي التي طهت زنابقكما فلماذا لم تطبخ بطاتنا ولم تمنعها من الفساد؟»، ولكن المرأتين لم تجيبا بشيء على هذا السؤال. وناموا كلهم. وعندما استيقظوا ذهب الرجلان يقتلعان أرومة شجرة من «خشب الحديد» واستخلصا منه نسغه الراتنجي. ثم أخذا عصاوين واكتشفا بأن بإمكانهما صنع النار بحكهما بعضهما ببعض. ومن أجل معاقبة المرأتين على كذبهما في موضوع النار صمما أن يتحولا إلى تمساحين ليجعلاهما تدفعان ثمن خداعهما. فجعلا المادة الراتنجية التي أتيا بها من شجرة الحديد على شكل رأسين لتمساحين ووضعاهما على رأسيهما ثم غطسا في مستنقع. وعندما أتت المرأتان إلى هذا المستنقع لصيد الأسماك قاما بجرهما تحت الماء وقتلاهما. وبعد أن أتما ذلك قام الرجلان التمساحان بجر المرأتين إلى الشاطىء وقالا لهما: «انهضا، امشيا، لماذا كنتما تكذبان في موضوع النار؟»، ولكن المرأتين الميتتين لم تحيرا جواباً. وقد احتفظ الرجلان لفترة ما برأسي تمساحين بينما بقيت أذرعهما وأرجلهما بشرية إلا أنهما تحولا بعد ذلك إلى تمساحين حقيقيين فكانا أول هذا النوع من الكائنات، وقبلهما لم يكن ثمة على الأرض كائنات مشابهة.

٤ ـ أصل النار في جزر مضيق تورّي وفي غينية الجديدة

في الجزر الغربية من مضيق تورّي بين أستراليا وغينية الجديدة أمكننا أن نلتقط القصة التالية عن أصل النار:

امرأة عجوز اسمها سيركار كانت تعيش في ناجير وكان لها ستة أصابع في كل من يديها، فكان لها اصبع بين الإبهام والسبابة كما هي العادة عند كل الناس في هذه العصور البعيدة. وعندما كانت تريد أن تصنع ناراً كانت تضع قطعتين من الخشب القابل للاحتراق إحداهما فوق الأخرى ثم تضع الإصبع الذي تقبع فيه النار تحت الخشب فيشتعل. وهكذا كانت كل الحيوانات في «موا» ترى في أغلب الأحيان الدخان الذي تصنعه سيركار وتعرف أن لديها ناراً وترغب في أن يكون لديها شيء منها لأنها لم تكن تمتلك أية نار. وهكذا تداعت هذه الحيوانات إلى عقد مؤتمر في أحد الأيام، وكان من بينها الثعبان والضفدع والحراذين من مختلف الأنواع، منها

الحرذون الطويل الذنب (زيرار) والحرذون الصغير جداً (مونان) والحرذون الداجن (وايبم) وحرذونان كبيران اسمهما سي وكاروم. واتفق الجميع على أن يسبحوا حتى ناجير ليحصلوا على النار. وكان على الثعبان أن يكون أول المحاولين، ولكن البحر كان هائجاً فوجب عليه أن يعود. وبعده قامت الضفدع بالمحاولة، ولكنها فشلت أيضاً في صراعها ضد الأمواج. وبعدها أتى الحرذون الصغير والحرذون ذو الذنب الطويل والحرذون الداجن و«سي» أحد الحرذونين الكبيرين، فقد غطسوا كلهم في الماء ولكنهم عادوا تحت الظروف نفسها. وأخيراً حاول الحرذون الكبير الآخر «كاروم» أن ينجز هذه المهمة، وبفضل عنقه الطويل الذي سمح له بأن يحتفظ برأسه مرفوعاً فوق الأمواج تمكن أن يجتاز المسافة سباحة وأن يصل إلى شاطىء ناجير الرملي. وما كاد أن يصبح هناك حتى ذهب رأساً إلى بيت سيركار. وكانت تجلس وهي مشغولة بجدل سلة فسرت سروراً كبيراً لمرآه. وقد دعته إلى الجلوس وذهبت إلى البستان تبحث عن الأطعمة لزائرها، فاستغل الحرذون ذو العنق الطويل غيابها ليفتش في المنزل ولكنه لم يستطع أن يجد النار. ففكر في سريرته: «نحن مجانين في موا، فالعجوز ليس لديها نار». ثم عادت العجوز حاملة كمية من الأطعمة من البستان وكمية من الخشب لإشعاله، وعند ذلك وضعت قطعة من الخشب على قطعة أخرى بينما كان الحرذون ذو العنق الطويل يراقبها باهتمام. وقد رآها تقرّب إصبعها من الخشب فاشتعلت فيه النار حالاً وخرجت منه ألسنة اللهيب. ثم قامت بطبخ الطعام. وبعد أن أتمت ذلك انتزعت كل الخشب من النار وخبأته في الرمل لأنها كانت امرأة مقتصدة ولا تريد أن تفقد شيئاً من الخشب القابل للاشتعال. وكانت النار قد انطفأت تماماً ولم يبق منها ولا بصيص، ولكن المرأة كانت تمتلك النار دائماً في إصبعها. وكان الحرذون ذو العنق الطويل مصمماً على أن يحصل على النار ليأخذها معه إلى «موا». وهكذا قال بعد أن انتهى من غذائه: «حسن، إنني ذاهب، فالمسافة بعيدة من هنا إلى موا». فقامت المرأة بمرافقته حتى الشاطىء الذي يريد الابحار منه. وعند طرف الماء مد

الحرذون ذو العنق الطويل يده إلى المرأة العجوز فمدت له يدها اليسرى، ولكنـه رفضهـا وقال لها: «أعطني اليد الجيدة» وأصر على ذلك، فأعطته المرأة في النهاية يدها اليمنى حيث كانت توجد النار. فأخذ الحرذون في فمه الإصبع التي كانت تحتوي على النارفقطعها بعضة من أسنانه وسبح بها حتى موا. وهنـاك كان كل النـاس، أو بالأحرى كل الحيوانات، ينتظرونه على السـاحـل. وكـان الجميع سعـداء لرؤيتهم النار التي جلبها لهم. وحمل الجميع النار إلى جزيرة «مير» إحدى جزر موراي حيث ذهبوا إلى الغابة وأخذ كل منهم غصناً من شجرة أشعل فيه النار أحسن إشعال ثم طلبوا من كل شجرة أن تأتي لتأخذ جذوة من هذه النار. فواحد منهم طلب ذلك من البامبو (ماريب)، وآخر طلبه من الـ Hibiscus tiliaceux (سيم) وآخر من الأوجينيا (سوب) وهكذا. فأخذت هذه الأشجار كلها من النار واحتفظت بها حتى الآن. ومن هذه الأشجار أخذ الناس (غابات النار). وغابات النار (غوارغوا) لهـا جزءان، أحدهما عمودي والآخر أفقي. وعلى الإنسان أن يدير العصا العمودية على العصا الأفقية حتى يحصل على النار. وهذه العملية تسمى «الأم تعـطي النـار»، ذلـك لأن العصـا الأفقية تسمى «الأم» بينما العصا العمـودية تسمى «الولد». أما المرأة العجوز سيركار فقد أضاعت إصبعها السادس فأصبح الناس منذ ذلك الوقت لا يملكون إلا خمسة أصابع بينما كان لهم ستة فيما مضى. ولا نزال نرى حتى الآن الفراغ الكبير بين السبابة والإبهام حيث كان يوجد الإصبع السادس. إلا أن رواية أخرى لهذه القصة تقول إن الحرذون ذا العنق الطويل لم ينتزع إصبع المرأة العجوز بعضة من أسنانه وإنما قطعها بمنشار صنعه من إحدى الأصداف (سيرينا) المنتشرة في غينية الجديدة.

وثمـة مكتشف آخر يروي نصاً آخر يختلف اختلافاً بسيطاً عن هذه القصـة، وإليك هذا النص: في إحـدى الجزر المجاورة لغينية الجديدة (داودي) كانت تعيش امـرأة اسمها ساركار كانت تمتلك النار بين إصبعها وإبهامها من اليد اليمنى. وفي أحد الأيام رأى بعض الصيادين دخاناً يتصاعد

من الجزيرة التي كانت تقطنها ساركار فقرروا الذهاب ليروا وليتأكدوا بأنفسهم من هذه القوة الغامضة. وبعد أن تناقشوا فيما بينهم نقاشاً طويلاً في أفضل الوسائل للحصول على المعلومات المطلوبة قرروا أن يتحولوا إلى حيوانات. وأخيراً اتخذوا أشكال فأر وحرذون صغير (مونا) وثعبان وعظاية وحرذون ذي عنق طويل (كاروم) وغير ذلك من أنواع الحيوانات. وقد أجبر البحر الهائج كلاً من الفأر والحرذون الصغير (مونا) والثعبان والعظاية والآخرين على أن يتخلوا عن محاولتهم، ولم يصمد إلا الحرذون ذو العنق الطويل الذي وصل أخيراً إلى قرب المكان الذي تسكن فيه ساركار. وعندما ذهب إلى هذه المرأة في زي رجل قال لها: «هل عندك نار؟». فأجابته: «كلا!» لأنها كانت ترغب في أن تحتفظ بقوتها السرية. ولكنها أتت إلى ضيفها بالطعام. وعندما أكل اضطجع لينام. ومع ذلك فإنه لم ينم إلا بعين واحدة ورأى كيف كانت المرأة تخرج النار من يدها وتشعل الأوراق الجافة والأخشاب. وفي الصباح التاليْ قرر الذهاب وقال لساركار: «إنني ذاهب، فلنتصافح!» فقدمت له يدها اليسرى ولكنه لم يشأ أن يتناولها وطلب منها أن تقدم له الأخرى. وعند ذلك أعطته يدها اليمنى فاستل فوراً سكيناً من البامبو وقطع يدها وغطس في البحر مع غنيمته. وعندما وصل إلى منزله حاول أن يصنع ناراً فنجح في ذلك. فرأته بعض الأشجار يصنع النار فأتت لتستطلع الأمر. وقام بعض منها بما في ذلك البامبو (ماريب) والكيزو والسيني والزيب والأرجيرجي فحملوا النار معهم ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه الأشجار تمتلك القدرة على انتاج النار. واعتاد الوطنيون أن يأخذوا من هذه الأشجار عيداناً يحكّون بعضها ببعضها الآخر للحصول على النار.

في هذا النص من الرواية يقوم الرجال بدور الممثلين بعد أن يغيروا أنفسهم إلى حيوانات وفي نيتهم أن يختلسوا النار من المرأة العجوز، بينما في نص الرواية السابقة، وهو النص الأصلي البدائي بلا شك، كانت الحيوانات الأصيلة هي الأبطال.

وقد أمكننا الحصول على نص مختصر للقصة نفسها في مووات وهي

منطقة تقع إلى الجنوب من نهر فلاي في غينيّة الجديدة. والرواية مفادها أن «إيغوون الذي يتجلى في هيئة وطواط هو الذي أدخل النار إلى مووات. ويحسب الأسطورة أن إحدى القبائل كانت تسكن الجزيرة المزدوجة نالجي القريبة من ناجير، فأظهر أحد أفرادها أن بإمكانه أن يخرج النار مما بين السبابة والإبهام من يده اليسرى، فنازعه بقية أفراد القبيلة على امتلاك النار فتحولوا كلهم إلى حيوانات على شكل طيور وأسماك وزواحف (بما في ذلك الأطوم والسلحفاة). أما إيغوون (أي الوطواط) فقد ذهب إلى مووات وتفرقت بقية الحيوانات في الأماكن المختلفة من مضائق غينية الجديدة». ففي هذا النص يقوم وطواط كبير بلعب دور حامل النار بدلاً من الحرذون ذي العنق الطويل، أما ما تبقى من القصة فإنه ينطبق مع المضمون الأساسي للقصة السابقة من حيث أنه يروي كيف أن النار كانت تخرج في بادىء الأمر مما بين السبابة والابهام لكائن إنساني وكيف أن الذين شجعوا على اختلاسها وساعدوا عليه انقلبوا كلهم إلى حيوانات.

ويروي شعب ماواتّا أن النار جُلبت إليه من جزيرة مابوياغ في مضيق تورّي على الطريقة التالية: في ذلك الزمان كان الوطنيون في مضيق تورّي، شأنهم في ذلك شأن سكان غينية الجديدة، لا يعرفون النار. وفي أحد الأيام رأى بعض الرجال تمساحاً كان يمتلك النار في فمه ويطهو بها طعامه. فقالوا: «أيها التمساح أعطنا شيئاً من النار ولكنه رفض. فذهبوا عندئذ إلى رئيسهم الذي كان مريضاً في بيته وأخبروه بما رأوه. فلما تماثل إلى الشفاء أخذ بعضاً من الطعام وسبح حتى داوان. وبينما كان يرتاح رأى دخاناً يرتفع فوق الماء على ساحل غينية الجديدة. ولما قطع المسافة سباحة رأى امرأة تضع النار في العشب، فسرق منها النار وعاد بها إلى مابوياغ، ومن مابوياغ انتقلت النار إلى توتو التي نقلها سكانها إلى ماواتّا.

وفي جزيرة كيواي التي توجد في عرض البحر القريب من ساحل غينية الجديدة عند مصب نهر فلاي تشيع قصص مختلفة عن أصل النار. وقد نقل

أولاها المحترم أيمس شالميرز الذي كانَ مبشـراً ضحى بحياته وهو يعتني بتغيير أحوال الوطنيين في غينية الجديدة. وقصته هي التالية:

«كانت النار قد صُنعت لأول مرة على أرض غينية بالقرب من ديبيري على يد رجلين لم أستطع أن أعرف اسميهما. وقد حاولت كل الحيوانات أن تسرق قليلاً من النار وأن تسبح بها إلى جزيرة كيواي ولكنها فشلت. عند ذلك قامت الطيور كلها بالمحاولة نفسها ففشلت هي الأخرى حتى قامت ببغـاء من نوع الكُتوّة فاتخذت سبيلها طائرة وهي تقول إنها ستجلب لقومها النار. وقد ناضلت في سبيل ذلك حتى أمسكت بطرف خشبة مشتعلة وطارت بها عائدة نحو مصب النهر، ولكنها كانت تسقطها عى الجزر المختلفة التي تمر بها ثم تعود لالتقاطها حتى وصلت بها إلى ياسا. وكان فمها قد احترق خلال ذلك احتراقاً رهيباً ومن هنا أتت البقع الحمر التي تحد منقارها من جانبيه. وفي ياسا تركت النار تسقط حيث استحوذ عليها السكان ولم تفلت منهم بعد ذلك قط». ومما لاشك فيه أن الكتوة (الببغاء) التي ورد ذكرها في هذا النص هي من نوع Microglossa «الـذي يمتاز بريش أسود كله بينما يظهر لون أحمر قان على وجنتيه العاريتين».

وقد رويت القصة نفسها في كيواي ولكن بصورة أكثر كمالاً على يد باحث أحدث على الشكل التالي: «من المفهوم طبعاً أن الناس في أحد العصور لم يكونوا يعرفون النار فكانوا مضطرين لأن يأكلوا طعامهم دون أن يطبخوا شيئاً منه. ومع ذلك فإن النار كانت معروفة في ديبيري (عند مصب نهر بامو) فحاولت الحيوانات التي علمت بذلك أن تقوم باختلاسها. فحاول التمســاح على غير طائـل، ثم فشـل الشبنم أيضـاً (هـو نوع من النعـام الأسترالي)، ولم ينجح الكلب نفسه في مسعاه. عند ذلك حاولت الطيور فنجـح الكُتوّة الأسود في أن يأخذ قليلاً من النار وأن يطير بها نحو الغرب ممسكاً إياها في منقاره. ومع ذلك فإنه عندما وصل إلى ياسا أحرقت النار فمه فترك الجمرة تسقط منـه. وهكذا حصل سكان كيواي على النار وصار للكتـوة الأسـود ظل أحمـر فوق منقـاره لا يزال موجوداً على اليوم». وفي

مقاطعات أخرى كثيرة من غينية الجديدة تروي معظم الحكايات عن أصل النار أن الكلب كان أول من أتى بها إلى البشر، وفي هذه الحالة قام الكلب باختلاسها من الفأر. والطريقة العملية لإشعال النار عند سكان كيواي هي أن يسندوا برجلهم جذع شجرة ملقى على الأرض وأن يحكوا عليه من الأسفل بشظية من الخشب حكاً سريعاً جداً. أما طريقة «محراق النار» فهي تنويع من هذه الطريقة. وهنالك طريقة «العصا والثلم» التي تقوم على أساس حك حد مشحوذ من عصا على طول ثلم مصنوع في قطعة من الخشب ملقاة على الأرض.

وقد جمع الدكتور غونّار لانتمان، وهو أنتروبولوجي فنلندي، جمع من كيواي في السنوات الأخيرة عدداً من الحكايات عن أصل النار، من بينها تلك التي تروي كيف دخلت النار إلى كيواي عن طريق الكتوة الأسود، وإليك خبرها:

كان ولد صغير يسكن في مانافيت في غينية الجديدة بعد أن جره إليها تمساح في أحد الأيام. فقام أبوه داف فامتطى زورقاً وأخذ يبحث عنه على أمل أن يجده في مكان ما سواء هو نفسه أو روحه. وبعد تجديف طويل وصل إلى دوروبا في جزيرة كيواي. ولم تكن يومذاك إلا شاطئاً رملياً خالياً من الأشجار. وهناك قضى الليل، فلما طلع النهار اتخذ سبيله حتى وصل إلى سانوبا في الجزيرة نفسها حيث كان يعيش رجل اسمه موري. ولم يكن موري هذا يمتلك لا ناراً ولا بستاناً بل يقضي وقته في التقاط الأسماك التي يجففها في حرارة الشمس. وقد ذكر هذا الرجل لداف أنه لا يمتلك ناراً فوعده داف أن يأتيه بشيء منها. وكان داف يمتلك طائراً خارقاً للمألوف هو الكُتوّة الأسود Kapia ، فأرسله ليبحث عن النار في مانافيت. وطار الطير ثم عاد بعد بعض الوقت وفي منقاره جمرة من نار، وكان قد اعتاد أن يحمل النار بهذه الطريقة فتسببت له بهذا الظل الأحمر الذي يحيط بزاويتي فمه. واحتفظ موري دائماً بشعلة النار التي حملها الكتوة إليه.

وإليك حكاية أخرى التقطها الدكتور لانتمان من كيواي وتروي كيف

حصل سكان الجزر الواقعة في مضيق تورّي على النار للمرة الأولى، ومن الواضح أن هذه الحكاية هي تلوين عن الأسطورة التي يرويها الوطنيون أنفسهم:

في أقصى جزيرة بادو في مضيق تورّي كان يعيش مع أمه رجل يسمى هاويا ولم يكن عندهما نار. وعلى الطرف الآخر من الجزيرة كان يعيش تمساح يملك النار. وفي أحد الأيام كان هاويا والتمساح يصطادان السمك، فلما عاد التمساح إلى منزله أشعل ناراً لطبخ طعامه. ولما سأله هاويا أن يعيره شيئاً من النار ليتمكن هو الآخر من طهو طعامه رفض طلبه بكل فظاظة. عند ذلك عاد الرجل إلى منزله فقطّع الأسماك مع أمه ووضعاها لتجف في الشمس، ولكن كان عليهما أن يأكلاها نيئة في النهاية. وقد طلب هاويا النار مرات أخرى من التمساح ولكنه لم يتمكن من نيل ما أراد.

وفي أحد الأيام استعد هاويا للبحث عن النار في مكان آخر، فوضع على رأسه طاقية من الريش الأبيض وصبغ وجهه باللون الأسود وارتدى كثيراً من الزينات. وبعد أن تزين على هذا الشكل غطس في الماء وسبح نحو بوندجي وهو يغني أثناء السباحة: «دخان هناك؛ إنهم يحرقون الدغل. إنني أسبح عبر الماء وسأحصل على النار». وأخيراً بلغ بوندجي. وكانت تعيش هناك امرأة تحرق الدغل لتقيم مكانه بستاناً لها. ومن بين إبهامها وسبابتها من اليد اليمنى كانت تشتعل النار. وعندما لاحظت هاويا أطفأت كل نيران الدغل خوفاً من أن يعرف الغريب أنها تمتلك النار. ثم سألته من أين أتى وماذا يريد فأخبرها بمبتغاه فردت المرأة عليه: «حسن، اذهب الآن للنوم وغداً سأعطيك من النار». وفي اليوم التالي بدأت بإحراق الدغل أيضاً، فقال لها هاويا: «هيا فلنتصافح لأنني أريد الذهاب». فمدت له يدها اليسرى ولكنه طلب أن تمد له اليمنى، فلما فعلت انتزع منها النار على غفلة منها. وعندما استولى عليها قفز إلى الماء وسبح حتى بواغو وهو يغني نفس اللحن السابق، فلما وصل إلى بواغو أشعل ناراً فارتفع منها الدخان، فلما رأته أمه من بعيد وهي في بادو صاحت قائلة: «أواه! إنه الدخان هناك! لقد عاد ابني

ومعه النار». وفي اليوم التالي ذهب إلى جزيرة مابوياغ وأشعل إشارة مشابهة، فقالت أمه: «إنه في مابوياغ، إن الدخان يقترب». وأخيراً وصل إلى بادو فقالت أمه: «أصبح لدي نار، سنصطاد الأسماك وسنطبخها على النار».
عند ذلك رأى التمساح أن هاويا وأمه أصبح لديهما نار، فتقدم إليهما بكل أدب وعرض عليهما أن يعطيهما شيئاً من ناره متصنعاً اللطف. ولكن هاويا قال له: «كلا! أنا لا أريد شيئاً من نارك فقد حصلت عليها من مكان آخر».
ثم أضاف: «عليك ألا تبقى على الشاطىء فأنت تمساح وينبغي أن تبقى في الماء لأنك لست إنساناً مثلنا لتبقى على الشط». عند ذلك ذهب التمساح المرتبك الخجل من نفسه إلى الماء وهو يقول: «اسمي هو التمساح، وسأذهب لأمسك بالناس في كل مكان».

فالطاقية من الريش الأبيض التي حملها الرجل على رأسه في هذه القصة واللون الأسود الذي طلا به وجهه عندما اجتاز البحر وسبح للحصول على النار يمكن أن تكون كلها بقية من رواية شفوية بدائية حل فيها كائن بشري متخف بهيئة الكتوة الأسود محل هذا الطائر ليلعب دور حامل النار الذي ورد ذكره في القصص الأخرى التي وصلتنا من جزيرة كيواي.

وفي قصة جديدة أخرى يرويها الدكتور لانتمان نجد نفس الطريقة الغريبة في الحصول على النار بانتزاعها من شخص كان يملك ناراً حامية بين السبابة والإبهام. وإليك الحكاية:

في موري، إحدى جزر مضيق توري، كان يعيش رجل اسمه إيكو ويمتلك ناراً حامية بين السبابة والإبهام من يده اليمنى. وكانت هذه النار هي الوحيدة في الجزر كلها، وكل النار التي نراها الآن في الجزر إنما أتت من النار التي كانت موجودة بين السبابة والإبهام من يد إيكو اليمنى، ولا نزال كلنا نرى فراغاً واسعاً بين السبابة والإبهام لأن إيكو كان يمتلك هنا جذوة من النار.

وفي هذه الأثناء، في ناجير التي هي جزيرة أخرى في مضيق توري، كان يسكن رجل اسمه ناغا يعيش على الأسماك التي يصطادها بعد أن

يجففها في الشمس. وفي مابوياغ، وهي جزيرة أخرى في المضيق، كان يعيش رجل اسمه واياتي مع امرأته وابنته. ولم يكن لدى كل هؤلاء الناس نار بل يأكلون طعامهم بارداً. وفي أحد الأيام ذهب ناغا لرؤية واياتي في مابوياغ وقال له: «هيا نذهب لنفتش عن النار، فثمة رجل اسمه إيكو يعيش في جزيرة موري ويمتلك النار في يده بينما نطبخ أنا وأنت طعامنا بحرارة الشمس».
عند ذلك قام صقر فحمل الرجلين وطار بهما فوق البحر حتى موري حيث وضعهما هناك فوق شجرة كبيرة. فنزل الرجلان إلى الأرض وتركا الصقر ينتظرهما فوق الشجرة. وفي هذه الأثناء كان إيكو مشغولاً بصنع زورق من جذع إحدى الأشجار. فراقبه الرجلان في الدخل ورأيا النار في يده. وبعد أن ألقى إيكو بلطته على الأرض أشعل النار في بضع قطع من الخشب.
وكان الرجلان لا يزالان يراقبانه وهما يقولان: «لقد أشعل النار في الخشب، لقد أشعل النار بيده، أواه، نعم، نعم». ثم خرجا من الدغل فالتفت إليهما إيكو وقال: «من أين أتيتما أنتما الإثنان، فهنا لا يوجد أي إنسان، لماذا أتيتما؟». فقالا: «لقد أتينا نفتش عن النار لأننا لا نملكها، ونحن نطبخ سمكنا دائماً بحرارة الشمس». وعندما سمع إيكو هذا الكلام خبأ النار في يده حتى لم يعودا يرياها ثم قال: «ليس عندي نار، من قال لكما إن عندي ناراً؟» فأكدا له معرفتهما بملكيته للنار. أما ناغا الذي كان قد وصل قبل ذلك إلى موري في إحدى المرات محمولاً بين يدي الصقر ورأى النار يومذاك فقد قال لإيكو: «لقد رأيتك في المرة الأولى قبل أن أفاتح صديقي بالموضوع».
فصاح إيكو عند ذلك بكل احتقار: «لستما من بني الإنسان بل أنتما شيطانان. أنتما لا تملكان النار وتأكلان الطعام بارداً، أما أنا فإنني إنسان وعندي نار سأريكما إياها». وعند ذلك فتح يده وقال: «انظرا، ها هي ذي النار تخرج الآن». وفي تلك اللحظة انقض ناغا وانتزع النار من يده وفشلت جهود إيكو في أن تمنعه من ذلك فقال: «لا تأخذا هذه النار فإنها لي» وجرى خلف ناغا صائحاً: «أوه! رد لي ناري»، ولكن ناغا وواياتي أدركا الصقر بسرعة فطار بهما واضطر إيكو أن يكف عن ملاحقتهما وعاد رأساً إلى منزله وهو يزمجر

من هذه الخسارة التي لحقت به. ومن أجل أن يحافظ على النار التي أوقدها منذ قليل بعد أن فقد المصدر الذي كانت تخرج منه جمع فوقها الكثير من الأخشاب. أما المكان الذي كانت تخرج منه النار في يده فقد عاد إلى الالتئام.

وأما ناغا وواياتي فقد عادا إلى ناجير جزيرة ناغا وأشعلا فيها ناراً كبيرة. وبعد ذلك عاد واياتي إلى جزيرته مابوياغ حاملاً معه نار إيكو. وكانت عائلته على وشك أن تجفف السمك في الشمس، ولكن واياتي أشعل ناراً فصرخت زوجته: «ما هذا؟» فأجابها: «هذه نار من أجل الطعام»، وانبعثت نار كبيرة أخافت العائلة فقالوا: «أوه، ما هذا؟»، ولكن واياتي طمأنهم قائلاً: «انتظروا حتى ينضج السمك»، فلما نضج أعطاهم منه فأكلوا وهم يصيحون: «أواه يا أبانا، تلك تقدمة جيدة منك، فقد كنا نجفف السمك حتى الآن وكان ذلك يأخذ منا الكثير من الوقت».

وفي مرة أخرى ذهب ناغا وواياتي إلى جزيرةيام محمولين على الصقر، وقد عاد واياتي الى مابوياغ بعد قليل بينما استقر ناغا في يام ونقل إليها عائلته، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يعيش فيها فوق ظهر هذه الجزيرة إنسان. أما إيكو فقد ذهب إلى دافان وأعطى النار إلى كوجيا كما أعطاها إلى ميريفا في جزيرة سيباي في بحر داودي في غينية الجديدة. ومن سيباي انتشرت معرفة النار في غينية الجديدة، ثم عاد إيكو بعد ذلك إلى جزيرته موري.

وإليك قصة أخرى تروي كيف أن الصانع الأول للنار كان صبياً صغيراً اسمه كويامو كان يملك دائماً ناراً حامية في طرف السبابة من يده اليمنى. وكان وطنياً من سكان جزيرة مابوياغ في مضيق تورّي، ولكنه ذهب ذات يوم ليرى بعض الأشخاص في جزيرة بادو. ولم يكن هؤلاء الناس يعرفون استعمال النار وإنما يطبخون طعامهم في حرارة الشمس. وعندما قدموا لكويامو طعاماً نيئاً ليأكله علمهم هذا كيفية طبخه. فقد وضع إصبعه على قطعة خشب فاشتعلت فيها النار. فخاف هؤلاء الناس في بادىء الأمر من

هذا المنظر لأنهم لم يكونوا معتادين على الطعام المطبوخ. وقد أغمي عليهم عندما تذوقوه للمرة الأولى ولكنهم ما لبثوا أن أحبوه. وقد حدث الشيء نفسه في جزيرة مووا وفي جزر أخرى ذهب إليها كويامو ليعلم الناس كيف يستعملون النار.

أما لدى شعب ماسينغارا عند مصب نهر فلاي في غينية الجديدة فتوجد قصة عن أصل النار تشبه كثيراً ما يرويه سكان الجزر في مضيق تورّي. فهم يقولون إنه لم يكن يوجد في البداية نار وإن طعامهم الوحيد كان يتألف من الموز الناضج والسمك المجفف تحت أشعة الشمس، وعندما ملوا من نظام الطعام هذا أرسلوا بعض الحيوانات لتفتش عن النار. وكان أولَ من اختير لهذه المهمة الفأر (الجربوع)، فقد أعطوه شراباً من الكافا (غامودا) وطلبوا منه الذهاب للبحث عن النار. فشرب الفأر الكافا وذهب إلى الدغل وبقي هناك دون أن يهتم بالبحث عن النار. والشيء نفسه حدث مع الثعبان، فكل واحد بعد الآخر كان يشرب الكافا ويذهب إلى الدغل ويبقى فيه. وأخيراً لجأ الشعب إلى العظاية المعروفة باسم إيكو في ماواتا، فشربت الكافا وغطست في البحر وسبحت حتى جزيرة تودو حيث وجدت ناراً حملتها في فمها وعادت تسبح طول الوقت ورأسها مرفوعة فوق الأمواج لكي لا تنطفىء النار. ومنذ ذلك الوقت أصبح سكان الدغل يمتلكون النار. وهم يصنعونها بحك قطعة من خشب البامبو بقطعة أخرى من الخشب نفسه طليت مسبقاً بالشمع.

وثمة قصة أخرى تحكي أن رجلاً اسمه توروما كان يعيش في جيبو في جزيرة كيواي ومن عادته أن يلتقط الأسماك ويجففها في الشمس لأنه لم يكن لديه نار. وإلى جانبه كان يعيش تحت الأرض كائن أسطوري اسمه جيبونوجير ويشفق على توروما لأنه يراه يجفف سمكه من قلة النار. وفي أحد الأيام بينما كان توروما غائباً في رحلة صيد للسمك حفر جيبونوجير ثقباً في الأرض وخرج منه وهو يغطي نفسه بالتراب ليخفي نفسه عن أعين توروما. وعندما عاد هذا اكتشف آثار أقدام جيبو نوجير فاندهش وقال في نفسه: «منذا

الذي مشي هنا؟ فأنا الإنسان الوحيد الذي يعيش في هذا المكان». فنهض جيبونوجير فجأة وقال: «من أنت وعمَّ تتكلم؟». فصاح توروما المندهش: «ياأبي! من أين أتيت؟، ذلك من أجل أن يكسب مودة جيبونوجير دعاه ياأبي. فأجاب جيبونوجير: «إنني أعيش تحت الأرض، فهذا سكني، وإنه والله لسكن جيد، فهناك توجد النار، وأنت لا تملكها فمن صالحك أن تأتي معي». وكان توروما لا يزال خائفاً ولكن جيبونوجير وعده بأن يعطيه النار وألح عليه بالمجيء. عند ذلك ذهبا إلى مسكن جيبو نوجير تحت الأرض، ولكن توروما عندما جلس بالقرب من النار أغمي عليه. إلا أن جيبونوجير فصده وأشربه ماءً وغسل له جسمه حتى أفاق. ثم تزوج ابنة جيبونوجير وأعطى لحميّه كثيراً من الفؤوس الحجرية والعقود المصنوعة من أسنان الكلاب مهراً لهذه العروس. ولكن العروس لم تعش لسوء الحظ حتى ليلة العرس، وقبل أن يأتي الصباح أصبح توروما أرمل.

وثمة قصة أكثر ركاكة وخالية من هذه الخاتمة المأساوية تروي لنا كيف أنه في الأيام السالفة وبينما لم تكن جزيرة كيواي إلا شاطئاً رملياً لا ينبت فيه من الأشجار إلا بعض شجيرات مستنقعية كان يعيش رجلان لا يبعدان عن بعضهما إلا قليلاً في ياسا. وكان أحدهما يسمى نابيمورو والآخر كيابورو. ولم يكن لدى هذا الأخير نار بل يأكل سمكه نيئاً بتجفيفه في الشمس، بينما كان نابيمورو يصنع النار بحفره ثقباً في عصا بواسطة عصا أخرى ولم يكن يريد أن يشرك كيابورو في علمه هذا. ومع ذلك فقد فاجأه كيابورو يوماً وهو يصنع النار فسرقها منه وهرب بها ولم يستطع نابيمورو العجوز أن يمسك بالسارق.

وثمة قصة أكثر تثقيفاً جاء بها الدكتور لانتمان من كيواي تروي لنا على الشكل التالي أول كشف للنار وكيفية صنعها:

فيما مضى من الزمان كان كل الناس قد اعتادوا أكل الطعام نيئاً. ولكن رجلاً من غورورو أو ربما كان من غلولو حلم ذات مرة أن روحاً أتت إليه وقالت: «توجد نار في قوسك». وعندما استيقظ قال لنفسه: «نار؟ ماذا

يعني ذلك؟». ثم عاد إلى النوم فعادت إليه الروح وقالت: «غداً جرّب قوسك، حُكَّه بقطعة خشب وكأنك تريد قطعها». وفي الصباح ذهب الرجل يفتش عن قطعة خشب وأخذ بنشرها بواسطة قوسه مستعملاً وتره سكيناً، فلاحظ أن الحك قد دفّأ الخشب، وعندما جار بالحك انبعث دخان ثم اندلعت النار، وعند ذلك استعمل بعض خيوط جوز الهند الجافة فتيلاً لها فما لبث أن أصبح لديه نار موقدة. فسر سروراً كبيراً بهذا الاكتشاف وتدفأ على النار وطها عليها طعامه. وقد طها عليها في بادىء الأمر جذراً من القلقاس كسره إلى نصفين ثم شمَّه بكل حذر وقال لنفسه متردداً: «ولنفرض أنني مت إذا أكلته؟»، ولكنه بعد أن أكله صاح قائلاً: «إنه حلو»، ثم عاد إلى من كانوا في منزله وجلب لهم النار. إلا أنهم خافوا كلهم وأرادوا الفرار، فشرح لهم طريقة استعمالها وأراهم كيف يطهون عليها الطعام. وقد خافوا في بادىء الأمر من أكل الطعام المطهو ولكنهم تبنوا بعد فترة من الوقت هذه الطريقة الجديدة في تحضير الطعام.

وفي هذا السياق نفسه يروي الدكتور لانتمان قصة أخرى عن ولد اسمه جافاجي كان ابناً لذكر من الكنغر فقام مرة ينشر بوتره المصنوع من البامبو قطعة خشب ليقسمها إلى نصفين فاشتعلت فيها النار. وقد خاف الولد في بادىء الأمر ولكن أمه أو مرضعته، وهي من الكنغر أيضاً، أتت إليه في الليل وقالت: «هذه النار التي حصلت عليها هي شيء حسن فلا تخف واطه عليها طعامك». وتضيف القصة أن بعض البوشمان قد حصلوا على النار بهذه الطريقة أيضاً، أي بنشرهم لقطعة من الخشب بوتر من البامبو.

وقد قام نفر من الوطنيين من سكان غينية الجديدة من خليج بابو في بيرو PERAU ، قاموا بإعلام السيد جيمس شالميرز بأن النار تم الحصول عليها لأول مرة من باطن الأرض ولكنها اختفت بعد بضعة أجيال. وعندما انطفأت النار على الأرض حدث أن امرأة كانت تضع طفلها فأحست ببرد شديد وبحاجتها إلى الدفء. عند ذلك نزلت نار صغيرة من السماء فأذكاها الأب والأم بالأوراق الجافة فما لبثت أن اشتعلت وجلست المرأة فتدفأت

بالقرب منها. وأتى أناس بهدايا للطفل فحصلوا في مقابل ذلك على عصا مشتعلة، ومنذ ذلك الوقت لم تنطفىء النار قط.

وفي موتوموتو في غينية الجديدة يقال إن أول نار شبت في الجبال. وقبل ذلك كان كل ما يؤكل نيئاً حتى حدث ذات يوم أن جبلياً اسمه إيريارا كان جالساً مع امرأته فحك فجأة عصاوين بعضهما ببعض فانبثقت منهما النار.

وعند قبيلة موتو في غينية الجديدة يروون الحكاية التالية عن أصل النار عند هذا الشعب. يقول الموتو إن أجدادهم كان من عادتهم أن يأكلوا طعامهم نيئاً أو مطهواً في الشمس. وفي أحد الأيام رأوا دخاناً في تاولو التي يعني اسمها على ما يقال: «فسحة المحيط». فصاح كلب وثعبان وطير وكنغر: «دخان في تاولو! دخان في تاولو! التاوليون عندهم نار. فمن يذهب ليأتينا بقبس منها؟». فذهب الثعبان ولكن البحر كان هائجاً فعاد بعد قليل. وحاول الطير ولكنه فشل أمام الريح العاتية. بعد ذلك ذهب الكنغر ولكنه فشل أيضاً. عند ذلك قال الكلب: «سأذهب للبحث عن النار». ثم سبح حتى الجزيرة حيث حط به الرحال فرأى ناراً ونساءً يقمن بطهو الطعام. فقلن له: «ها هوذا كلب غريب فلنقتله». ولكن الكلب أمسك بقبس متوهج وقفز به إلى البحر وعاد إلى السباحة حتى اقترب من جزيرته حاملاً القبس يتصاعد منه الدخان. وعندما أصبح على اليابسة فرحت النساء لأنهن حصلن على النار، وأتت نساء أخريات من بقية القرى فاشترين ناراً أيضاً. أما الحيوانات الأخرى التي كانت غيورة من الكلب فشتمته وأهانته، فجرى خلف الثعبان حتى أدخله في وكره، ووراء الكنغر الذي فر إلى الجبال، وقامت منذ ذلك الوقت عداوة بين الكلب وبين بقية الحيوانات.

ولقد سجل جيمس شالمرز قصة الموتو مع بعض تعديلات طفيفة. فبحسب نصه كانت الحيوانات التي حاولت جلب النار هي دُرّج الدغل والثعبان والعظاية والسُمّاني والولاّبي (نوع من الكنغر) والخنزير. وكما جاء في النص الأول فإن الكلب هو الذي نجح أخيراً في محاولته وأتى بالنار.

أما الأوروكيفا الذين يعيشون بالقرب من نهر مامبار في الشمال الغربي من بابوازي في غينية الجديدة فإنهم هم أيضاً يعتبرون الكلب جالب النار لأجدادهم. فهم يقولون إن بعض الناس كانوا يعيشون في قرية ساحلية، وكان الجو بارداً وقد ملوا من طعامهم النيء القاسي. وبينما هم ينظرون عبر البحر رأوا دخاناً يتصاعد من الجانب الآخر فتساءلوا عن أمره ورغبوا في أن يمتلكوا ذلك الشيء الذي يتصاعد منه الدخان. وفجأة قال أحد الكلاب: «سأذهب لأحصل لكم عليه». ثم سبح في الماء حتى القرية التي فيها الدخان، وهنالك أخذ بالفعل جذوة ومضى ليعود إلى السباحة ممسكاً إياها في فمه. ولكن على الرغم من أنه كان كلباً كبيراً وقوياً فإنه لم يتماسك أمام الأمواج العاتية فأطفأ الماء النار. ولما عاد إلى أهله لم يكن يملك إلا عصا منطفئة. وحاولت بعده بقية الحيوانات ولكنها لم تنجح أكثر مما فعل الكلب. وفي النهاية تصدى كلب صغير أجرب للكلام. وكان مغطى بالجروح لم يكد يبقى على جلده شيء من الوبر. قال له: «سأذهب لأحصل لكم على النار»، فضحك منه الجميع، ولكنه مضى فسبح حتى الضفة الأخرى وأخذ جذوة متوهجة. إلا أنه بدلاً من أن يحملها في فمه كما فعل الآخرون فإنه عقدها على ذيله وبدأ في العودة سباحة نحو شعبه. وكان يحرك ذيله أثناء السباحة فتتطاير الشرارات من الجذوة المتوهجة كأنها خصلة من أوراق جوز الهند الملتهبة، تلك التي تحملها النساء معهن عندما يذهبن ليلاً لصيد السمك على مكاسر الأمواج. وعندما رأى الناس على الشاطىء ضوء هذه الشرارات تقترب منهم في الظلام قاموا يرقصون ويضربون صدورهم ويصيحون: «هيا، هيا أيها الطيب»، وهكذا جلب الكلب الصغير النار إلى الشط.

ولكنه قبل أن يعطي النار للسكان وضعها على الأرض. فحاول بعض الحيوانات اختلاسها منه ولكنه كان أكثر حيلة منها فاختطفها من جديد وأعطاها «لأبيه وأمه» أي للرجل والمرأة اللذين يُعنيان به فكانا له معترفين بالجميل وأعطيا النار لجميع السكان الآخرين. ولا يزال يقال حتى اليوم إن

النار في الحقيقة إنما تخص الكلب، ولذلك فإنه يحب أن ينام بالقرب منها، بل وحتى فوق رمادها عندما تكون قد خمدت، ولذلك أيضاً هو يزمجر وينبح عندما يطردونه من جانبها.

وثمة من البابو ـ غير الأوروكيفا ـ من يقول بأن الكلب أيضاً هو الذي أعطاهم النار في البدء. وهذا ما يقال في قصة تُروى في موكاوا بالقرب من بانيارا من أن الكلب اجتاز مسافة حتى وصل إلى جزيرة غودينوغ التي جلب منها النار. ولكن بما أن المسافة كانت كبيرة وتبلغ حوالي العشرين ميلاً فإنه لم يحاول، بدافع من فطنته، أن يسبح خوفاً من الغرق. لذلك جذف على زورقه عبر البحر وأتى بدون حادث بجذوة النار. ثم بعد ذلك رسا بزورقه ونزل منه ومشى حتى قمة تلة مجاورة لموكاوا حيث أشعل النار في العشب، أو لعل ذلك حدث عرضاً دون رغبة منه. ومهما يكن الأمر فإن سكان القرى المجاورة رأوا الدخان فأتوا لينالوا قسطاً من النار. ولا تزال هذه التلة تدعى حتى الآن تلة الكلب لأن الكلب إنما رسا فيها بعد عوته من رحلته. وقد وضع الرجال البيضُ هناك منارة تهدي المراكب التي تمر بالقرب من المكان في الظلام، وهكذا لا يزال المرء يرى شعلة النار تنبعث من فوق ظهر هذه التلة حتى الآن. ومهما ادعى البيض وتخرصوا في القول فإن السود يعرفون أن الكلب هو أول من وضع النار هناك.

والكاتب الذي نقل إلينا خبر القصتين السالفتين عن الكلب يضيف قائلاً: «في الزمن القديم لم يكن البابو يمتلكون النار، فكانوا يرتجفون عادة من البرد ومن الريح الجنوبية الغربية، كما كان عيهم أن يأكلوا طعامهم من القلقاس وبقية الجذور نيئاً وقاسياً. أما الآن فإنهم يملكون النار في كل قراهم، وهي دائمة الاشتعال ليلاً ونهاراً وتطهو النساء عليها الطعام في أوعية أو ضمن أغصان البابمو أو مغلفاً بتراب فيه أحجارة حارة. أما من أين أتتهم النار ومن أعطاها لهم فإن بعضهم يقولون إنها أتتهم من السماء وآخرين يقولون إن امرأة عجوزاً كانت قد خبأتها في كوخها المصنوع من الأعشاب.

ويذهب غيرهم إلى أن كُتـوّةً (ببغاء) جلبتها بمنقارها، وأخيراً فإن بعضهم يقولون إن حرذوناً صغيراً كان قد وضعها تحت إبطيه.

ويروي الوطنيون من دلتا بوراري في غينية الجديدة القصة التالية عن أصل النار. فهم يقولون إن آواماكو صانع النار إنما قدم من الغرب. وثمة آخرون يتمسكون بأنه أتى من مكان أبعد من ذلك، وآخرون غيرهم يصرون على أنه رجل من نهر باي ولد بالقرب من كيماري، وهو المكان الذي أعطى النار إلى كل بني الإنسان. ومهما كان أمره فإنه كان يسكن في بادىء الأمر كما يقولون تحت مستوى مياه ذلك النهر، ولكن أمه أمرته أن يذهب إلى الأرض الصلبة خوفاً من أن يأكله التمساح. وذهب بالفعل. وبعد أن قام بمـآثـر كثيرة ذهب إلى السماء ليعيش مع أخيه بياي، وإليك كيف تصرفا ليصلا إلى هناك: لقد أتيا بشجرة كبيرة من أشجار الآن ANE ووضعاها في ساحـة القـرية حيث انتصبت هناك مثل عمود مرتفع، ثم جمعا بعد ذلك حوائجهمـا وبعض مواد البناء، وبعد أن حملا كل ذلك معهما تسلقا الشجرة حتى وصـلا إلى السمـاء حيث بنيا لنفسهمـا بيتاً من المواد التي حملاها معهمـا. وقـد بقي كل سكـان كيماري منذ ذلك الوقت في الأسفل على الأرض بينما آواماكو وأخوه بياي سكنا في السماء بعد أن نصحوهما بألا ينسيا اسميهمـا أبـداً. ولكن سكـان كيمـاري بقوا حتى ذلك الوقت بدون نار، والـطريقـة الـوحيدة التي يعرفونها عن طهو الطعام كانت أن يتركوه معرضاً لشمس فترة من الزمان، وفي أغلب الأحيان كانوا يأكلونه نيئاً.

وكان لأواماكو ابنة تسكن معه في السماء (ولم يذكروا من أين أتت)، وكانت حزينة جداً لأنها كانت تفكر بأنها ستبقى بتولاً حتى نهاية عمرها لأنه لا توجد في السماء نفس واحدة لتتزوجها. وفي أحد الأيام كانت تنظر إلى الأرض برغبة وحنين فرأت شاباً جميلاً اسمه ميكو يجلس بهدوء في الشمس أمام منزل الرجال فقررت أن تتزوجه. وهكذا نزلت بضجة هي قصف الرعد وقالت له بأنها تريد أن تصبح زوجته. واختصاراً للقصة الطويلة نقول إنهما

تزوجا ونزل أبوها من السماء ليحضر مراسم هذا الزواج ثم انسحب بعد ذلك ثانية إلى منزله السماوي حاملاً معه مهر ابنته الذي قُدم إليه.

وفي اليوم التالي خرجت المرأة الصبية مع نساء أخريات في زوارق للصيد والتقاط السرطانات، ثم عادت إلى بيت زوجها مع كيس مليء بما اصطادته وقالت له: «والنار، أين توجد نار لطهو هذه السرطانات؟» فرد عليها زوجها ميكو أنهم في قريتهم يجهلون كل شيء عن النار، وأن عليها أن تترك سرطاناتها معرضة بعض الوقت لحرارة الشمس ثم يأكلانها بعد ذلك. وهكذا تركتها في الشمس، وعندما أصبحت جاهزة لم تستطع أن تطيق مرآها، وقد تقيأت عندما حاولت أن تأكلها. وحدث أنه نتيجة للقرف وقلة الغذاء أن وقعت كاؤو (اسم الزوجة) فريسة للمرض، وبينما كان الجميع يصطادون في النهر كانت هي ممددة في الشمس تعذبها الحمى. وبينما كان أبوها آواماكو ينظر من السماء رأى ابنته ممددة على الأرض أمام المنزل. فنزل عند ذلك إليها، وعندما عرف سبب مرضها وكيف أنها تفضل الموت جوعاً على أن تأكل طعامها نيئاً وعدها بأن يأتي لها بالنار. وبحسب ما يرويه البعض فإنه أنزل من السماء قطعة حادة من خشب شجرة تسمى نابيرا أشعلت بها كاؤو ناراً كبيرة. وعندما عاد الناس من رحلة صيدهم رأوا الدخان يرتفع فخافوا من أن يقتربوا لأن هذا الشيء كان بالنسبة لهم جديداً وغريباً. ومع ذلك فإن كاؤو عندما دعتهم استعادوا شجاعتهم واقتربوا ليروا النار، ثم أخذ بعد ذلك كل واحد منها قضيباً مشتعلاً. وقد أرتهم كاؤو كيف يصنعون النار وكيف يطهون، وهكذا لم يعد عليهم بعد ذلك أن يأكلوا سرطاناتهم نيئة.

إلا أن رواة آخرين يقولون إن آواماكو أرسل النار بحيث أحرقت شجرة اسمها كارا وأن كاؤو عندما رأت الدخان اقتربت من الشجرة فأخذت جذوة بأقصى سرعة ممكنة. وعلى كل حال لا ينبغي الشك بأنه لولا كاؤو وأبوها آواماكو لما أمكن لشعب بوراري أن يتعلم سر النار، ويتفق الكثيرون من الناس على أن المكان الذي تعلموا فيه هذا السر كان كيماري.

لدى هذه الشعوب من مضيق بوراي يتم صنع النار عند الضرورة

بحسب طريقة العصا والشق. والخشب المستعمل من أجل ذلك يسمى النابيرا. فيمسك الفاعل بقوة (بواسطة ركبته أو قدمه) طرف عصا ذات طول معين ويضع على طرفها الآخر ركبته أو قدمه الأخرى (أو يساعده أحد في ذلك)، ويصنع شقاً أو حزاً في هذه العصا بواسطة سكين أو قطعة من الصدف، ثم يمسك بعصا أخرى قصيرة مدببة من خشب النابيرا أيضاً فيمسك بها بكلتا يديه ويضغط عليها بكل ثقله محركاً إياها من الأمام إلى الخلف وبالعكس على طول الشق حتى ينبعث الدخان، وبعد ذلك يزيد من سرعة الحك، ثم يوقف عصاه غارزاً الطرف المدبب في الشق، ولابد عند ذلك أن يظهر لهب ينتشر تدريجياً في النشارة، ويمكن أن يُذرا قليل من فحم الخشب فوق هذا اللهب إذا كان مثل هذا الفحم في متناول الفاعل.

هذه الطريقة في صنع النار معروفة للجميع، ولكن النساء لا يلجأن إليها أبداً لأنها عمل مرهق جداً، ولابد أنها عمل مرهق جداً بالنسبة للرجال أيضاً لأن أي إخفاق نادراً ما يساعد على بلوغ النتيجة المرجوة. أما من الناحية العملية فإن الناس يستعيرون النار بعضهم من بعض، فيجلبون بعض الجذوات الحارة في وعاء ويشعلون ناراً كبيرة إذا كانوا يريدون قضاء الليل كله في الدغل. وكانوا في الماضي يجلبون قطعة من خشب النابيرا يحمونها بكل عناية من الرطوبة. أما الآن فإنهم قلما يلجؤون في الحصول على النار إلى مثل هذه الطريقة.

وهكذا فإنهم استعملوا أو كانوا يستعملون من أجل الحصول على النار، كما يمكننا أن نخمن، الخشب نفسه الذي ألمعت إليه الأسطورة في سياق الحديث.

أما في واغا واغا على خليج ميلن عند الطرف الجنوبي الشرقي من غينية الجديدة فيروون أنه في قديم الزمان وقبل أن يكون لدى الناس نار، كانت تعيش في ميفارا على قمة خليج ميلن امرأة عجوز كان الصبيان والشبان يسمونها غوغا. وكان الناس قد اعتادوا في ذلك الزمان أن يقطعوا قلقاسهم وجذورهم إلى رقائق دقيقة ويضعونها في الشمس كي تجف.

وهكـذا استخـدمت العجوز هذه الطريقة نفسها في تهيئة طعام عشرة من الشباب كانوا غائبين يصطادون الخنزير الوحشي في الدغل، بينما طهت لنفسها طعامها الخاص بواسطة نار أخرجتها من جسدها، ولم تنس أن تنظف المكان من الرماد والمخلفات قبل أن يعود الشباب لكي لا يعرفوا الطريقة التي طهت بها جذورها وقلقاسها.

وفي أحد الأيام حدث أن قطعة من القلقاس المطبوخ وجدت ممتزجة بطعـام الشبـاب، وعندما أخذوا يتناولون طعام العشاء أخذ أصغرهم هذه القطعة المطهوة من القلقاس وتذوقها فوجدها طيبة جداً. فأعطى بعضاً منها إلى رفاقه ليتذوقوها فأحبوها كلهم لأنها كانت طريـة بـدلاً من أن تكون قاسية وجافة كما هو حال قلقاسهم، ولم يتمكنوا أن يفهموا كيف يمكن للقلقاس أن يكون في مثل هذه الطيابة. وكانت النتيجة أنه عندما ذهب الشباب في اليوم التالي إلى الدغل للصيد بقي أصغرهم في المؤخرة واختبأ في البيت. وهكذا رأى العجوز تجفف في الشمس طعامه وطعام رفاقه، ولكنها قبل أن تطهو طعامها مدت يدها إلى ما بين فخذيها وأخرجت ناراً من هناك. وعندما عاد الشباب من الصيد في المساء وبينما كانوا يأكلون عشاءهم روى لهم الشاب الصغير قصة ما رآه. وبما أنهم لاحظوا كيف كانت النار نافعة فإنهم قرروا أن يسرقوها من العجوز.

وفي الصبـاح شحـذوا فؤوسهم وقطعوا شجرة كبيرة كالبيت وحاولوا كلهم أن يقفزوا فوقها، ولكن أصغرهم هو الذي نجح في ذلك فوقعت عليه القرعة لأن يسرق النار من العجوز. وفي الصباح التالي ذهب الشباب كلهم للصيـد في الدغل كالعادة، إلا أنهم بعد أن قاموا بدورة صغيرة عادوا كلهم فاختبأ تسعة منهم بينما عاد أصغرهم ليختبىء في صمت بالقرب من بيت العجوز. وفي اللحظة التي ذهبت فيها لطهو قلقاسها تسلل خلفها وانتزع منها جذوة النار. ثم جرى بكل قوته نحو الشجرة المقطوعة وقفز من فوقها دون أن تستطيع العجوز اللحاق به وأن تقفز فوق الشجرة كما فعل. إلا أنه

عندما قفز أحرقت الجذوة يده فسقطت منه وأحرقت العشب فأمسكت النار بشجرة الكاذيّ*(إيمو).

وفي تلك الأثناء كان ثعبان اسمه غاروبوي يعيش في جحر من هذه الشجرة فاشتعل ذنبه كأنه مشعل، عند ذلك أسقطت العجوز وابلاً من المطر حتى انطفأت النار، ولكن الثعبان بقي في جحره من شجرة الكاذيّ دون أن تخبو النار التي اشتعلت في ذنبه.

وعندما توقف المطر أخذ الشباب يبحثون عن النار ولكنهم لم يجدوها حتى وقعوا أخيراً على جحر الثعبان من شجرة الكاذي فسحبوه وأخذوا ذنبه الذي مازال يشتعل، وعند ذلك كوموا كومة من الخشب ووضعوا فيها النار عن طريق أغصان أشعلوها من ذنب الثعبان، وأتى السكان من كل القرى لدى رؤيتهم النار ليخذوا منها إلى بيوتهم. وصارت كل جماعة من الناس تستعمل نوعاً من الخشب ليكون جذوة لنارهم، والشجرة التي يحصلون منها على هذا النوع من الخشب أصبحت طوطماً لهم، أما الثعبان غاروبوي فأصبح طوطماً لقبيلة غاروبوا في داغا داغا.

أما سكان دوبو، وهي جزيرة من مجموعة أنتركاستو الواقعة في عرض البحر من الطرف الشرقي لغينية الجديدة فإنهم يروون قصة مشابهة عن أصل النار. فجدودهم ـ كما يقولون ـ كان من عادتهم أن يصطادوا الخنزير البري ويأكلوا لحمه نيئاً. وفي أحد الأيام بينما كانوا يصطادون في مكان بعيد تركوا إحدى النساء وحيدة في القرية. فوضعت في أحد الأوعية اليام (نوع من الجذور) المخصص للصيادين وسحبت من بين فخذيها، من داخل جسمها، ناراً أخذت تطهو عليها اليام المخصص لها في وعاء آخر. ثم أطفأت النار بعد ذلك. ولما عاد الصيادون قدمت لهم أطعمتهم من الطعام النيء ولكنها نسيت بسبب خطأ منها قطعة مطهوة تتسرب إلى طعام الصيادين. وعندما تذوقوها أحبوها لدرجة أنهم قرروا مراقبة المرأة. وفي اليوم الثاني عاد واحد

---

* الكاذّي: PANDANUS شجرة من أشجار الزينة لها رائحة عطرة ـ المترجم ـ

منهم إلى القرية فرأى النار، فجمع فوراً أوراقاً جافة جعل منها مشعلاً وأوقدها ثم وضع النار في العشب على الرغم من أن المرأة كانت تصرخ به: «ناري! ناري! أعد إلي ناري!». وعندما قالت ذلك سقطت ميتة على الفور. وقد امتدت النار فأحرقت العشب والدغل حتى هطلت أمطار غزيرة أطفأتها تماماً. وأخذ السكان يبحثون عن النار دون أن يجدوها. ثم صادف أنهم وجدوا ثعباناً ملتفاً حول نفسه وفوقه نار، ومن أجل ذلك يبدو ظهر الثعبان حتى اليوم وكأنه محروق. ثم قاموا بطهو طعامهم على هذه النار ودفنوا المرأة العجوز وهم يقولون: «أوي! أوي! نحن الآن سعداء»، واحتفظوا بالنار أطول مدة ممكنة حتى اكتشفوا كيفية الحصول عيها بحك رأس مدبب لقطعة من الخشب فوق قطعة أخرى أكثر طراوة.

ويحكي الماران آنيم الذين يسكنون الطاىء الجنوبي من غينية الجديدة عن عصر كانت فيه النار مجهولة من الناس. ولكن حدث يوماً أن رجلاً مطلعاً على الأسرار اسمه وابا أو أوبي عانق امرأته واليوامب عناقاً شديداً حتى أنه لم يعد يستطيع أن ينفصل عنها رغم كل ما بذله من جهود. وأخيراً جاء لنجدتهما روح أو كائن فوق الطبيعة (ديما) فهزهما وقلّبهما في كل اتجاه من أجل أن يفصلهما أحدهما عن الآخر. وعندما كان يفعل ذلك انبثق دخان ولهيب من احتكاك جسديهما فكان ذلك أصل النار وأصل اشعال النار بعودين من الخشب يُحك أحدهما بالآخر. أما زوجته واليوامب فقد ولدت في اللحظة نفسها شبنماً (نوع من النعام الأسترالي) وكركية عملاقة. وكان الدخان هو سبب ما فيهما من ريش أسود، ومن السناج الذي يحويه الدخان ولد جدود هذا الشعب. وحدث أيضاً أن الكركي أحرقت قائمتيها وأحرق الشبنم حوصلته، ومن أجل ذلك تلونت قائمتا الأولى وحوصلة الآخر باللون الأحمر ولا تزال حتى اليوم. ولم يكن أحد في القرية يدرك ما حدث. فقام صراخ مفاجىء: «إلى النار! لى النار!». وهرع كل الناس إلى هذا المكان ولكن أحداً لم يعرف من أين أتت النار حتى شاهدوا كوخ وابا تلتهمه النيران. وامتدت النار بسرعة لأن الفصل كان جافاً واحترق كل شيء. وسقطت المواد

الملتهبة فوق رؤوس الناس فأحرقت شعورهم، ومن أجل ذلك لا نزال نشاهد عدداً كبيراً من الرؤوس الصلع بين أحفادهم. وطردت الريح الموسمية الشرقية اللهيب على طول الساحل، فكانت النتيجة أننا أصبحنا نرى مساحة واسعة خالية من الأشجار لا تزال تحاذي البحر. واحترقت كل الحيوانات التي كانت تعيش على الشط واحمرّت جلودها من اللهب، فأصبحت السرطانات منذ ذلك الوقت وحتى اليوم تتخذ لوناً أحمر عند الشواء.

فالأسطورة التي تفسر أصل النار بحسب ما يرويه الماران آنيم إنما تعتمد كما هو واضح على التشابه الذي أقاموه، كما يفعل كثيرون غيرهم من الشعوب المتوحشة، بين طريقة (غابة النار) لصنع النار وبين العلاقة الجنسية. فبحسب هذا التشابه المزعوم يعتبر كثير من المتوحشين العصا العمودية ذكراً بينما يعتبرون العصا المسطحة المثقوبة بالعصا الأولى (من أجل إنتاج النار) أنثى. ومن هنا أتى ـ كما يمكننا أن ننتظر ـ أن الماران آنيم يستعملون طريقة (غابة النار) «وهي طريقة العصا العمودية والعصا المثقوبة الأفقية» على الرغم من أنهم يعرفون أيضاً ويستعملون من أجل الغاية نفسها طريقة (منشار النار) التي تقوم على أساس حك شظية من البامبو من الأمام إلى الخلف بحد مدبب كرأس السهم من البامبو مثبت بشكل مائل في الأرض. ويبدو أن جمعية سرية ظهرت مؤخراً وأخذت تضع موضع العمل مفهوم الأسطورة عن أصل النار بحيث يكون إشعال النار الاحتفالي مترافقاً بطقوس جنسية يعتبرونها أساسية من أجل المحافظة على هذا العنصر.

أما في جزيرة نيفيفور أو نوفور في عرض البحر الممتد على الساحل الشمالي من غينيَة الجديدة فإن الوطنيين يقولون إن ساحراً هو الذي قام بتعليمهم صنع النار للمرة الأولى، واسم هذه الجزيرة الذي يعني «عندنا نار» إنما أتى من هذا الحادث.

٥ ـ أصل النار في ميلانيزيا

في جزر الأميرالية إلى الشمال من غينية الجديدة يقول الوطنيون إنه لم يكن في البدء نار على الأرض. فأرسلت إحدى النساء عقابِ الشط والزرزور للبحث عن النار في السماء وقالت لهما: «اذهبا كلاكما إلى السماء! اذهبا وابحثا هناك عن النار!». وطار الطائران إلى السماء، فأخذ العقاب النار وعادا كلاهما إلى الأرض. ولكنهما تبادلا النار في منتصف الطريق، فأخذها الزرزور ووضعها فوق عنقه. وهبت الريح على الشعلة حتى أحرقت الزرزور. ومن أجل ذلك كان الزرزور صغيراً جداً بينما عقاب الشط كبير جداً، ولم يكن لهبات الريح أن تؤثر في الزرزور لو أنه في حجم عقاب الشط. وهكذا جلب لنا الطائران النار إلى الأرض وأصبحنا نأكل طعامنا مطبوخاً، ولولا هذان الطائران لما كنا أكلنا طعامنا مطهواً على النار وإنما كان علينا أن نطهوه بحرارة الشمس.

ويقـول وطنيو جزر ترويريان إلى الشرق من غينية الجديدة إن قرية مويجيلاجي هي المكان الذي وجدت فيه النار للمرة الأولى. فإن امرأة فيها هي لوكـوا زيزيغـا هي التي ولـدت الشمس والقمر وبعدهما ولدت جوزة الهند. فقال لها القمر: «اقذفي بي إلى السماء لأكون هناك قبل الجميع ولأتمكن من إنـارة بلدك»، ولكن الأم لم تشـأ أن تنفـذ له رغبته. فقالت الشمس بلهجة ملاطفة: «إذن سأكون أنا أول الذاهبين إلى السماء فأعطي حرارة الشمس لبساتينك. وعندما تقطعين أعشاب الدغل لتنظفي بساتينك سأجففها بحرارتي، كما أنكِ تستطيعين أن تزرعي وتجففي اليام». وهكذا كانت الشمس أول من ذهب إلى الغيوم. وبعدها بقليل قُذف بالقمر إلى السماء فكان مغتاظاً فناهض بعض التعازيم السحرية التي استعملت لنمو ثمار البساتين.

وهذه المرأة نفسها التي هي أم الشمس والقمر هي التي ولدت النار أيضاً. وكانت قد ولدت النار قبل ذلك بزمن طويل، ولكن النار بقيت في حالـة انتظار. وكان للمرأة أخت أصغر منها وتعيش معها، وكانت الأختان تتغذيان بنوع من اليام الوحشي. وفي أحد الأيام بقيت المرأة، أي الأخت الكبيرة، في المنزل بينما ذهبت الصغرى تضرب في الدغل باحثة عن اليام الوحشي لغذائهما. وعندما عادت به إلى المنزل طبخته أختها الكبرى بينما أكلته هي نيئاً. وعند المساء أخذت الصغرى بالسعال، بينما نامت الكبرى نوماً هنيئاً لأنها شوت اليام وأكلته مطهواً.

وفي أحـد الأيام بينمـا كانت الصغرى ذاهبة إلى الدغل عادت في الخفاء واختبأت عن أعين أختها فرأتها كيف تخرج النار من جسدها ساحبةً إياهـا من بين فخذيها وكيف طهت يامها الوحشي عليها. وعندما رأت أن أمرهـا قد كُشف قالت لأختها الصغرى: «لا تقولي شيئاً، لا تذيعي هذا السر، ولا ينبغي أن يسمع أحد عنه، ذلك لأنه إذا ما وصل إلى آذان الناس فإنهم لن يدفعوا لنا شيئاً في مقابل النار. فلا تُفشي أمرها، ولنستفد من كنزنا الثمين فنأكل طعامنا مطهواً». ولكن الصغرى قالت: «ليس هذا رأيي وليس

علي أن ألوذ بالصمت، والحقيقة أنني سآخذ حطباً مشتعلاً وأعطيه للآخرين كي يلتهب عندهم فيكون للجميع حصتهم من النار». وهكذا أخذت ناراً أشعلت بها حطبة ثم وضعت النار في الداميكوي (نوع من الشجر) وفي أشجار كثيرة حتى اشتعلت كلها، ثم قالت لأختها: «والآن هل تعتقدين أنك تستطيعين طهو طعامك وحدك بينما نحن الكثيرين مجبرون على أن نأكل طعامنا نيئاً؟».

أما الوطنيون في أرخبيل أنتركاستو جنوبي جزر تروبريان فيروون كيف جُلبت النار إلى واجيفا، وهي جزيرة صغيرة تقع في عرض البحر من غودبنوغ إحدى أكبر جزر الأرخبيل، فيقولون إن عدداً كبيراً من الكلاب كانت تصطاد السمك على الساحل الشرقي من جزيرة واجيفا. وبعد أن حصلوا على السمك أرادوا شَيَّهُ ولكنهم لم يكونوا يعرفون صنع النار عن طريق العصي. وقد تسلق أحدهم واسمه غالوالوا فوق صخرة ليجفف نفسه في حرارة الشمس، ومن هناك وعبر مضيق كوياكويا رأى غيمة من الدخان. وهكذا دعا رفاقه إلى الاستمرار في الصيد بينما ذهب هو ليبحث عن النار. وفي كوياكويا رأى قِدراً فيه طعام يُطهى على نار وبالقرب منه امرأة تكنس الأرض إلى جانب كوخها. وعندما التفتت رأته وهو يحرك رأسه. فقال لها: «أعطيني ناراً أيتها الصديقة فرفاقي يصطادون السمك هناك وأنا أريد النار لأحملها لهم». عند ذلك ربطت المرأة في ذنبه جذوة من النار ولكنه عندما عاد إلى السباحة انغمس ذنبه في الماء فانطفأت. فعاد إلى المرأة وطلب منها جذوة أخرى فربطتها بظهره، ولكن ظهره غطس هو الآخر في الماء فاضطر إلى العودة مرة أخرى. وفي هذه المرة قالت له: «أين إذن تريد أن أربطها الآن؟» فأجابها: «على رأسي». وهكذا تمكن من أن يحمل النار سليمة إلى واجيفا. ولما سأله رفاقه عن سبب تأخره أجابهم غالوالا: «أوه، لقد انطفأت النار مرتين فكان علي أن أعود لأحصل على نار أخرى». وهكذا طهوا طعامهم وأكلوا سمكهم. إلا أن النار ما لبثت أن تحولت بعد مدة إلى حجر، ودخل الكلاب

في غار بقوا فيه دائماً منذ ذلك الوقت، ولكنهم يخرجون أحياناً عند المساء لينبحوا. ومنذ ذلك الوقت أصبحت توجد دائماً نار في واجيفا.

ويقول الوطنيون في بوين إحدى جزر سالومون إنه لم يكن في البداية في هذه الجزيرة نار. فلم يكن الناس فيما مضى من الزمان يستطيعون أن يطهوا شيئاً ولا أن يصنعوا ناراً في المساء فهم يأكلون كل طعامهم نيئاً. ولكن سكان جزيرة آلو كانوا يعرفون النار. فصاح سكان بوين بسكان آلو: «أعطونا ناراً» ولكنهم لم يستجيبوا لهذا النداء. فعقد سكان بوين مؤتمراً للبحث في طريقة الذهاب للبحث عن النار وتعيين من يذهب في هذه المهمة. فقال طائر صغير: «إن ذلك يعجبني، وأنا أستطيع أن أذهب للبحث عن النار»، ولكن سكان بوين لم يصدقوا الطير وقالوا: «إذا ذهبت هناك أهلكك الماء المالح، وأنت لا تستطيع أن تطير كل هذه المسافة». فقال الطائر: «حسن، سأحاول». وراقبه الناس كلهم عندما أخذ يطير، ثم ما لبث أن اختفى عن الأنظار. وأدرك الطائر آلو واختبأ في الغابة وانتظر هناك فرصته المناسبة. عند ذلك رأى السكان وهم يصنعون النار بحك قطعتين من الخشب إحداهما بالأخرى تماماً كما يفعل الناس في بوين حتى اليوم. فعاد ساعتئذ إلى بوين طائراً وأخبر سكانها كيف يقوم سكان آلو بصنع النار.

أما الوطنيون في سان كريستوفال إحدى جزر سالومون الجنوبية فيقولون إن الخالق الذي كان اسمه أغونوا والذي كان يتجسد في ثعبان كان له أخ توأم من بني الإنسان. وقد قام الخالق بتعليم الانسان زراعة اليام والثمار الأخرى. فما أن يُهيأ البستان حتى ينبت فيه اليام من جميع الحجوم الكبيرة والصغيرة، الحمراء والبيضاء، الناعمة والواخزة، الوحشية والمزروعة. كما تنبت فيه أشجار الموز وجوز الهند واللوز وأشجار مثمرة أخرى من جميع الأنواع وهي تحمل ثمارها الخاصة بها. ولكن الإنسان قال: «إن هذه الأشياء كلها قاسية على الأكل، فكيف أعدِّل من قوستها؟». عند ذلك أعطى الخالق أو الثعبان (فيغونا) عصاه للإنسان وقال له: «حُكَّ هذه وانظر ما يكون»، فكان ذلك أصل النار وما تلاها من فن طهو الطعام.

وفي ماليكولا إحدى جزر هبريد الجديدة تنص القصة المروية عن أصل النار على ما يلي: كانت إحدى النساء مع ابنها في الدغل. فأخذ الصبي بالبكاء ورفض أن يأكل الطعام نيئاً. ومن أجل أن تُسليه أمه قامت تحك عصا فوق قطعة من الخشب الجاف. وعندما فعلت ذلك دُهشت وهي ترى الدخان يصدر عن العصا ثم تحمرّ وتشتعل. وعند ذلك وضعت الطعام على النار فاكتشفت أنه بفضل ذلك صار أطيب مذاقاً. ومنذ ذلك الوقت أخذ الناس باستعمال النار.

ويروي الوطنيون في بريتانيا الجديدة، وهي جزيرة كبيرة إلى الشمال الشرقي من غينية الجديدة، قصة تقول إن طريقة إشعال النار كانت في البدء سراً يحتفظ به رجال من أهل الشر ويخفونه بعناية قصوى عن النساء حتى كشفه لهن كلب. والقصة هي التالية: عقد أعضاء الجمعية السرية مجلساً وكان الكلب جائعاً فسمحوا له بأن يذهب إلى المزرعة حيث كانت توجد النساء والرجال غير المطلعين على السر. وكان ذنب الكلب مدهوناً بألوان الجمعية السرية. فعندما ذهب إليهم واستلقى قالت النساء له: «لا تقترب». فقال الكلب: «أنا جائع وليس عندي ما آكله. أريد شيئاً من القلقاس». فقالت النساء: «إذا كنت تريد قلقاساً فأين النار؟، فليس من نار عندنا». فقال الكلب: «انتظرن قليلاً، سأفعل شيئاً رأيته يحدث فوق أرض الجمعية السرية»، فقالت النساء: «لا تفعل ذلك خشية أن يصيبنا سوء». فقال الكلب: «لن يصيبكم سوء. إنني أشعر بجوع شديد». فقلن: «كلا، لا تفعل ذلك» فقال الكلب: «بل سأفعله بالتأكيد». فقالت النساء: «فلا تقترب منا». فسأل الكلب: «لماذا؟»، فقالت إحدى النساء: «لأنك من أهل السر». ولكن الكلب قال: «اكسري قطعة من خشب الكوا إلى نصفين وآتيني بها». فكسرت المرأة الخشبة إلى نصفين وأعطتها متسائلة: «وما فائدة ذلك؟» فقال الكلب: «سترين» وأعطاها أحد النصفين بعد أن قضمه بأسنانه وقال للمرأة: «إجلسي على هذه القطعة من خشب الكوا»، فأجابت: «لن أفعل لأنك من أهل السر». فكرر الكلب: «اجلسي عليها»، ففعلت، وقام

الكلب بصنع النار بحك القطعتين من الخشب حكاً قوياً حتى ظهر الدخان. وتساقطت الدموع من عيني المرأة فبكت وقالت إن على الكلب أن يتزوجها فكان بذلك سعيداً كل السعادة. وصنع غير أصحاب السر ناراً أمام أهل السر فسألوهم: «من علمكم ذلك؟»، فقالت النساء: «إنه الكلب»، فقال أهل السر: «أوهوا! فهو إذن من أذاع السر!» وقال الرجل الذي يمتلك أرض الجمعية السرية وكان حانقاً: «لقد أتيتم بكلابكم معكم ليذهبوا ويثرثروا، وهاهم أولاء قد أسلموا السر للآخرين». ورمى أهلُ السر تعويذة على الكلب كي لا يتمكن من الكلام بعد ذلك أبداً، ولم يتكلم منذ ذلك الحين.

وإلى الشمال الشرقي من جزر سالومون تقع جزيرة مرجانية واسعة تسمى أونغتونغ جافا، ويسمونها أيضاً لوردهاو، وأحياناً يطلقون عليها خطأً اسم لوانيوا. وسكان هذه الجزيرة لهم سمات شبيهة بسمات البولينيزيين وإن كانت توجد خلافات واضحة بين ثقافتيهما على الرغم من أن لسانهم لا يخرج عن كونه لهجة بولينزية. فليس فيهم طبقات اجتماعية. وفي أساطيرهم ليس من أثر للبطل الكبير ماوي الذي يلعب دوراً كبيراً في الأسطورة البولينزية عن أصل النار كما سنرى ذلك حالاً. والأسطورة عن أصل النار التي تروى في أونغتونغ جافا تختلف كلياً عن الأسطورة البولينزية وإن كانت تنطبق عملياً من ناحية أخرى مع الاسطورة الميكرونيزية التي تُحكى في جيلبيرت. ويثير ذلك بطريقة ما فكرة العلاقات الإثنية (العرقية) بين أونغتونغ جافا وبين الميكرونيزيين أكثر مما يثير فكرة علاقتها بالميلانيزيين. وإنني مدين في معرفة هذه الأسطورة وما تلاها من ملاحظات للسيد هـ. يان. هوغبان الذي أمضى أحد عشر شهراً في الجزيرة المرجانية يدرس المواطنين ويتعلم لغتهم. أما الأسطورة فهي التالية:

با ـ إيفا هو إله البحر. وكان له فيما مضى من الزمان ابن اسمه كي ـ آهي هو النار. وكانا يعيشان معاً في أعماق المحيط. وفي أحد الأيام غضب با ـ إيفا بدون سبب على ابنه فقرر كي ـ آهي أن يهرب من البيت. وقد وصل إلى سطح البحر واتجه نحو لوانيوا القرية الأولى في أونغتونغ جافا حيث

استقبـل استقبالاً سيئاً لأن كل ما كان يلمسه كانت تمسك به النار. وكان مزعجاً لدرجة أن السكان طردوه فهرب إلى جزيرة صغيرة تملكها امرأة اسمها كابا ـ إيا. وهنا أيضاً تسبب في خسائر كبيرة، ومن أجل أن تنقذ كابا ـ إيا ممتلكاتها أخذت عصا وقتلته.

وبعد مضي الوقت هدّأ با ـ إيفا من غضبه وذهب لرؤية ابنه. وبفضل الرماد تمكن من تعقب آثاره حتى بيت المرأة، ثم نادى ابنه مرات عديدة باسمه دون أن يتلقى أي جواب فعرف عندئذ أن ابنه لابد أن يكون قد مات. ومن أجل أن ينتقم من الجاني بدأ بضرب الجزيرة من تحت البحر. ولكنه قبل أن يذهب بعيداً في ذلك خرجت المرأة كابا ـ إيا التي كانت قد قتلت ابنه لترى سبب كل هذا الضجيج. ومن أجل أن تنقذ ما تبقى من ممتلكاتها عرضت على با ـ إيفا أن يتزوجها. وبما أنها كانت امرأة جميلة فقد قبل الإله هذا العرض وقرر التخلي عن الانتقام.

وعندما تم الزواج سأل با ـ إيفا زوجته كابا ـ إيا أن تروي له تفاصيل موت ابنه. فشرحت له عندئذ كيف أنها ضربته بعصا حتى مات. وكان الأب يحب ابنه حقاً. وبسبب من حزنه أخذ يضم العصا التي كانت الآلة التي قتلته. وكانت النتيجة أن كي ـ آهي عاد فوراً إلى الحياة، فسر أبوه سروراً كبيراً وأخذ ابنه بين ذراعيه ليحمله مرة أخرى إلى أعماق المحيط. ولكن ذلك لم يعجب كي ـ آهي أبـداً، فما أن غطس تحت الماء حى ترك نفسه يموت من جديد. فعاد الأب مع جثة ابنه إلى الشاطىء، ولكنه ماكاد يصله حتى عاد كي ـ آهي ثانية إلى الحياة. وعند ذلك شرح لأبيه كيف أنه لن يعود أبداً إلى البحر، وذهبت عبثاً كل المحاولات التي بذلت لإقناعه بأن يفعل. ومن أجل ذلك أصبح من المستحيل أن توقد نار في الماء حتى اليوم.



٦ ـ أصل النار في بولينيزيا وميكرونيزيا

يقول الماوري سكان نيوزيلندا الأصليون إن البطل الكبير الأصلي ماوي MAUI أراد منـذ زمن بالـغ القدم أن يدمر نيران جدته ماهو ـ إيكا، فنهض من أجل ذلك في الليل وأطفأ النيران التي كانت موجودة في مطبخ كل عائلة في القرية، ثم استدعى في الضحى خدمه وقال لهم: «أنا جائع، أنا جائع، أسرعوا واطبخوا لي غذائي». فركض واحد من خدمه فوراً ليصنع نـاراً ويطهو الطعام، ولكن النار كانت منطفئة. وعندما جرى في القرية من بيت إلى بيت لم يجد في أي منها أثراً للنار لأنها كانت مطفأة في كل البيوت.

وعنـدمـا علمت والـدة مـاوي بذلك استدعت الخدم وقالت لهم: «فليذهب بعضكم إلى جدتي ماهو ـ إيكا ويخبرها بأن النار قد فُقدت من الأرض ويطلب منها أن تعطي للعالم ناراً جديدة». ولكن العبيد كانوا قلقين

فرفضوا إطاعة الأمر. عند ذلك قال ماوي لأمه: «حسن، سأذهب أنا لأبحث للناس عن نار، ولكن أي طريق ينبغي علي أن أسلك؟». فقال له أهله: «اسلك هذا الطريق الواسع الذي يمتد أمامك فتصل في نهايته إلى بيت واحدة من جداتك، وإذا سألتك من أنت فإن من الأفضل أن ترفع صوتك عندما تذكر اسمك فتعرف عندئذ أنك واحد من أحفادها. ولكن كن حذراً ولا تلعب عليها لأننا علمنا أن أعمالك تجاوزت حدود أعمال الرجال وأنك تحب أن تخدع وتؤذي الآخرين. وربما يخطر ببالك الآن أن تخدع جدتك العجوز ببعض خدعك، ولكن نرجوك أن تتجنب فعل ذلك». فأجاب ماوي: «كلا! إنني أريد فقط أن آتي بالنار للناس وهذا كل مافي الأمر، وسأعود ما أن تمكنت من ذلك».

وعند ذلك مضى حتى بلغ منزل إلهة النار، فامتلأ إعجاباً بكل ما رأى حتى أنه لم يستطع لفترة أن يقول أي شيء. وأخيراً قال: «ياسيدتي، هل تتفضلين بالنهوض؟ أين تحتفظين بنارك فقد أتيت لأطلب منك شيئاً منها». فنهضت المرأة عند ذلك وقالت: «من يمكن أن يكون هذا الفاني؟» فأجاب: «إنه أنا». فقالت: «ومن أين أتيت؟» فأجاب: «إنني أنتمي إلى هذا البلد». فقالت: «أنت لست من هذا البلد، فهيأتك لا تشبه هيأة سكان هذا البلد. فهل أتيت من الشمال الشرقي؟». فأجاب: «كلا!»- «فهل أنت من الجنوب الشرقي؟» فأجاب: «كلا!» - «فهل أنت من الجنوب؟». فأجاب: «كلا!» - «فهل أنت من الغرب؟». فأجاب: «كلا!» - «فهل أنت آت إذن من جهة الريح التي تهب الآن عليّ؟». فقال: «بلى أنا آت من هناك». فصاحت: «أواه! فأنت إذن حفيدي، فماذا تريد؟». فأجاب «لقد أتيت أطلب منك ناراً». فأجابت: «أنت على الرحب والسعة، أنت على الرحب والسعة، وهاهي ذي نار أقدمها إليك».

عند ذلك سحبت العجوز من أحد أظافرها ناراً وقدمتها إليه. وعندما رأى ماوي ذلك اعتبره لعبة مسلية، فمضى قاطعاً مسافة صغيرة أطفأ بعدها النار وعاد إلى جدته قائلاً: «لقد انطفأت النار التي قدمتها إلي فأعطيني ناراً

غيرها». فسحبت عند ذلك ظفراً آخر من أظافرها وأخرجت منه ناراً أعطتها للفتى، فتركها وابتعد بعض المسافة فأطفأ النار مرة أخرى وعاد إليها من جديد وقال: «يا سيدتي العزيزة، أرجوك أن تعطيني ناراً أخرى لأن النار التي أخذتها انطفأت هي أيضاً». واستمر على هذا الحال حتى سحبت العجوز أظافر يدها كلها وبدأت بيدها الأخرى حتى انتهت أظافرها، ثم انتهت بأظافر رجليها فسحبتها هي الأخرى عدا ظفراً كان في الإبهام. وقالت المرأة العجوز لنفسها: «من المؤكد أن هذا الفتى يلعب عليّ».

وعلى الأثر سحبت ظفر إبهامها الذي كانت قد تركته فتحول هو أيضاً إلى نار، وبما أنها رمته على الأرض فقد اندلعت النار في المكان. وصرخت ساعتئذ بماوي: «حسن، هاهي ذي النار كلها أقدمها إليك الآن!». ولكن ماوي لاذ بالفرار منقذاً نفسه بكل ما لديه من سرعة. إلا أن النار كانت تلاحقه عن كثب. فتحول هو كذلك إلى نسر ذي جناح سريع الحركة وطار طيراناً سريعاً دون أن تكف النار عن ملاحقته حتى لقد أوشكت أن تمسك به في طيرانه. فانقض النسر عند ذلك إلى بركة فوجد أن ماءها يكاد يغلي. وامتدت النار إلى الغابة لدرجة أن النسر لم يجد مكاناً يأوي إليه. وامتدت النار إلى الأرض وإلى البحر كذلك حتى أوشك ماوي أن يقضي نحبه في اللهيب.

عند ذلك توجه ماوي إلى جدّيه تاوهيري ـ ما ـ تيا وهواتيتيري ـ ماتاكاتاكا وطلب منهما أن يرسلا له ذخيرة غزيرة من الماء وصرخ بكل قوته: «أوه، أعطياني ماء لتهدئة هذه النار التي تلاحقني». وعلى الأثر ظهرت الزوابع والعواصف وأرسل تاوهيري ـ ما ـ تيا أمطاراً غزيرة دافقة حتى هدأت النار. وقبل أن تتمكن ماهو ـ إيكا من بلوغ مأواها كادت تقضي نحبها في المطر وأصبحت صرخاتها أعلى من صرخات ماوي عندما كانت تلاحقه النار وكاد أن يحترق فيها. وهكذا أنهى ماوي مغامرته وانطفأت نار ماهو ـ إيكا إلهة النار، ولكنها قبل أن تنطفىء تماماً تمكنت الإلهة من إنقاذ بعض جذوات منها وقذفت بها لحمايتها في شجرة الكيكوماكا وغيرها من الأشجار

حيث لا تزال هذه الجذوات محفوظة حتى الآن. ومن هنا حدث أن الإنسان يستعمل الآن قطعاً من خشب هذه الأشجار لإشعالها عندما يريد النار. ومن البديهي أن هذه الأسطورة إنما كانت مخصصة لتفسير مقدرتنا في الحصول على النار من بعض الأنواع من الأخشاب: فمن أجل منع النار من الانطفاء تماماً تحت وابل الأمطار خبأتها إلهة النار في بعض الأشجار حيث لا يزال بإمكاننا استخراجها منها بفعل الحك. وهذا هو المغزى الرئيسي من كل القصة التي توسعت قليلاً في بعض تفاصيلها في روايات أخرى. فنحن نقرأ مثلاً أن ماوي عندما لاحقه الحريق الكبير طلب مطراً غزيراً «سقط مدراراً فأطفأ اللهب حالاً وأغرق البلاد. وعندما وصل الماء إلى تيكي ـ تيكي، أي إلى جديلة ماوهيكا (أوماهو ـ إيكا)، طارت منها أقباس النار التي كانت قد لجأت إليها هرباً من الماء وذهبت الى الراتا والهيناو والكيكاتيا والريمو والماتاي والميرو ولكن هذه الأشجار لم تشأ استقبالها. عند ذلك ذهبت إلى الباتيتي والكيلوماكو والماهوهي والتوتارا والبوكيتيا التي أحسنت استقبالها. وتلك هي الأشجار التي لا يزال الناس يحصلون منها على النار بفعل الحك». كما أننا نقرأ: «ولم ينج من المطر إلا القليل من النار. فوضعتها ماهو ـ إيكا في شجرة التوتارا فلم تحترق ثم في الماتاي فلم تحترق، ثم في الكيكوماكو التي احترقت فحفظت فيها النار».

كما أن هذه الأسطورة قد خصصت كما هو واضح لشرح صفات الأنواع المختلفة من الأشجار ومدى قابليتها للاحتراق.

والأسطورة نفسها يرويها الموريوري الذين يسكنون جزر شاتام الواقعة إلى الشرق من نيوزيلندة. وكان الموريوري شعباً ذوي أرومة ماورية هاجروا من نيوزيلنده إلى جزر شاتام وحافظوا على تقاليد بلدهم الأصلي. وروايتهم للأسطورة تسير على الشكل التالي:

«وبعد ذلك ذهب ماوي ليبحث عن النار عند ماوهيكا*. وقد رجاه أن

---

* لا يتضح في هذه الرواية ما إذا كان ماوهيكا ذكر أم أنثى، ولكن التجربة تدل على أنه ذكر.

يعطيه ناراً فانتزع ماوهيكا عند هذا الرجاء أحد أصابعه فانقلب ناراً أعطاها لماوي. وعندما رأى ماوي ذلك أطفأ النار وعاد إلى ماوهيكا فتلقى منه إصبعاً آخر. واستمر على هذا المنوال حتى لم يعد لماوهيكا إلا إصبعه الصغير. وقد فهم أن ماوي يلعب به فاستشاط غضباً ورمى بإصبعه الصغير على الأشجار، على الإينيهيما (ويسميها الماوري هينا هينا أو ماهوي) والكارامو والكاراكا والآكي والراوتيني والكوكوبيري (عند الماوري اسمها كاوا كاوا) فاشتعلت كلها عدا الماتيرا (الماتيبو لدى الماوري) التي لم تحترق. لذلك فإن كل الأشجار التي احترقت تُستعمل كاهوناكي (وهي القطعة من الخشب التي تُحك في تجويف وتدار حتى تمسك بها النار بفعل الحك الذي يسمى أورURE). كما أنه رمى ناره على حجر الصوّان الذي أصبحت النار تخرج منه هو الآخر بالقدح. وهكذا طاردت نار ماوهيكا ماوي، وإحترقت البحار والتلال كما احترق ماوي بالنار. وصعد عويل ماوي حتى الرعد المزمجر، وحتى هانغـايا ـ تي ـ مارإما، وحتى المطر الكبير، وحتى المطر الطويل، وحتى المطر المدرار. وهكذا هطل المطر وأُنقذ ماوي».

ويروي الوطنيون في جزر تونغا أو فريندلي التي توجد في المحيط الهادي بعيداً إلى الشمال من نيوزيلنده، يروون حكاية مشابهة ليفسروا لماذا يمكن استخراج النار من بعض الأشجار. والقصة (بحسب ما سجلتها باختصار بعثة الاكتشاف الأمريكية في النصف الاول من القرن التاسع عشر) هي التالية: «كان لماوي ابنان أكبرهما اسمه ماوي أتالونغا والأصغر اسمه كيجي كيجي. ولكن من ذا الذي لا يعرف ذلك؟ وقد استخرج كيجي كيجي النار من الأرض وعلم البشر كيف يطهون عليها طعامهم الذي وجدوه طيب المذاق فلم يعودوا يأكلونه إلا مطهواً بعد أن كانوا قبل ذلك يأكلونه نيئاً. ومن أجل أن يحصلوا دائماً على النار أمرهم بأن يذهبوا إلى بعض الأشجار حيث يستخرجون منها النار حتى اليوم عن طريق الحك».

إلا أن هذه الأسطورة القادمة من تونغا تلقفها بعد ذلك آخرون رووها لنا بشكل أكمل. وإنه لمما يثير الاهتمام أن نقارب بين هذه الروايات التي

تتطابق من الناحية **العملية**. والقصة كما تلقفتها مبشرة إنكليزية في نحو من منتصف القرن التاسع عشر هي التالية:

«بعد أن عمرت الأرض بالسكان مضى زمن طويل قبل أن تُعرف النار، ولم يكن أحد بطبيعة الحال يعرف كيف يطهو الطعام، ولكنهم سدوا هذه الثغرة على الطريقة التالية: كان ماوي أتالونغا وابنه ماوي كيجي كيجي يعيشان في كولوا في جزيرة هافا. وكان ماوي أتالونغا يغادر مسكنه كل صباح ليذهب إلى بولوتو* ثم يعود بعد الظهر حاملاً معه الطعام المطبوخ. ولم يكن يأخذ معه ماوي كيجي كيجي قط، ولا يسمح له بأن يعرف بأية وسيلة كان يقوم بأسفاره لأن كيجي كيجي كان صغيراً غريب الأطوار ويحب الهزل والتهريج. ومع ذلك فقد استيقظ الفضول في كيجي كيجي وقرر أن يعرف الطريق الذي يسلكه أبوه فيتبعه إلى بولوتو. ثم لحق به حتى مدخل مغارة كانت تنبت فوقها دغلة كثيفة من القصب كأنها تخفيها عن أعين المارة. ولكن ماوي الصغير استمر يبحث بفضول حتى وجد المدخل ونزل فيه. وعندما وصل إلى بولوتو رأى أباه يعمل وهو يدير له ظهره منشغلاً بزراعة قطعة من الأرض. فقطف ماوي الصغير ثمرة من النونو (وهي أكبر من التفاحة بقليل) وعض قطعة منها ثم رمى بقيتها لأبيه بحسب عادته اللعوبة. فالتقط الأب القطعة ورأى عليها آثار أسنان ولده فالتفت إليه قائلاً: «ماالذي أتى بك إلى هذا المكان؟ انتبه لما تفعل، فبولوتو هذه هي مكان رهيب». ثم أخذ يحذره من الأخطار المترتبة على سلوكه السيء. ومن أجل أن يقوم ابنه بمساعدته قدم له قطعة من الأرض ليقوم بتنظيفها، ورجاه زيادة على ذلك ألا يتطلع إلى الخلف. وبدلاً من أن يأخذ كيجي كيجي بنصيحة والده فإنه أساء القيام بالعمل الذي أوكل إليه. فكان يقتلع بعض الأعشاب الضارة

---

* في أسطورة تونغا كانت بولوتو مسكناً للأرواح التي سُرقت من الزعماء وكبار الشخصيات وكانت توجد ـ كما يقال ـ في اتجاه الغرب ويمكن الوصول اليها براً وبحراً.

وينظر إلى الخلف. ويبقى طول ما قبل الظهر يقتلع وينظر إلى الخلف ولم يتمكن من أن ينجز أي شيء، ذلك لأن الأعشاب كانت تنمو بلمح البصر لدرجة أن الأب والابن رغم سرعتهما في العمل لم يتمكنا من اقتلاعها. وعندما حل ما بعد الظهر أصبح ماوي أتالونغا بحاجة إلى الطعام. فقال لابنه: «اذهب وآتني بشيء من النار». وكان هذا بالضبط ما يريده كيجي كيجي، فسأل أباه: «وإلى أين أمضي». - «اذهب عند مودوا»* ففعل الغلام فوجد جده كبير عائلة ماوي يتدفأ وهو متمدد على حصير بالقرب من النار. وكانت ناره شجرة كبيرة من «خشب الحديد» حامية من أحد أطرافها. وعندما ظهر الغلام فوجىء العجوز مفاجأة كبيرة من هذا الاقتحام، ولم يكن يعرف حفيده. «ماذا تريد؟» - «أريد ناراً» - «خذ منها حاجتك». فوضع الفتى قليلاً من النار في قشرة جوز الهند وحملها مسافة صغيرة، ولكن حبه للاستطلاع استيقظ فيه، فأطفأ النار وعاد إلى العجوز بالقشرة الفارغة. وجرت الأسئلة نفسها والأجوبة نفسها. وتلقى الفتى الهدية الثمينة من جديد وذهب بها، ولكنه ما لبث أن عاد إلى جده للمرة الثالثة. فامتعض العجوز وقال له: «خذها كلها». فحمل الفتى الشجرة الكبيرة من خشب الحديد بدون أي عائق ومضى بها. وعند ذلك فهم العجوز أن هذا الغلام ليس من الفانين فاستدعاه صائحاً: «هيلو، هي، هي، كي - تافي»، وهو تحد للعراك. وكان الغلام مستعداً هو أيضاً لذلك، فعاد أدراجه وأخذ الرجلان يتعاركان. فأمسك ماوي العجوز بثياب خصمه التي كانت معقودة بقوة حول قامته وهزه حتى اقتلعه من الأرض وأصبحت رجلاه بعيدتين عنها ثم رمى به إلى الأرض. أما كيجي - كيجي فإنه تمكن بخفة الهر أن يتلقى الأرض بقدميه وأصبح الآن دوره في الهجوم. فأمسك بجده على الطريقة نفسها وأرجحه بحيث جعله يدور حول نفسه ورماه على الأرض فكسر له كل عظامه التي

---

* من المؤكد أن المقصود بمودوا هو «ماوي موتوا» جد كيجي كيجي الذي يملك النار في بولوتو التي يمكن أن نسميها بعالم ما تحت الأرض.

كانت في جسده. ومنذ ذلك الوقت بقي ماوي العجوز في حالة عجز دائم. فهو يرقد على الأرض ضعيفاً نائماً. وعندما تبدو بوادر هزة أرضية مهددة يصرخ التونغيون (سكان جزيرة تونغا) ليوقظوا ماوي الشيخ كيما يعود. وهم يخشون ألا ينهض، فإذا حدث ذلك فإن العالم لن يعود.

«عندما عاد كيجي كيجي إلى أبيه سأله هذا عن سبب تأخره كل هذا الوقت الطويل. ولكن الفتى بقي صامتاً ورفض الإجابة على أي سؤال وجه إليه بشأن العجوز. فلعب الشك في صدر ماوي أتالونغا من أن شيئاً سيئاً فقد حدث. وذهب ليستطلع الأمر فوجد الشيخ ماوي مرضوضاً عاجزاً، فعاد بسرعة لينزل بولده العقاب. ولكن الشاب هرب راكضاً فتبعه أبوه بحمية ولكن بدون فائدة. وعندما أتى المساء كان الاثنان يستعدان للعودة إلى الأرض. وقد حذّر ماوي ابنه من أن يأخذ النار معه إلى الأرض، ولكن عقلية الأكبر الرزينة فشلت في التغلب على خبث الشاب الأصغر في السن. فقد غلّف هذا قليلاً من النار في طرف ردائه الطويل الذي كان يرتديه وسحبها وراءه. وكان الأب يمشي في المقدمة. وعندما اقترب من قمة الدرب أخذ يشم وقال لولده: «إنني أشم ناراً». وكان الشاب خلفه وقريباً منه، فتقدم بسرعة وسحب حزامه فانتشر ماكان يحويه من النار في كل اتجاه. فاشتعلت الأشجار المجاورة في لحظة واحدة وبدا أن الأرض أصبحت في خطر كبير. ومع ذلك فإن الشر ما لبث أن توارى وبقي الخير. وكوفىء سكان الجزر بصنيع دائم وثابت. ومنذ ذلك الوقت أصبح بإمكانهم أن يوقدوا النار ويطهوا الطعام. وهكذا نرى شبهاً كبيراً بين هذه الأسطورة التي يرويها أجلاف تونغا وبين أسطورة بروميثوس التي تركها لنا تراث الإغريق التقليدي القديم.

وإليكم رواية لهذه الأسطورة أكثر كمالاً نقلها لنا أحد المبشرين الكاثوليك على الشكل التالي:

في قديم الزمان كان يسكن في لولو فونوا رجل اسمه ماوي موتوا وابنه ماوي أتالاغا. وكانت لولو فونوا هي العالم السفلي. وكان لماوي آتالاغا ابن

صغير اسمه ماوي كيزي كيزي، وهذا يعني ماوي الصغير. وكانوا يعيشون كلهم في العالم السفلي. ولكن ماوي آتالاغا قال لأبيه ماوي موتوا: «إنني لن أبقى هنـا في لولـوفـونوا بل سأذهب إلى الأرض مع ابني ماوي كيزي كيزي، فهو ما زال صغيراً ولم يبلغ بعد سن الرشد. ومع أننا سنذهب كلانا لنصعد فنسكن الأرض فإنني سأعود دائماً لأراك وأقوم بعملي وأسهر على زراعتي هنـا في لولوفونوا». وهكذا صعد الاثنان ماوي أتالاغا وابنه ماوي كيزي كيزي وذهبا ليسكنا في جزيرة كولوا التي هي جزء من مجموعة جزر فافـو التي تشكـل بدورها جزءاً من مجموعة جزر تونغا أو فريندلي. وكان المـوضـع الـذي سكناه من الجزيرة يسمى أتالاغا. وهكذا أصبح لماوي أتالاغا وطن ثان يسمى باسمه. وهناك تزوج من امرأة وطنية اسمها أتالاغا أيضاً.

وكانت جزيرة كولوا صغيرة لا يوجد فيها مكان لزراعات ماوي أتالاغا فكان من عادته أن يعود إلى العالم السفلي لولوفونوا ليزرع ويعمل هناك. وفي هذه الأثناء كان ماوي كيزي كيزي قد أخذ في النمو، وكانت وقاحته وعدم اطاعته لأبيه ماوي أتالاغا قد بلغتا مبلغاً مشيناً، ولذلك كان أبوه يتركه دائماً في البيت عندما يذهب للعمل والزراعة في العالم السفلي. وكانت معرفته بوقاحة ابنه تجعله يخاف من أن يلعب أدواراً شاذة إذا ما سمح له بالذهاب معـه إلى هنـاك. فقـال لزوجتـه: «أيتهـا المـرأة، عندما أذهـب لأهتم بزراعاتي وأقوم بعملي في لولوفونوا عليك أن تحذري من إيقاظ ابننا ماوي كيزي كيزي لكي لا يعلم برحيلي فيتبعني فيعرف الطريق إلى لولوفونوا ويقوم بألاعيبه هناك. وعليك أن تبقيه في الأرض ليقوم بما يشاء من الألاعيب».

وهكذا اعتاد ماوي أتالاغا كلما صاح الديك وأقبل الصباح أن يستيقظ ويتسلل بهدوء في الغبش خوفاً من أن يسمعه ماوي كيزي كيزي فيتتبع خطاه وهو ينفلت في البكاء. وكان يفعل ذلك كل ليلة، فيذهب وحده دائماً ويفر تحت جنح الظلام. وكان ذهابه في ساعة مبكرة من الصباح عندما يكون الليل راخياً سدوله خوفاً من ماوي كيزي كيزي أن يراه.

وكان ماوي كيزي كيزي يبقى وحيداً فيفكر في قرارة نفسه قائلاً: «أين يذهب أبي ليُعنى بزراعته؟ لقد سئمت من البحث عنه كل يوم. أين يذهب ليعنى بزراعته ويقوم بعمله؟». ثم فكر: «لعل أبي يذهب ليقوم بعمله في لولـو فونـوا! سأتلصص عليه لحـظة ذهـابه صباحاً في الظلام. سأستيقظ وأنهض وأتبعه». وهكذا أخذ ماوي كيزي كيزي يتلصص على أبيه. وفي إحدى الليالي رآه ذاهباً خلسة وقد أخذ حزامه ومجرفته ومضى. وعندما ابتعد قليلاً نهض ماوي كيزي كيزي ولحق به. وكان يتبعه عن بعد خوفاً من أن يعرف أبوه. وعندما وصل الأب إلى شجرة الهاهو (نوع من القصب) توقف وتلفت حوله خوفاً من أن يكون أحد قد اقتفى أثره. إلا أن ماوي كيزي كيزي كان مختبئاً بحيث لم يكن في استطاعة أبيه أن يراه. وقد أمسك ماوي أتالاغا الشجرة من أغصانها فاقتلعها ووضعها على جانبها لكي يسد الطريق إلى لولو فونوا. فقال الولد في نفسه: «آه، لابد أن هذه هي الطريق التي يتخذها العجوز إلى لولو فونوا». وعند ذلك ذهب إلى شجرة الكاهو فاقتلعها ورماها جانباً فأصبحت الطريق مفتوحة أمامه إلى لولو فونوا ولم تعد مسدودة عليه. عند ذلك نزل ماوي كيزي كيزي تابعاً أبله حتى وصلا إلى المكان الذي كان ماوي أتالاغا يقوم فيه بزراعاته وبدأ هذا الأخير بعزقها ونزع الأعشاب الضارة من حولها. وبينما كان يفعل ذلك تسلق ابنه شجرة من أشجار النونو وقطف ثمرة منها ثم عضها ورمى بقيتها إلى أبيه الذي التقطها وقال: «من المؤكد ان هذه هي آثار أسنان هذا الولد الخبيث». ثم تلفت حوله فلم ير ابنه لأنه كان متسلقاً فروع الشجرة، ولذلك عاد الأب إلى عزق النباتات. ولكن الولد عاد ثانية إلى فعلته الأولى فقال الأب من جديد: «من المؤكد ان هذه هي أسنان هذا الولد الخبيث».

عند ذلك صرخ ماوي كيزي كيزي: «ها أنذا يا أبي!»، فقال أبوه: «من أي طريق أتيت أيها الولد؟» فأجاب الابن: «لقد تبعت الطريق التي أتيت أنت منه»، فقال الأب: «تعال لنقوم سوية بعزق الأرض»، وهكذا تقدم ماوي كيزي كيزي لمساعدة أبيه. وقد قال الأب لابنه: «عليك عندما تعزق

ألا تتطلع إلى الخلف». ولكن ماوي كيزي كيزي لم يأخذ بالنصيحة فكان ينظر خلفه وهو يقوم بعمله. فكان أن العشب قد أصبح ينمو في طرفة عين فأغضب الوالد غضباً شديداً فقال: «ماهذا؟ لقد قلت لهذا الولد الوقح ألا ينظر خلفه عندما يعزق الأرض لأن ذلك ممنوع خوفاً من أن تعود الأعشاب الضارة بسرعة إلى النمو وأن تعود أشواك الدغل إلى الانتشار». ثم عاد الأب من جديد إلى عزق الأرض التي كان ابنه قد قام بعزقها لأن الأعشاب كانت قد نمت فيها مرة أخرى. وعندم انتهيا من عملهما بقي الولد ينظر وراءه فكانت الأعشاب الضارة والأشواك تنمو من جديد على آثار أقدامه. عند ذلك غضب الأب وقال: «من الذي قال لهذا الولد الوقح العاصي أن يأتي هنا؟ أيها الولد الوقح، توقف عن العزق واذهب فوراً للبحث عن النار».

فقال الولد لأبيه: «ماهو ذلك الشيء الذي تسميه ناراً؟». فقال أبوه: «اذهب إلى البيت القائم هناك حيث تجد رجلاً عجوزتً يتدفأ، فآت منه بنار نطهو عليها طعامنا». فذهب ماوي كيزي كيزي للبحث عن النار في المكان الذي كان فيه العجوز يتدفأ، وكان هذا العجوز ـ ويا للمفاجأة ـ والد ماوي آتالاغا وجد ماوي كيزي كيزي. وكان اسمه ماوي موتوا. ولكن ماوي كيزي كيزي لم يكن يعرف جده كما أن جده لم يسبق له أن تعرّف به لأنهما لم يكونا قد تلاقيا قط من قبل. واقترب ماوي كيزي كيزي من العجوز الذي كان يتدفأ وسأله: «أيها العجوز، أعطني شيئاً من النار». فأخذ العجوز جذوة وقدمها إليه. فأخذ الولد النار وابتعد بها ولكنه ما لبث أن أطفأها في الطريق وعاد أدراجه إلى العجوز قائلاً: «أعطني ناراً». فقال العجوز: «ماذا فعلت بالنار التي أخذتها منذ قليل؟». فأجاب الفتى: «لقد انطفأت». فأعطاه العجوز ناراً أخرى. ومن جديد حمل الفتى النار وأطفأها في الطريق ببلها في الماء، وعاد من جديد أيضاً يطلب النار من العجوز. وكانت تلك هي المرة الثالثة التي يطلبها فيها. فلما رأى العجوز الفتى عائداً إليه اغتاظ وقال: «لماذا عاد هذا الولد؟ أين هي الجذوات التي كان قد حملها معه؟»، ولكن

ماوي كيزي كيزي أجاب: «لقد أخذت النار معي ولكنها انطفأت. وذلك هو السبب الذي من أجله عدت أطلب النار».

ولم يكن قد بقي في الموقد إلا جمرة كبيرة. فقال العجوز بلهجة حانقة: «قد يمكنك أن ترفع وتحمل هذه الجمرة الكبيرة». ولاشك أنه فكر في قرارة نفسه أن هذا الولد لن يستطيع أن يفعل ذلك، لأن ماوي آتالاغا كان وحده من يستطيع. ولكن ماوي كيزي كيزي تقدم وحمل الجمرة بيد واحدة. فقال ماوي موتوا: «ضع هذه الجمرة لأنني أتدفأ عليها». فأعادها ماوي كيزي كيزي. وكان ماوي موتوا في أشد الغيظ، فقال للفتى: «اقترب، ولنتصارع». فأجاب الغلام: «حسن». وعندما قال ذلك نهض ورفع معه ماوي موتوا وأرجحه من جهة إلى أخرى ثم قذف به بشدة إلى الأرض. وقد فعل ذلك مرتين. فتكسّر الشيخ وأغمي عليه.

ساعتئذ حمل ماوي كيزي كيزي النار إلى أبيه ماوي أتالاغا الذي قال له: «لقد ذهبت فأهنت الشيخ». فأجاب الفتى: «لقد ذهبت إلى الشيخ قاصداً أن أطلب النار منه، ولكنه قال لي أن أقترب منه ليصارعني، وقد تصارعنا فصرعته». فسأل الأب: «وكيف هو الآن». فرد الغلام: «لقد قتلته، فهو الآن ميت». فتأثر ماوي أتالاغا من مصير أبيه ماوي موتوا الذي كان نصيبه أن يقتل على يد حفيده. فأخذ مجرفة وضرب بها ابنه على رأسه فمات في الحال. وذهب ماوي آتالاغا يبحث عن عشب اسمه موهوكواي ليكفن به جثة ابنه القتيل.

بعد ذلك ذهب إلى ماوي موتوا ليرى ما إذا كان حقاً قد قُتل في عراكه مع الصبي، فوجده قد استعاد وعيه بعد أن ذهب عنه الإغماء. فقال لأبيه: «يا أبي، لقد أتى هذا الولد الوقح ليقتلك ولكنه لم يكن يعرف من أنت» فأجاب ماوي موتوا: «وأنا لم أكن أعرفه أيضاً». فقال ماوي أتالاغا: «ابني ماوي كيزي كيزي الذي يعيش هناك فوق الأرض ولد وقح. وكان لابد أن أفكر بأنه سيقتلك إذا جاء إلى هنا، لذلك لم أشأ أن أصطحبه معي خشية من أن يظهر وقاحته. وقد كان فعلاً سفيهاً تجاهك، فقتلته من أجل ذلك، وهو

الآن ميت». فقال أبوه ماوي موتوا: **«ماذا قلت يا صديقي؟ هل قتلت ماوي كيزي كيزي من أجل هذا؟ لماذا لم تتركه يعيش؟ لقد تصرف حقاً تصرفاً** طائشاً ولكننا لم نكن يعرف أحدنا الآخر ولم نتقابل من قبل. اذهب وابحث عن أوراق النونو، فإذا دُثر بها الموتى عادوا إلى الحياة، واسم شجرتها هو نونو فيافيا». فمضى ماوي أتالاغا يقطف من أوراق النونو فيافيا ويغطي جثة ابنه بها حتى عاد ماوي كيزي كيزي إلى الحياة.

وعندما أكلا تهيأ ماوي أتالاغا لأن يصعد مع ابنه إلى سطح الأرض. فقال له: «امض أمامي حتى لا تعود إلى ألاعيبك هنا في لولو فونوا لأنني سئمت من مزعجاتك»، ولكن ماوي كيزي كيزي قال لأبيه: «امض أنت قبلي وأنا سأتبعك». فتصرف الأب على هذا الشكل رغم أنه كان يخشى من أن يأخذ ابنه شيئاً معه من لولو فونوا إلى الأرض. وهكذا مضى ماوي أتالاغا في المقدمة وتبعه ماوي كيزي كيزي في المؤخرة، ولكنه لم ينس أن يأخذ معه شيئاً من النار. وبينما هما يصعدان توقف ماوي أتالاغا وتساءل: «هل تعلم يا ولدي من أين تأتي رائحة النار هذه». فأجاب ماوي كيزي كيزي: «كلا، فربما كانت رائحة المكان الذي طهونا فيه طعامنا هي ما تشم». فقال ماوي أتالاغا: «أيها الفتى، لعلك تحمل ناراً؟» ولكن ماوي كيزي كيزي أجاب: «كلا!» واستمرا في تسلقهما دائماً في صعود. ومن جديد ظهرت رائحة النار ومن جديد توقف الأب وقال: «من أين تأتي رائحة النار هذه؟» ويجيب الفتى: «من أين لي أن أعرف». إلا أن الأب ينظر فيرى دخان النار التي يحملها الابن، ذلك لأن ماوي كيزي كيزي كان يخبئها خلسة من أبيه. عند ذلك جرى الأب نحو الفتى غاضباً وقال: «لقد عشت حتى رأيت ولداً خبيثاً وسفيهاً مثلك! فأين إذن تحمل النار؟»، وما أن قال هذه الكلمات حتى أطفأها.

بعد ذلك استمرا في صعودهما. ولكن ماوي أتالاغا لم يكن يعرف أن ابنه وضع النار في زناره حتى كاد أن يحترق. وظن الأب أن الرائحة التي يشمها إنما هي رائحة النار التي أطفأها. وصعدا حتى بلغا سطح لأرض.

وذهب ماوي أتالاغا فاختبأ حتى يرى ولده وهو يخرج وراءه خوفاً من أن يكون قد حمل معه شيئاً من لولو فونوا. وعندما صعد الابن قال: «هاهو ذا الولد الذي مازال يقوم بألاعيبه! لقد أتى بالنار إلى الأرض». ثم صاح: «فليسقط مطر قوي!»، فهطل مطر قوي. عند ذلك صرخ ماوي كيزي كيزي بالنار: «أنقذي نفسك بالالتجاء إلى شجرة جوز الهند، أنقذي نفسك في شجرة الخبز، أنقذي نفسك في شجرة الفاو، أنقذي نفسك في شجرة التو، أنقذي نفسك في أشجار الأرض!».

وهكـذا كان أصـل النار، وهكذا عرفتها الأرض. فقد جلبها ماوي كيزي كيزي من لولو فونوا لنطهو عليها طعامنا، ولتضيء لنا الظلام، ولنتدفأ عليها عندما يداهمنا البرد وتعترضنا الأمراض. ذلك لأنه لم يكن ثمة نار على الأرض، وكان الناس يأكلون حاصلات الأرض نيئة قاسية، ولكن منذ عصر ماوي كيزي كيزي، منـذ أن أتى بالنـار من لولو فونوا، أصبح بإمكاننا أن نستمتع بها، ذلك لأن ماوي كيزي قال للنار أن تختبىء في جميع الأشجار وأن تبقى هناك.

على أن المبشر الميتودي* المحترم ي. ي. كولّيكت قدم لنا نصاً آخر لهذه الأسطورة:

«كيف دخلت النار إلى هذا العالم ـ كان يوجد أربعة رجال يحمل كل منهم اسم ماوي، وكانوا يعيشون في العالم الأسفل. وأسماؤهم هي: ماوي موتـوا (مـاوي البكـر)، ومـاوي لوا (مـاوي الطويل)، وماوي بوكو (ماوي القصير)، وماوي أتالانغا (ولعل معناها ماوي الذي يستند على الهواء، أو ماوي كان من الهواء). وكان لهذا الأخير أيضاً ابن اسمه ماوي كيجي كيجي (ماوي العفريت). وقد عاشوا مدة طويلة في العالم السفلي. ولكن ماوي أتالانغا كانت تتملكه الرغبة في أن يصعد إلى سطح الأرض. فذهب بموافقة

---

* الميتودية: METHODISME حركة إصلاحية دينية ظهرت في أكسفورد في أوائل القرن الثامن عشر بغية إحياء الكنيسة الانكليزية ـ المترجم ـ.

من أخوته بعد أن وعد بالعودة إلى رؤيتهم وأن يهتم ببستانه ويقوم بكل ماهو ضروري من أعمال. وقد اصطحب معه ابنه ماوي كيجي كيجي. وبعد أن طاف في المنطقة العليا استقر في كولوا، وهي الجزء الأقدم من فافاو**. وكان اسم هافولوهاو خاصاً بهذه المنطقة بالأصل ثم أصبح يطلق دون تمييز على كل البلاد. والاسم الدقيق لمجموعة الجزر هو فافاو، أما كولوا فهي منها المنطقة البدئية، واسمها الأصلي هو هافولوهاو. وقد عاش الماويان في كولوا حيث تزوج آتالانغا امرأة محلية من هذا المكان. وكان مسكنهم يسمى أتالانغا. ولم يقم ماوي بأعمال البستنة في كولوا لأنها كانت صغيرة جداً كما قيل، ولكنه استمر في زراعة بستانه الموجود في العالم السفلي. ولم يكن في هذه الرحلات التي يقوم بها إلى ما تحت الأرض يأخذ ابنه معه بل يبقيه فوق الأرض في صحبة زوجته. يضاف إلى ذلك أن هذا الصبي كان مزعجاً جداً وشيطاناً جداً لدرجة أن أباه لم يكن يحب أن يصطحبه معه. وفي خلال الأيام التي يقضيها أتالانغا مشغولاً بزراعته فني العالم السفلي كان قد اعتاد على أن يتسلل بهدوء قبل الفجر مسراً لزوجته ألا توقظ الصبي الشقي خوفاً من أن يتبعه فيكتشف الطريق. وكان من الطبيعي أن يثور فضول الغلام كيجي كيجي حتى أنه قضى وقتاً طويلاً وهو يلوب عبثاً على بستان أبيه. وأخيراً توصل إلى استنتاج أن هذا البستان لابد أن يكون موجوداً في العالم السفلي. وعند ذلك قرر أن يراقب عن كثب تحركات أبيه في الذهاب والإياب.

«ولكنه قضى بعض الوقت دون أن يتمكن من اكتشاف أي شيء. وفي إحدى الليالي استيقظ مصادفة فرأى أباه يأخذ مَرّه (أداة للحفر) ويخرج من البيت. عند ذلك نهض من مرقده وتبعه وقد اتخذ حيطته من أن يُكشف أمره. وكان مدخل العالم السفلي مخبأ بكتلة من القصب. فعندما وصل

** فافاو: هي المجموعة الجزرية التي تقع في أقصى الشمال من مجموعات جزر تونغا الثلاث.

إليها أتالانغا تطلع حوله بكل حذر ولكنه لم ير ابنه الذي كان مختبئاً على بعد مناسب وهو يرصد بلهفة كل حركات أبيه مع أنه هو نفسه لم يكن مرئياً. وقد أمسك أتالانغا بكتلة القصب فاقتلعها من جذورها ونزل من الفرجة التي كانت هذه النباتات تخفيها، ثم رفع يده وأعاد هذه النباتات إلى مكانها. وبعد برهة كافية تسمح للأب بأن يتخذ سبيله سحب كيجي كيجي كومة القصب ورماها جانباً ثم نزل في إثر أبيه. وكان المكان الذي نزل ماوي إليه يسمى توهالاكوا (وهذا يعني بدون شك: خلف طريق القصب). فتبع كيجي كيجي أباه إلى العالم السفلي آخذاً حيطته في ألا يكون مرئياً حتى وصلا أخيراً إلى البستان.

وعندما بلغ الفتى هذا المكان كان أبوه منهمكاً في عمل جاد. فتسلق الغلام شجرة نونو وقطف واحدة من ثمارها فعضها ورمى بقيتها لأبيه. فالتقط أتالانغا ثمرة النونو وتمعن فيها فعرف آثار أسنان ابنه العفريت. ولكنه عندما تطلع إلى ما حوله لم ير أحداً فعاد إلى عمله. إلا أنه ما لبث أن توقف عندما قُذف مرة أخرى بإحدى ثمار النونو المعضوضة. فتأمل في هذه القذيفة الثانية التي أثارت شكوكه من جديد وقال: «تلك هي في الحقيقة عضات هذا الولد الشيطان». وفي هذه الأثناء لم يكن كيجي كيجي يكف عن الاختباء، ولكنه صاح في هذه المرة: «هاأنذا يا أبي». فسأله أبوه كيف حدث له أن يوجد في هذا المكان فشرح له الفتى كيف تتبع خطاه، وتابع الأب سؤاله عما إذا كان قد أغلق الفتحة جيداً وراءه فأجابه بالإيجاب. عند ذلك طلب منه أتالانغا أن يجتث الأعشاب الضارة معه محذراً إياه بألا يلتفت حوله بل يكتفي بأن يفكر بعمله. ومما لا طائل فيه أن نقول إن الغلام لم يستمع إلى نصح أبيه بل أخذ يتطلع حوله وأن العشب نتيجة لذلك كان ينمو بأسرع مما كان يقطع. وعلى الرغم من توبيخ أبيه له فإن الفتى لم يكن يهتم بما هو ممنوع واستمر يتلفت حوله والعشب ينمو وراءه. وأخيراً طفح بأبيه الكيل وطلب منه أن يكف عن اقتلاع الأعشاب الضارة وأن يذهب لتدبير أمر النار.

ولم يكن كيجي كيجي قد رأى ناراً قبل ذلك قط. فسأل أبوه كيف تكون. فطلب منه أبوه أن يذهب إلى بيت مجاور حيث يجد شيخاً عجوزاً قابعاً بالقرب من النار. وعليه بعد ذلك أن يأخذ بعضها ويأتي به من أجل تحضير الطعام. وعندما دخل كيجي كيجي إلى البيت وجد الشيخ الذي لم يكن يعرفه والذي كان ماوي موتوا والد أتالانغا. فسأله شيئاً من النار فأعطاه. ولكنـه ما أن خرج حتى أطفأ النار وعاد ليسأله من جديد. وتلقى النار مرة ثانية، ولكنه ماكاد أن يخرج حتى أطفأها. وعندما دخل إلى البيت ليطلب ناراً للمرة الثالثة كان العجوز قد أخذ منه الغضب لأنه لم يعد لديه إلا جذوة واحدة هي حطبة كبيرة من خشب الكازوارينا. ومع ذلك فإن الشيخ تمالك نفسه وسأل الفتى مازحاً ما إذا كان بإمكانه أن يحمل هذه الحطبة وأن يتمكن منها لتصوره أنه لن يستطيع أبداً أن يزحزحها من مكانها. ولكن كيجي كيجي التقط الحطبة ومضى وهو يحملها بيد واحدة. فطلب ماوي موتوا من الفتى أن يعيد له ناره فوراً، ولما أطاع تحداه في أن ينازله في الصراع. وقد أظهر هذا التحدي أن العجوز يملك من الحمية بمقدار ما يملك من التهور، ذلك لأن كيجي كيجي قذف به عدة مرات إلى الأرض تاركاً إياه فاقداً للحياة، ثم التقط حطبة الكازوارينا ومضى بها لا يلوي على شيء.

«وعندما أدرك أباه كان هذا قلقاً من فعلته مع ماوي موتوا بإرساله ابنه له وتأخر هذا عن العودة كل هذا الزمن الطويل. ولكن كيجي كيجي أجاب ببساطة بأن النار انطفأت وأنه كان عليه أن يعود مرات عديدة للحصول على غيرها. إلا أن أسئلة أبيه الملحة انتزعت منه أخيراً قصة العراك وما نجم عنه من نتيجة مشؤومة. وعندما علم أتالانغا بما حدث ضرب ابنه بالمعول فرمى به على الأرض وغطى جسمه بالعشب المسمى موهوكوفي (ومعناه الحرفي عشب الماء). ويقال إن تغطية جسد كيجي كيجي بهذا العشب جعله (أي العشب) لا يموت أبداً عندما يقطع. وبعدئذ ذهب أتالانغا لرؤية والده فوجده قد عاد إلى الوعي. وعلم العجوز للمرة الأولى أن ذلك الذي صارعه إنما كان حفيده. فقال لأتالانغا أن يقطف أوراقاً من شجرة النونو ويضعها فوق

جسد الفتى كي يعود إلى الحياة. **فأطاع هذا أمر أبيه وعاد كيجي كيجي إلى** الوعي. أما هذا النوع من أشجار النونو فإنه لا ينمو إلا في السماء أو في العالم السفلي.

«عند ذلك أكل الاثنان (أتالانغا وابنه) وهيآ نفسيهما للصعود إلى ظاهر الأرض وبما أن أتالانغا كان يخشى دائماً ألاعيب ابنه الطائشة فقد طلب منه أن يسير في المقدمة. ولكن إلحاح كيجي كيجي جعل الأب يبدأ المسير. وعندما أصبحا في الطريق أمسك كيجي كيجي بجذوة حارة ليحملها معه وخبأها خلفه. وبعد قليل توقف أبوه وسأله: «من أين تأتي رائحة الحريق هذه؟». هل أتيت معك بنار؟». فأجاب الفتى بالنفي وقال: «ربما كانت هذه رائحة المكان الذي طهونا طعامنا فيه». وبدا الأب بين مصدق ومكذب. ثم تابعا مسيرتهما. وبعد ذلك بقليل التفت من جديد وقال: «أيها الفتى، من أين تأتي رائحة الحريق هذه؟». فأجاب كيجي كيجي: «لا أدري». فسأل أتالانغا: «أيها الفتى، ألم تأت معك بنار؟». وفي هذه اللحظة لمح الأب دخان النار التي يخبئها ولده فانقض عليه وانتزع منه الجمرة وأطفأها موبخاً كيجي كيجي على تمرده وطيشه. وعند ذلك وصلا إلى العالم العلوي. ولكن كيجي كيجي كان قد أشعل طرف حزامه خلسة من أبيه. وعندما وصلا إلى سطح الأرض سار أتالانغا في المقدمة واختبأ ليرى ما إذا كان ابنه قد حمل معه شيئاً من العالم السفلي. فلما خرج كيجي كيجي رأى أبوه الدخان يتصاعد من حزامه المحترق. فصرخ أتالانغا فوراً بالمطر أن يتساقط. وبالرغم من الهطول المدرار الذي تلا ذلك فإن الفتى لم يستسلم للهزيمة بل صرخ بالنار أن تفر إلى شجرة جوز الهند وشجرة الخبز والهيبيسكوس والتو (أو الكورديا) وكل الأشجار الأخرى. وتلك هي الطريقة التي وصلت بها النار إلى بني الإنسان الذين كانوا يأكلون طعامهم قبل ذلك من غير أن يطهوه. وبما أن النار تسكن الأشجار فإن من الممكن الحصول عليها عن طريق حك عصا بعصاة أخرى.

فهذه الأسطورة التونغية (نسبة إلى مجموعة جزر تونغا) تنطبق فيما هو

أساسي منها مع أسطورة الماوري. ففي كلتا الأسطورتين جلبت النار في الأصل إلى سطح الأرض بفضل حيلة بطل خبيث وجريء استطاع أن يسرق النار ويأتي بها من العالم الآخر. وفي كلتا الأسطورتين اختُلست النار وكادت تنطفىء بفعل مطر غزير ولكنها أُنقذت وخُبئت في الأشجار حيث بقيت حتى يتم الحصول عليها عن طريق الحك. والاختلافات الرئيسية بين القصتين تكمن في أن النار في أسطورة ماوري إنما جلبت من العالم الأعلى بينما جلبت من العالم السفلي بموجب الأسطورة التونغية. وبينما كان مالك النار الأصلي في أسطورة ماوري هو جد البطل لأمه فإنه في القصة الثانية جد البطل لأبيه. كذلك فإن النار كان يتم الحصول عليها في الأسطورة الأولى عن طريق خلع الأظافر أو الأصابع بينما تشير الأسطورة التونغية إلى أن مالك النار الأول كان يمتلكها ويستعملها بشكل عادي دون أن يكون لها علاقة بجسده.

ويروي وطنيو جزيرة نيوي (المتوحشة) التي توجد إلى الشرق من جزر تونغا أو فريندلي قصة عن أصل النار تبدو ـ على الرغم من أن ما نملكه منها موجز ـ أنها تنطبق فيما هو أساسي منها مع الرواية التونغية. وهذه القصة تقول إنه كان يوجد أب وابنه يطلق على كل منهما اسم ماوي. وكانا ينزلان إلى العالم السفلي من خلال دغلة من القصب. وكما فعل بروميثوس في الأسطورة اليونانية فإن ماوي الصغير سرق النار من العالم السفلي وحملها عبر الممر، وقبل أن يتمكن أبوه من الإمساك به وضع النار في الدغل في جميع الاتجاهات. وقد حاول الأب إطفاءها ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح. ويقول سكان هذه الجزيرة إنه منذ أن أتى لهم بالنار أصبحت دائمة عندهم وصاروا يطهون بها طعامهم. وقد التقط السير بازيل تومسون أسطورة نيوي هذه بشكل يختلف قليلاً عن الرواية السابقة، وبحسب هذا النص أنه بعد أن انبثقت جزيرة نيوي من الأمواج بفترة وجيزة «كان ماوي يعيش تحت سطح الأرض. وكان يحضّر طعامه سراً. وكان ابنه قد جذبته لمدة طويلة هذه الرائحة الشهية التي تنطلق من طعام أبيه، فاختبأ ليراقب هذه العملية

فرأى النار لأول مرة في حياته. وعندما ابتعد ماوي سرق ابنه جذوة ملتهبة وفر بها عن طريق فتحة في بعض كهوف نيوي حيث وضع النار في واحدة من أشجار الأوفافا. ومنذ ذلك الوقت يقوم سكان نيوي بالحصول على النار من هذه الأشجار بحكها بشظية قاسية من شجرة الكافيكا. فهنا نلاحظ أن الأسطورة، كما هي الحالة في أغلب الأحيان، إنما وضعت لإيضاح الطريقة المستعملة للحصول على النار بحك بعض أنواع الأخشاب بعضها ببعض.

أما في جزيرة ساموا فإن قصة أصل النار فيها تشبه القصة التونغية مع اختلاف بسيط في أسماء الشخصيات. فسكان ساموا يقولون إنه كان يوجد عصر لم يكن يعرف فيه النار أحد من أجدادهم بل كانوا يأكلون طعامهم نيئاً. كما يقولون إنهم مدينون فيما وصلوا إليه من لذائذ طعامهم المطبوخ إلى رجل يسمى تي إيتي إي، وهو ابن لشخصية اسمها تالانغا. وكان تالانغا هذا مفضلاً ومقرباً جداً من إله الزلازل مافوي الذي كان يعيش في منطقة تحت الأرض تشتعل فيها النيران دائماً. وكان تالانغا يذهب كل مرة إلى صخرة عمودية فيقول لها: «أيتها الصخرة، انفلقي، فأنا تالانغا أتيت للعمل». وكانت الصخرة تنفتح وتتركه يمر حيث ينزل إلى زراعاته في بلد الإله مافوي. وفي أحد الأيام تبع تي إيتي إي أباه ورأى المكان الذي ينزل منه. وبعد فترة ذهب الغلام إلى الصخرة وقال لها مقلداً صوت أبيه: «أيتها الصخرة، انفلقي، فأنا تالانغا أتيت للعمل». وهكذا تمكن من الدخول هو أيضاً. وقد فوجىء الأب الذي كان يعمل في زراعته من رؤية ابنه فرجاه ألا يتكلم بصوت عال خوفاً من أن يسمعه الإله فيغضب. وعندما رأى الابن الدخان المتصاعد سأل أباه عن هذا الشيء فأجابه بأنه نار مافوي. فقال الابن: «يجب علي أن أذهب لآتي بقبس منها» فأجابه الأب: «كلا لا تفعل، فإن الإله سيغضب. ألا تعلم بأنه يأكل كل العالم؟». ولكن الفتى الجريء قال: «وهل أنا خائف منه؟». ثم تقدم وهو يدندن نحو الأتون الذي يتصاعد منه الدخان.

قال مافوي للغلام: «من أنت؟». فأجابه: «أنا تي إيتي إي ابن

تالانغا، وقد أتيت هنا لأحصل على قبس من النار». فقال مافوي: «خذ شيئاً منها». فعاد تي إيتي إي ببضع جمرات وانهمك الاثنان في طهو الطعام. فأشعلا ناراً وتهيئا لوضع القلقاس على الحجارة الحامية، ولكن مافوي نفخ فجأة على الموقد فبعثر كل الحجارة وأطفأ النار. فقال تالانغا: «حسن، ألم أقل لك إن مافوي سيغضب؟». عند ذلك توجه الفتى وهو غاضب أشد الغضب إلى مافوي وسأله: «لماذا كسرت موقدنا وأطفأت نارنا؟». فامتعض مافوي من هذه المبادرة الجريئة ورمى بنفسه على الغلام فأخذا بتلابيب بعضهما. وقد أمسك تي إيتي إي بذراع مافي اليمنى بكلتا يديه وبرمها حتى كسرها. ثم أمسك بالذراع الثانية وأخذ يبرمها حتى اعترف مافوي بأنه هُزم واستجدى خصمه الرحمة وأن يوفر له ذراعه اليسرى. وقد قال له: «إنني بحاجة إلى هذه الذراع لأمسك بساموا مستقيمة وأفقية، فأتركها لي أترك لك في مقابلها نسائي المائة». فأجاب تي إيتي إي: «كلا لا أريد مثل هذا الثمن» فسأله مافوي: «فهل تريد ناراً؟ خذ منها ما تشاء، وإذا تركت لي يدي اليسرى فسيكون عندك نار وستطهو بعد الآن طعامك دائماً». فقال تي إيتي إي: «لقد اتفقنا! فاحتفظ بذراعك وسيكون عندي نار». فقال مافوي: «هيا، فستجد النار في كل خشبة تقطعها». وهكذا أصبح السامويون منذ عهد تي إيتي إي يأكلون طعامهم مطبوخاً ويحصلون على النار بحك قطعة من الخشب بقطعة أخرى. ولا يزال الناس المتطيرون يفكرون ـ كما يقال ـ بأن إلـه الزلازل موجود في مكان ما تحت ساموا، وأن الأرض لها مقبض كالعصا يحركه مافوي من وقت إلى آخر فيتسبب بهزة أرضية. وتلك هي عادتهم في الحديث عن هذه الأمور. فعندما يشعرون بهزة أرضية يقولون: «الشكر والحمد لتي إيتي إي بأنه لم يترك لمافوي إلا ذراعاً واحدة، فلو كان له اثنتان فأية هزة كان سيفعلها بنا».

في هذه القصة التي وصلت إلينا من ساموا ربما لم تكن أسماء الأب والابن إلا تنويعات في لفظ الأسماء بالنسبة للنص التونغي. فاسم الأب تالانغا في رواية ساموا يرتبط ارتباطاً واضحاً بأتالانغا أو أتالاغا (ماوي أتالاغا)

في الـرواية التـونغية، والفتى السـاموي تي إيتي إي يرتبط بالاسم التونغي كيجي كيجي أو كيزي كيزي (ماوي كيزي كيزي). ولكن اللمحة المميزة في أسطورة ساموا هي الأصل البركاني للنار في قدومها إلى الأرض. إذ أن من الصعب علينا أن نشك بأن النار الدائمة التي يفترض بأن إله النار كان يرعاهـا لم تكن غير النار البركانية الكامنة في باطن الأرض. والقصة في حديثها كيف دمر إله الزلازل الأرضية الموقد وبعثر الحجارة لا تخرج عن كونها وصفاً أسطورياً لثورة بركانية.

أما الوطنيون في فاكاوفو أو بوديتش، وهي جزيرة تقع إلى الشمال من ساموا، فإنهم يعيدون أصل النار إلى مافويك. «إلا أن مافويك هنا يختلف عن مافويك الوارد ذكره في أساطير بعض الجزر لأخرى، فهو هنا، من حيث جنسه، امرأة عمياء ذهب إليها تالانغا في البلاد السفلى وطلب منها أن تعطيه شيئاً من نارهـا فرفضت بعنـاد حتى هددها بالموت، فخضعت عند ذلك لطلبه. وقد كشفت له عن الأسماك التي يتوجب أن تؤكل مطبوخة على النار والأسماك التي ينبغي أن يستمر أكلها وهي نيئة، ومنذ ذلك الوقت بدأ عصر الطعام المطبوخ». وفي جزر الأونيون الواقعة إلى الجنوب الشرقي من جزيرة بوديتش توجد قصة مشابهة لتلك التي مر ذكرها: «فثمة شخصية مغامرة اسمه تالانغا نزل إلى العوالم السفلى فوجد امرأة عجوزاً اسمها مافويك مشغولة بتحضير طعامها على النار. وعندما اضطرت أمام التهديد بالموت أن تتخلى عن كنزها قام هو فسجن النار في بعض أنواع الخشب كي يتمكن أحفاده من الحصول عليها عن طريق الحك». فهاتان القصتان تتفقان فيما هو أساسي منهما مع روايات ساموا لهذه الأسطورة. حتى أن أسماء الأشخاص من أمثال تالانغا ومافويك إنما تنطبق تماماً، أو تكاد تنطبق، مع أسماء سامـوا التي هي تالانغـا ومـافوي، وإن كان مافوي إلهاً في الأسطورة الساموائية بينما مافويك اعتبرت الهة في الأسطورة الثانية.

وينسب سكان مانغايا إحدى جزر هيرفي أصل النار إلى بطل بولينيزي

كبير هو ماوي. والقصة التي تروي كيفية وصول النار إلى بني الإنسان تشبه في الكثير من نقاطها أساطير ماوري وتونغا، وإليك حديثها:

في البدء لم تكن النار معروفة من الناس الذين كانوا يأكلون طعامهم نيئاً بالضرورة. وكان يعيش في العالم السفلي (أفيكي) أربعة أشخاص أقوياء هم: ماويك إله النار، ورا (لعله رع) إله الشمس، و(رو) حامل السموات، وأخيراً زوجة (رو) واسمها بواتارانغا وهي حارسة طريق العالم غير المنظور.

وقد وُلد لرو وزوجته ابن شهير هو ماوي الذي عُيّن في سن مبكرة أحد حراس العالم العلوي حيث يعيش الناس الفانون. وكما يفعل بقية الناس كان ماوي يعيش على الطعام النيء. وكانت أمه بواتارانغا تقوم بزيارته من وقت لآخر ولكنها تحرص على أن تأكل طعامها في مَعزل عنه ساحبة إياه من السلة التي حملتها معها من العالم السفلي. وفي أحد الأيام بينما كانت نائمة ألقى ماوي نظرة مختلسة على سلتها فاكتشف طعاماً مطهواً، فلما تذوقه أحبه أكثر بكثير من الطعام النيء الذي اعتاد عليه. وبما أن هذا الطعام المطهو أتى من العالم السفلي كان من الواضح أن سر النار إنما كان يكمن هناك. وهكذا قرر ماوي أن ينزل إلى العالم السفلي مسكن والديه ليتمكن دائماً من التمتع بلذائذ الطعام المطبوخ.

وفي اليوم التالي عندما تهيأت أمه للنزول إلى العالم السفلي تبعها ماوي خلسة عبر الدغل. ولم يكن ذلك صعباً لأنها كانت تأتي وتعود دائماً على نفس الطريق. وعندما نظر من فوق القصبات الكبيرة رأى أمه تقف أمام صخرة سوداء وتوجه إليها هذه الكلمات:

فلتنزل بواتار انغا من الفتحة على الرغم من جسدها
يجب أن يُطاع ذلك الذي يشبه قوس قزح.
كما تنفصل غيمتان سوداوان عند الفجر
افتحوا، افتحوا طريقي إلى العالم السفلي، أنتم أيها المرعبون!

ولدى التلفظ بهذه الكلمات انفتحت الصخرة ونزلت بواتارانغا وتمكن

ماوي أن يحفظ هذه الكلمات السحرية بعناية كبيرة. بعد ذلك ذهب ماوي بدون تأخير لرؤية الإله تان الذي كان يملك عدداً من الحمائم الخارقة للعادة. وقد رجاه أن يعيره واحدة من هذه الحمائم فقدم له اثنتين واحدة بعد أخرى ولكن ماوي الصعب المراس رفضهما كلتاهما وأصر على حمامة حمراء اسمها أكاوتو- أي التي لا تخاف - كانت أثيرة جداً على إله. وقد رفض تان تقديم هذه الحمامة الأثيرة والانفصال عنها ولكنه أعطاها له في النهاية بعد أن أخذ منه وعداً بأن يردها له في المستقبل بدون أن يلحق بها أي أذى. فذهب ماوي منشرح الصدر وهو يحمل حمامته نحو المكان الذي نزلت منه أمه. وعندما تلفظ بالكلمات السحرية التي كان قد سمعها انفتحت الصخرة ونزل مختبئاً في داخل الحمامة. وهنالك من العارفين ببواطن الأمول من يقول إنه تحول إلى يعسوب صغير وتعلق وهو على هذه الصورة بظهر الحمامة ونزل معها إلى العالم السفلي. إلا أن نزول هذا المخلوق الغريب أغضب الآلهة القساة الذين كانوا يحرسون فتحة النزول فأمسكوا بالحمامة بقصد افتراسها ولكنهم لم يمسكوا منها إلا بالذنب أما الحمامة ذاتها فتابعت طيرانها في إتجاه الظلمات. أما ماوي فقد حزن على الخسارة التي لحقت بالحمامة الأثيرة على الإله تان.

وعندما وصل ماوي إلى العالم الأسفل أخذ يبحث عن منزل والدته الذي كان أول منزل رآه، وقد اهتدى إليه من الضجة الصادرة فيه عن مدقة الحبوب. فحطت الحمامة الحمراء على الموقد مقابل الملجأ المسقوف الذي كانت بواتارانغا فيه تخبط حصيرة من لحاء الشجر. وقد توقفت عن عملها لتنظر إلى الحمامة الحمراء التي خمنت أنها زائر من العالم العلوي. فقالت للحمامة: «ألست أنت ولدي ماوي؟». ومن جديد هزت الحمامة برأسها للمرأة العجوز. عند ذلك دخلت المرأة إلى منزلها وطارت الحمامة لتحط على شجرة الخبز. أما ماوي فاستعاد شكله الإنساني وتقدم فعانق أمه التي كانت قلقة من الطريقة التي نزل بها إلى العالم السفلي ومن الهدف الذي دفعه إلى هذه الزيارة. واعترف ماوي بأنه قدم ليحصل على سر النار.

فقالت بواتارانغا: «إن هذا السر يتعلق بإله النار ماويك، فعندما أريد إشعال موقدي فإنني أرجو أباك رو أن يطلب جذوة من ماويك». وكان ماوي لا يعرف السبيل إلى مسكن إله النار، فدلته أمه على الاتجاه وقالت له بأنه يدعى «بيت عصي البانيان»، ورجت ولدها أن يكون حذراً «لأن إله النار، كما قالت، شخص رهيب ذو مزاج سريع الهيجان».

ولكن ماوي سار بجرأة نحو بيت إله النار مستهدياً بعمود من الدخان لولبي الشكل. فوجد الإله مشغولاً بطهو طعامه على موقد. ولما سأله جلالته عما يريد أجابه «أريد جذوة من النار». فأعطاه واحدة. فلما وصل إلى جدول ماء كان يجري أمام شجرة الخبز أطفأها وعاد إلى ماويك فتلقى منه جذوة ثانية أطفأها أيضاً في مياه الجدول. وللمرة الثالثة طلب جذوة من النار. وكان الإله قد أصبح في أشد حالات الغضب، ومع ذلك فإنه بحث بين الرماد حتى أعطاه جذوة أخرى على عود جاف. فأطفأها أيضاً بالماء لأنه كان يسأل نفسه في الواقع ما جدوى جذوة واحدة من النار إذا لم يتمكن من معرفة سر صناعة النار. وعند ذلك صمم على إثارة شجار بينه وبين إله النار وإجباره على الكشف عن سره الذي لم يكن يعرفه أحد إلا هو. وهكذا طلب جذوة رابعة من الإله الذي كان في أشد حالات الغضب. فأمره جلالته أن يـذهب من أمـامه تحت طائرة قذفه في الهواء، ذلك لأن قامة ماوي كانت قصيرة وهزيلة، ولكن الفتى الجريء أعلن استعداده لأن ينازل إله النار بكل حمية واعتزاز. عند ذلك دخل ماويك إلى منزله ليضع على خصره حزام الحرب. فلما عاد وجد ماوي قد نفخ نفسه حتى صار له قامة عظيمة. ولكن ماويك الذي لم يخف قط أمسك بماوي وقذف به حتى علو شجرة جوز الهند. أما ماوي فقد تمكن من السقوط بكل خفة ورشاقة بحيث لم ينل منه أي أذى. فقذف به الإله هذه المرة في الهواء إلى أعلى من أية شجرة جوز هند نبتت في أي زمان ومكان، ولكنه نزل من جديد دون أن يناله أي أذى في الوقت الذي كان فيه إله النار يلهث من الإعياء.

وأصبح الآن دور ماوي. فقذف مرتين بإله النار في الهواء إلى علو يثير

الدوار ثم أمسك به كأنه كرة بين يديه. وعند ذلك أخذ ماويك الذي أخذ منه الإعياء واللهاث يتوسل إلى ماوي بأن يتوقف ويبقي على حياته، ثم وعده بأن كل ماكان يرغب بحيازته منه سيكون ملك يديه. فأجاب ماوي: «سأحفظ لك حياتك على شرط واحد هو أن تقول لي ماهو سر النار، وأين تختبىء وكيف يتم إيقادها». فوعده ماويك عن طيب خاطر بأن يعلّمه كل ماكان يعرفه هو وقاده إلى منزله الرائع المريح. وكان يوجد في إحدى الزوايا كمية من ألياف جوز الهند، وفي زاوية أخرى عدة حزم من الخشب القابل للاشتعال، من أمثال الهيبيسكوس الحامض (آو)، والأورتيكا أرجانيتا (أورونغا)، والتاوينو، وبخاصة ابانيان (آواغفيكوس إينديكوس). وكانت هذه الحزم يابسة ومهيأة للاستعمال. وفي وسط الغرفة كان يوجد عصاتان صغيرتان على حدة. فأعطى إله النار واحدة منهما إلى ماوي ورجاه بأن يمسك بها بثبات، بينما أمسك هو بالعصاة الأخرى بكل قوة. وبينما كان يعمل كان يترنم بالأغنية التالية:

«امنحني، أوه امنحني النار المختبئة
أوه، أنت يابانيان
قم بتعزيمة
ووجّه صلاة إلى روح بانيان
أشعل ناراً من أجل ماويك
بمساعدة من غبار بانيان».

وفي اللحظة التي توقف بها الغناء لاحظ ماوي دخاناً ضعيفاً يتصاعد من الغبار الدقيق الناجم عن احتكاك العصا بالأخرى. وكلما تابعا عملهما كلما ازداد الدخان. وبنفخات من إله النار انتعش الدخان وانبثقت منه شعلة خفيفة أُضرمت بألياف جوز الهند الدقيقة لتكون فتيلة لها، ثم ما لبث ماويك أن وضع فوقها حزم الخشب المختلفة، ولم يمض إلا وقت قليل حتى شبت نار كبيرة كان ماوي ينظر إليها باندهاش.

وهكذا انكشف السر الكبير عن إيقاد النار. ولكن ماوي قرر أن ينتقم

لنفسه من مغامرته ومن أنه قُذف به في الهواء. فأشعل النار في بيت خصمه المهزوم، ومالبث العالم السفلي كله أن التهمته النيران التي قضت على إله النار وعلى كل ما كان لديه من ممتلكات، لدرجة أن الصخور تصدعت وتشققت بفعل الحرارة العالية التي صدرت عن النيران.

وقبل أن يترك بلاد الأرواح التقط ماوي غابتي النار* اللتين كانتا ملكاً لماويك ومضى بهما بسرعة نحو شجرة الخبز حيث كانت الحمامة الحمراء تنتظر رجوعه بدون خوف. ومرة أخرى تلفظ ماوي بالكلمات التي تعلمها من أمه بواتارانغا، ومرة أخرى انفرجت الصخور فعاد من خلالها سليماً معافى إلى العالم العلوي. أما الحمامة الحمراء فطارت باتجاه وادٍ رائع منعزل حيث حطت هناك. وأصبح هذا المكان يعرف منذ ذلك الوقت باسم «روب - تاو» أي «استراحة الحمامة». وهناك استعاد ماوي شكله الانساني وأسرع يحمل الطير الأثير إلى تان.

وعندما مر في وادي كيا الرئيسي، اكتشف أن اللهيب كان قد سبقه من خلال فرجة تؤدي إلى تياوا ما لبث أن أُغلقت منذ ذلك الحين. وكان الملكان رانجي وموكواروا يهتزان حزناً على أرضهما إذ بدا لهما أن كل شيء سيدمر وستلتهمه النيران. ومن أجل انقاذ جزيرة مانغايا من الخراب بذل الجميع جهدهم حتى نجحوا أخيراً في إطفاء النار.

وقد فضل سكان مانغايا أن يأخذوا النار من الحريق لطهو طعامهم. ولكن هذه النار ما لبثت أن خمدت بعد بعض الوقت. وبما أنهم لم يكونوا يملكون سرها فإنهم لم يعرفوا كيف يشعلونها من جديد. أما ماوي فقد دُهش الجميع لعدم حرمانه قط من النار في بيته. وأخيراً أخذته الشفقة بسكان العالم فعلمهم سره الرائع في أن النار تكمن في شجرة الهيبيسكوس والأورتيكا أرجانيتا والتاوينو والبانيان، وأظهر لهم كيف يمكنهم الحصول على النار المخبأة باستخدام غابات - النار (هي أدوات الحك) التي قدمها

---

* كنت قد شرحت سابقاً معنى غابة النار - المترجم -.

لهم. ثم طلب منهم بعد ذلك أن ينشدوا نشيد إله النار (الذي مرت معنا كلماته) ليكون استعمال غابات ـ النار مجدياً ومفيداً. ومنذ ذلك اليوم أصبح سكان ما فوق سطح لأرض يستخدمون غابات ـ النار بنجاح وتمتعوا بالفائدة المزدوجة من النار في الإضاءة وطهو الطعام.

ويقال إن الطريقة البداية نفسها في الحصول على النار لا تزال مستعملة حتى اليوم باستثناء أن القطن حل محل ألياف جوز الهند فتيلةً للإشعال. وكان الاعتقاد سائداً في البدء بأن هذه الأنواع الأربعة من الأشجار التي كانت موجودة في مسكن إله النار هي التي يمكن عن طريقها الوصول إلى هذه الهدية القيمة. وقد كُرست شجرة البانيان لإله النار. والمكان الذي يقال ان النار انبجست منه من الأرض أطلق علي اسم تي ـ آلوا أي البانيان، وتم تقديسه حتى أجبرت المسيحية مالك هذا المكان على تحويله إلى حقل لزراعة القلقاس. وفي جزيرة راروتونغا إحدى جزر هيرفي أصبح اسم بواتارانغا هو أتارانغا. وفي ساموا أصبح تالانغا. وفي لهجة ساموا أصبح ماويك هو ماوفي.

ويروون في جزر هيرفي نصاً آخر لهذه الأسطورة هو التالي: في جزيرة راروتونغا التي هي جزء من جزر هيرفي كان يعيش فيما مضى رجل اسمه مانوا هيفار مع زوجته تونغوافار التي كانت بنت الإله تانغاروا. وكان لهما ثلاثة صبية يحمل كل منهم اسم ماوي، وابنة اسمها إينيكا. وكان أصغر الصبية، أي ماوي الثالث، هو الأصغر أيضاً بين مجموع أولاد العائلة. وكان صبياً ذكياً وناضجاً قبل الآوان. وكان هذا الصبي المليء بالآمال قد لاحظ أن أباه مانواهيفار كان يختفي كل يوم عند الفجر سراً ثم يعود سراً عند هبوط الظلام. وقد بدا ذلك غريباً لدرجة أن الابن المفضل الذي كان ينام كل ليلة بجانب أبيه لم يكن يعرف كيف ومتى يذهب أبوه ويعود. فقرر أن يكشف هذا السر. وفي إحدى الليالي خلع أبوه حزامه لينام فأمسك ماوي بطرف الحزام ووضعه تحته دون أن يلفت انتباه أبيه. وفي صباح اليوم التالي أحس بأن حزام أبيه قد سُحب من تحته في ساعة مبكرة

من الصباح، وكان هذا تماماً ما يرغب به. فبقي دون حراك ليرى ماذا سيحدث بعد ذلك. أما الأب الذي لم يساوره أي شك فقد ذهب بحسب عادته إلى دعامة البيت الرئيسية وقال:

«أيتها الدعامة! افتحي، افتحي

لكي يتمكن مانوا هيفار من الدخول والنزول إلى العالم السفلي (جفيلي)».

فانفتحت الدعامة مباشرة ونزل مانواهيفار. وفي اليوم ذاته عندما ذهب الأولاد الأربعة كالعادة ليلعبوا لعبة الاختباء قال ماوي الأصغر لأخويه وأخته أن يذهبوا ليلعبوا في الخارج لكي يبحث هو عن مكان له يختبىء فيه. وما أن تواروا عن الأنظار حتى اتجه إلى العمود الذي اختفى فيه أبوه ونطق بالكلمات السحرية التي كان قد حفظها. وأمام فرحته الكبيرة انفتح العمود فنزل ماوي بكل جرأة إلى العالم السفلي. وقد فوجىء أبوه مانواهيفار من رؤية ابنه هناك ولكنه استمر في عمله بكل هدوء. وعندما تُرك ماوي وحده قام يكتشف هذه المناطق الواقعة تحت الأرض حتى وجد، بين ما وجد، امرأة عجوزاً منهمكة في طهو طعامها على نار. وكانت تمسك بيدها ملاقط مصنوعة من القشرة الأصلية لثمرة جوز الهند فترفع بها بكل عناية جمرة حارة من النار وتحركها معتقدة أن هذه الجمرة هي الطعام، بينما كان الطعام الحقيقي يحترق على النار حتى استحال إلى رماد. ولما سألها ماوي عن اسمها اكتشف لدهشته أنها لم تكن إلا جدته أينابوراري أي إينا العمياء. وقد أشفق حفيدها الذكي على العجوز المسكينة ولكنه لم يشأ أن يكشف لها عن اسمه. وكان يوجد بالقرب من المكان الذي كانت إينا تطهو فيه طعامها أربع من أشجار النونو (موريندا سيتريفوليا). فأخذ ماوي عصا وضرب أقرب الأشجار الأربع. وعندما سمعت إينا العمياء هذه الضجة قالت بغضب: «من ذا الذي يتطفل فيلمس النونو التي تخص ماوي البكر؟». فمشى ماوي الجريء إلى الشجرة الثانية ونقرها بلطف. فاشتعل غضب أينا العمياء من جديد وصرخت: «من ذا الذي يتطفل فيلمس نونو ماوي

الثـاني؟». وعندما نقر الشجرة الثالثة عرف أنها تخص أخته إينيا. عندئذ ضرب النونو الرابعة والأخيرة فسمع جدته العجوز تسأل: «من ذا الذي يتطفل فيلمس نونو ماوي الثالث؟». فأجاب: «إنني أنا ماوي الثالث». عند ذلك قالت العجوز: «أنت حفيدي وتلك هي شجرتك».

وبينما كان ماوي يتطلع إلى شجرته كانت خالية من الأوراق والثمار. ولكن بعد أن كلمته إينا العجوز تطلع إليها من جديد فوجدها ممتلئة بالأوراق وبالتفاح الجيد الذي لم يكن مع ذلك يانعاً. فتسلق ماوي الشجرة وقطف منها تفاحة. وبعد أن أخذ منها قضمة تقدم إلى جدته ورمى هذه القطعة في إحـدى عينيهـا العمياوتين. وقـد شعرت بألم شديد ولكن النظر ارتد إليها تمامـاً. فقطف ماوي تفاحة أخرى وقضم منها قضمة رماها على عين جدته الأخـرى فعاد إليها النظر أيضاً. وقد سعدت إينا العمياء من أن يرتد إليها بصرها وأن ترى من جديد. وفي غمرة عرفانها بالجميل قالت لحفيدها: «كل ماهو في الأعلى، وكل ماهو في الأسفل خاضع لك ومن نصيبك وحدك». فتشجع ماوي عند ذلك وسألها: «من هو سيد النار؟». فأجابت: «إنه جدك تانغاروا ـ توي ـ ماتا، أي تانغاروا ذا الوجه الموشوم. ولكن لا تذهب إليه، فهو رجل سريع الغضب جداً وستهلك حتماً إذا اقتربت منه». إلا أن ماوي الذي لا يعرف الخوف سار مباشرة إلى جده تانغاروا ـ توي ـ ماتا. وعندما رآه هذا الكائن الإلهي الرهيب يتقدم نحوه رفع يده اليمنى لقتله، فرفع ماوي يده اليمنى أيضاً. عند ذلك رفع تانغاروا قدمه اليمنى وفي نيته أن يقتل هذا الدخيل المزعج بضربة من قدمه. ولكن ماوي رفع هو أيضاً قدمه اليمنى، فذهـل تانغـاروا من جرأتـه وسـألـه عن اسمه. وأجاب الزائر: «أنا ماوي الأصغـر». ففهم الإله أنه حفيده فسأله لماذا أتى. وأجاب ماوي: «لكي أحصل على النار». عند ذلك أعطاه تانغاروا عصا مشتعلة وطرده. فابتعد ماوي بضع خطوات حتى وصل إلى حافة ماء أطفأ فيه العصا المشتعلة وأعاد عمله هذا ثلاث مرات. وعندما عاد ماوي للمرة الرابعة يطلب ناراً كانت كل الجذوات قد نفذت حتى اضطر تانغاروا أن يأتي بعصاتين جافتين وحكهما

ببعضما حتى حصل على النار. وقد أمسك ماوي بالعصا الدنيا بينما كان جده يحكها بالعصا العليا. وما كادت النشارة الصغيرة التي تكونت في الفرضة تشتعل حتى أطفأها ماوي بأنفاسه. فاغتاظ تانغاروا فأبعد حفيده واستدعى طائراً هو خطاف البحر ليمسك العصا السفلى بينما يقوم هو بحك العصا العليا على الطريقة المعهودة. وأخيراً انبثقت النار من العصاتين المحكوكتين، ففرح ماوي فرحاً شديداً لأن السر أصبح محلولاً لديه، وانتزع من يد جده العصا الملتهبة العليا بينما استمر طائر خطاف البحر ذو الريش الأبيض ممسكاً بالعصا السفلى بين مخالبه حتى وضع ماوي العصا الملتهبة العليا على كل طرف من عيني الطائر وأحرقه في هذا المكان. ومن أجل ذلك لا نزال نرى حتى اليوم علامات سوداً على كل طرف من عيني خطاف البحر. وقد أحس هذا الخطاف بالألم يحز قلبه وبالقرف يدمي فؤاده من هذه المعاملة التي كوفىء بها على ما قام به من خدمات، فطار ولم يعد أبداً.

وعرض ماوي على جده أن يطير معه نحو النور من الفرجة التي كان الطائر قد نفذ منها. فسأله الإله كيف يمكن لهذا أن يحدث، وأجابه ماوي: «ليس ما هو أسهل من ذلك». ومن أجل أن يثبت قوله طار إلى الأعلى كأنه طير، ففُتن تانغاروا بهذا المنظر، وبإيحاء من حفيده وضع زناره الجميل الذي يسميه الفانون قوس قزح وحلّق فوق أشجار جوز الهند الشامخة. أما ماوي الأريب فقد حرص على أن يطير أوطأ من جده. وقد أمسك بطرف الحزام الساطع الذي كان يتمنطق به الجد وهزه هزة كبيرة جعلت الجد المسكين يسقط إلى الأرض سقطة جعلته يموت على الفور.

وبعد أن ابتهج ماوي المحبوب بحصوله على سر النار وبقتله لجده عاد أدراجه إلى والديه اللذين نزلا كلاهما إلى العالم الأسفل وقال لهما إنه حصل على سر النار وإن لم يتلفظ بكلمة واحدة عن قتله لجده. وقد عبر له أبواه عن فرحهما بنجاحه وأفصحا له عن رغبتهما بأن يذهبا لتقديم واجبات الاحترام لتانغاروا. ولكن ماوي لم ينصحهما بالذهاب فوراً وقال لهما: «اذهبا بعد ثلاثة أيام، وسأذهب أنا في الغداة». ووافق الأبوان على ذلك.

وفي اليوم التالي ذهب ماوي إلى منزل تانغاروا حيث وجد جثة جده في حالة مزرية من التفسخ. ولكنه جمع العظام ووضعها في جوزة هند أغلق فتحتها جيداً وأخذ يهز العظام بقوة. وعندما فتح الجوزة وجد جده قد عاد إلى الحياة. فخلّص الإله من هذا السجن المقزز الذي وضعه فيه في جوزة الهند، وأنهضه ومسحه بالزيت المعطر ووضعه في منزله ليستعيد قواه.

ثم عاد ماوي إلى أبويه مانواهيفار وتونغوافار فوجدهما على عجلة من أمرهما للقيام بزيارة تانغاروا. ولكنه أقنعهما بأن يؤجلا زيارتهما إلى الغد. والحقيقة أنه كان يخشى من استياء والديه عندما يكتشفان الجريمة التي كان مسؤولاً عنها، وهكذا قرر أن يعود سراً إلى العالم العلوي (فوق سطح الأرض) بينما يقوم أبواه بتقديم احتراماتهم لتانغاروا. وفي صباح اليوم الثالث عندما قام الأبوان بزيارة الإله المبعوث من الموت تأثرا تأثراً كبيراً من مشاهدة كيف كانت هذه الذات الإلهية متعبة ومنهكة. وعندما سأل مانواهيفار أباه لم هو كذلك، أجاب الإله: «أواه. إن ابنك الرهيب أساء معاملتي. لقد قتلني ثم جمع عظامي ووضعها في جوزة هند فارغة، ثم قام بعد ذلك بإعادتي إلى الحياة ولكن محطماً مجروحاً كما تريان. واأسفاه! أي ابن قاس ذلك الذي تقتنيان». ولدى سماع الأبوين لهذه القصة المحزنة انسكبت دموعهما وعادا بسرعة إلى منزلهما القديم في العالم السفلي منتظرين هناك أن يجدا ابنهما الخسيس فيوبخاه بكل قسوة على فعلته. ولكن ماوي لم يكن في المنزل، إذ هرب إلى العالم العلوي حيث وجد أخويه وأخته منهمكين بالبكاء عليه لاعتقادهم بأنهم لن يروه أبداً. عند ذلك روى لهم قصة اكتشافه الكبير وكيف أنه عرف سر الحصول على النار.

أما في جزر مركيز فإنهم يروون الأسطورة على النحو التالي:

كانت ماهويك أو ماويك إلهة النار والهزات الأرضية والبراكين تسكن في هافيكي، أي العالم السفلي. وكان لها بنت واحدة متزوجة تعيش على الأرض هي جدة ماوي. وكان ماوي يعيش في كنف أبيه وأمه على لسان جبلي ممتد في البحر من إحدى الجزر. وكان يفكر بحرمانه من النار بعد أن

مل من أكل طعامه نيئاً، كما أن غياب والديه أثناء الليل كان يشغل فكره لقناعته بأنهما كانا يذهبان للحصول على النار بعد أن رآهما يأكلان طعامهما مطبوخاً بصورة دائمة. وفي إحدى المرات قالت له أمه: «إبق هنا يا ولدي وسأعود بعد قليل. فقال الولد: «إنني راغب في أن أذهب معك» فأجابت الأم :«أنت لا تستطيع ذلك يا عزيزي فأنا ذاهبة للحصول على النار، وستقتلك جدتك إذا تبعتني».

ومع ذلك فإن الولد، عندما ذهبت أمه، تبعها من بعيد. وبالقرب من مدخل الممر الذي يقود إلى هافيكي (العالم السفلي) أوقف الأم طائر كان يتسلق إحدى أشجار الكاكو*. فاعتقدت أنه طائر الباتيوتيو (وهو طائر محرم TABOU في جزر مركيز في الوقت الحاضر)، فاستدعت زوجها وقاما يرميانه بالحجارة ولكنهما لم يتمكنا من إصابته. عند ذلك اعتقدت الزوجة أن أمها ربما كانت مختبئة في هذا الطير. ولكن زوجها استبعد هذا الاحتمال واستمر الاثنان يرميان الطير بالحجارة حتى أصابته واحدة منها، فخرج من الطير صوت ينبئهما بأن ولدهما ماوي هو من كان داخل الطير. عند ذلك قرر الوالدان أن يذهبا إلى هافيكي باتباع طريق طويل وكثير التعاريج. ولكن ماوي تمكن مع ذلك من الوصول إلى الفتحة التي يبدأ بها طريق العالم السفلي، وما كاد يخطو فيها الخطوة الأولى حتى رأى جدته التي كانت تحرس المدخل. فرجاها أن تدعه يمر، وعندما رفضت رجاءه قتلها على الفور. وفي اللحظة ذاتها تساقطت بضع قطرات من الدم على صدر والدة ماوي فصاحت بزوجها: «لابد أن أحداً قد قتل أمي». وفي أثناء ذلك لم يعد أمام ماوي أي عائق يمنعه من المرور فنزل في تجاويف الأرض. وما كاد يفعل حتى التقى بأمه التي كانت عائدة من هناك. وعندما رأته سألته: «ماذا فعلت؟ هل قتلت أمي؟». وكان ماوي صريحاً فقال: «بلى! إنها لم تشأ

* هي الشجرة الوحيدة التي لا تشتعل بالحك في نوكوهيفا (كبرى جزر مركيز).

أن تسمح لي بالمرور، وكنت أريد النار وسأحصل عليها». فقال له أبوه: «لا تقتل ولا تجرح الإلهة العجوز»*. فوعد ماوي بألا يفعل ذلك.

ثم ذهب ماوي إلى مسكن ماويك إلهة النار وقال لها: «أعطني ناراً» فسألته: «ولم تريد النار؟» فأجاب: «أريدها لأطهو عليها ثمرة شجرة الخبز». فطلبت منه أن يأتيها ببعض قطع من قشر جوزة الهند ووضعت له فيها ناراً سحبتها من أحد أصابع قدميها. وكان يوجد في الواقع أنواع عديدة من النار، بعضها يُسحب من الرُّكب وبعضها من السرة وهكذا. وكان أسوؤها تلك التي تسحب من القدمين أو الساقين، بينما النار المقدسة هي تلك التي تسحب من الرأس. فلما تلقى ماوي النار التي سحبتها الإلهة من أصبع رجلها أخذها، ولكنه ما لبث أن أطفأها في الماء وعاد إلى الإلهة يطلب النار مرة اخرى. فسألته الإلهة: «أيها الولد المتعب، أيها الولد الضال، ماذا فعلت بالنار؟». فأجاب ماوي: «لقد سقطت في الماء وأصابني مكروه». ثم تلقى ناراً سحبتها الإلهة من ظهرها، ولكنه أطفأها كما فعل بالأولى. وأخيراً أعطته الإلهة شظيات من جوز الهند أشعلتها بنار سحبتها من سرتها فأطفأها هي الأخرى كما فعل في المرتين السابقتين. عند ذلك غضبت الإلهة غضباً شديداً واتخذ وجهها هيأة مرعبة ولكن الفتىَ لم يصفر له وجه ولم يرتعش له جفن وقال للإلهة: «إنني أعرف كل أسرار السحر ولا يهمني شيء مما تملكينه من قوى سحرية». ثم أخذ حجراً حاداً وقطع لها رأسها. وعاد ماوي بعد ذلك إلى والديه وأخبرهما بما فعل، فغضبا كثيراً وانخرطا في البكاء حزناً على قريبتهما الشهيرة. ثم أخذ ماوي النار التي كان قد تلقاها دون أن يعرف خصائصها، فحاول أولاً أن يشعل بها الحجارة ثم الماء، إلى آخر الأشياء حتى وصل إلى الأشجار. فأشعل شجرة الفاو (هيبيسكوس) والفيفاو (خشب القطن) والكيكاي والأوْكيا وكل الأشجار الأخرى عدا الكاكو الذي حط عليه عندما اتخذ شكل الطائر في بداية الحكاية.

---

* من الواضح ان الإلهة العجوز أو إلهة النار هي أم جدته التي قتلها ـ المترجم ـ.

إلا أن لهـذه الحكـاية نصـاً آخـر أكثر اختصاراً وسابقاً على النص المتقدم أتانا به من جزر ماركيز الفرنسي ماكس راديغي الذي استقر هناك بعض الوقت عندما استولت فرنسا على هذه الجزر في عام ١٨٤٢، وإليه نحن مدينـون بوصف ثمين للوطنيين من سكـان هذه الجزر كما كانوا في العصـر الـذي لم يكن التأثير الأوروبي فيه قد أفسد ثقافتهم. فهو عندما يتحـدث عن الـروايات الشفهية التي كان يتنـاقلها هؤلاء الوطنيون يقول: «أصل النار مثير للفضول، فعندماعُيِّن ماهوييك (الهزة الأرضية) حارساً للنار في العالم السفلي قام بمهمته خير قيام. أما ماوي الذي كان قد سمع بفائدة النار فقد نزل إلى العالم السفلي ليسرق شيئاً منها. ولما كان غير قادر على أن يستغفل نباهة حارس النار فقد لجأ إلى كرمه. ولكن ماهوييك صمّ أذنيه أمام رجائه حتى اضطر ماوي لأن يتحداه. ونشبت معركة بين الاثنين انتصر فيها ماوي الذي انتزع من خصمه ساقاً وذراعاً. فلما أصبح ماهوييك السيء الحظ عاجزاً إلى هذا الحد بدا ـ من أجل أن ينقذ ما تبقى له مِن أعضاء ـ متفهمفـا ومستعـداً لتقـديم النـار لخصمه وهو ينوي أن يحكّها على ساق المنتصر. ولكن ماوي فهم الحيلة لحسن الحظ. ذلك لأنه إذا ما جلبت نار من هذا النوع إلى سطح الأرض فليس من طريقة لحفظها. وهكذا طلب من ماهوييك أن يتصرف بطريقة أخرى. فقرر ماهوييك أن يحك النار على رأس الفتى قائفلا له: «عد إلى المكان الذي أتيت منه وحكّ برأسك كل الأشجار عدا الكيكا فتحصل على النار من هذه الأشجار». وتقف الحكاية عند هذا الحد، ويتابع الراوية كلامه بأنه شرح كيف يحصل الوطنيون على النار بحك قطعتين من الخشب إحداهما بالأخرى.

أما في جزر هاواي أو ساندويتش فإن أسطورة أصول النار هي التالية: «كانت في قديم الزمان امرأة اسمها هينا أكياهي ولدت صبيفا بمساعدة من الإلهين كان وكانالوا. وتفسير ذلك أنها اغتسلت وهي تحمل زنار رئيس هيلو الذي كان يسمى كالانا ماهيكي. ونتيجة لذلك وضعت بيضة خرج منها ابنها ماوي، أو من أجل إعطاء اسمه كاملاً، كان يسمى ماوي كي إي كي إي

أكالاما. ولما أصبح كبيراً أرسلته أمه إلى أبيه الرئيس مع الحزام برهاناً على ما تم فاعترف به ابناً له ورباه مع بقية أبنائه الذين أتوه من نساء أخريات من سكان البلاد. وكانوا كلهم يحملون اسم ماوي، ويتمايزون فيما بينهم بأسماء ماوي موا (ماوي الأول)، وماوي الأخير وماوي واينا (ماوي المتوسط). وبينما هو ذاهب لصيد السمك مع اخوته رأى ماوي كي إي كي إي ناراً تتقد على الشاطىء. فتعجب لذلك تعجباً كبيراً لأنه لم يكن قد رأى حتى تلك الساعة نارفا إلا في بيت أمه حيث كان لديها وعاء حارق كان كل ما يلمسه تمسك به النار. وعندما ذهب ماوي ليأتي بقبس من النار التي رآها عن بعد في الجبال وجد ثمة مستعمرة لطيور الآلاي. وكان أحد هؤلاء الطيور يحمل ناراً يوزعها على رفاقه ليتمكنوا بها أن يطهوا طعامهم من الموز والقلقاس. وبعد أن حاول عبثاً أن يمسك بهؤلاء الطيور عاد إلى أمه يستمد منها النصح. وقد علم منها أن طائر الآلاي كان أول مواليدها، وأنه بعد أن عاش في التلاد الحرجية تعلم استعمال النار. وقد نصحته بأن يصنع دمية ويمسكها مجدافاً بيدها ويضعها في مقدمة القارب عندما يذهب إخوته لصيد السمك في المرة القادمة كي يعتقد الطيور أنه في القارب مع إخوته. ففعل ما نصحته به مه. وعندما ابتعد القارب بقي وحده على الشط فتمكن من أن يفاجىء الطيور الآلاي في مأواهم من جديد. وقد طاروا لرؤيته، ولكن أحد صغارهم لم يتمكن من مجاراة رفاقه في الطيران فأخذ يحوم في أسفل التل حتى تمكن ماوي من القبض عليه. فسأله عن طريقة الحصول على النار، واعترف الطير بأنهم يحصلون عليها بحك عصاتين إحداهما بالأخرى ودله على مختلف الأشجار التي يمكن الحصول منها على غابات ـ النار (أي قضبان الحك). ولكن ثبت عند التجربة أن خشب هذه الأشجار كلها غير صالح لهذه المهمة. وعندما شعر بالخيبة هدد الطائر، لفرط غضبه، بأن يقتلع منقاده إذا لم تجد التجربة مع خشب الهاو ولم يحصل منه على النار. ومن أجل أن يعاقب الطائر على ما بذله من جهد ضائع ألصق برأسه جمرة حارة كما تدل على ذلك القنزحة الحمراء التي ما تزال تعلو جبهته.

هذه الأسطورة عن أصل النار لها أيضاً موجز عند بعضَ الوطنيين من هاواي يتلخص بقولهم إن أحد الأبطال ذهب ليبحث عن النار فوجد ضالته عند الآلاي». ويصفون هذا الطائر بأن ما فوق منقاره تغطيه بقعة حمراء.

وتستخدم الأسطورة الهاوائية عن أصل النار، كما رأينا ذلك في الكثير من الأساطير الاسترالية المشابهة، فمي أنها تفسر اللون الخاص لبعض أنواع الطيور أيضاً.

ويروي الوطنيون من سكان جزيرة نوكوفيتاو أو سكان بيستر إحدى جزر إليس حكاية مختلفة تمامفا عن أصل النار. فهم يقولون إن الناس اكتشفوا النار عندما رأوا الدخان يتصاعد من غصني شجرة متصالبين كانا يحتكان أحدهما بالآخر بفعل حركة الرياح.

أما في جزيرة بيرو إحدى جزر جيلبرت فيقال: «إن امرأة عجوزاً من تانغالوا أخذت النار من السماء ووضعتها في إحدى الأشجار وقالت للرجال بأن يحصلوا عليها بفعل الحك، ومنذ ذلك الوقت أصبح عند الناس دائماً طعام مطبوخ».

نإلا أن سكان الجزر هؤلاء يروون أيضاً حكاية أجمل من ذلك بكثير عن أصل النار. فهم يقولون: «إنه كان يوجد في البدء سيدان: تاباكيا سيد تاراوا (أي الأرض) ويسكن على الأرض، وباكواسيد ماراوا (أي البحر) ويعيش في البحر.

وقد خلّف باكوا ولداً اسمه تي - إيكا. فلما كبر الغلام كان يبقى دائماً على سطح الماء للتمتع بطلوع الشمس. وعندما كان الأشعة الأولى من الشمس تنبثق من وراء الأفق كان يحاول كل يوم أن يمسك بشعاع منها في فمه ليكسره بين أسنانه. وقد حاول ذلك مرات عديدة قبل أن يتمكن في النهاية من أن ينجح في مسعاه. وهكذا أمسك بشعاع من الشمس وسبح إلى أبيه باكوا، وعندما وصل إلى مسكن أبيه جلس واضعاً إلى جانبه شعاع الشمس. ولكن والده عندما دخل المكان انذهل من حرارته وقال لابنه: «اخرج من هنا، فأنت تحترق من الحرارة والبيت يحترق حيث تجلس».

فخرج تي ـ إيكا من بيت والده وهو يحمل معه شعاع الشمس وذهب إلى مكان آخر. ولكنه كان يتسبب في هذه الحرارة في كل مكان يجلس فيه، حتى بدأ البيت يتصاعد منه الدخان، وكل من كان يجلس بالقرب منه انطوى على نفسه بتأثير هذه الحرارة التي كانت تصدر عنه.

وخاف باكوا أخيراً من أن يجف وييبس كل ما كان يملكه أو أن يُدمَّر بسبب ولده. وهكذا طرد تي ـ إيكا من هذا المكان قائلاً له: «اذهب لأنك ستكون السبب في موتنا جميعاً». وفر تي ـ إيكا من وجه والده متجهاً إلى الغرب، إلى تاراوا، حيث كان يسكن تاباكيا. وعندما وصل إلى بلاد تاباكيا نزل إلى البر مع شعاع الشمس الذي يحمله، ولكنه في كل مكان كان يذهب إليه كانت الأشجار والبيوت تنطوي على نفسها في حضوره، لأن شعاع الشمس كان يحترق احتراقاً قوياً وكانت حرارته تنفذ أيضاً في جسد تي ـ إيكا نفسه.

عند ذلك تصدى تاباكيا لتي ـ إيكا كي يطرده من بلاده ولكنه لم يتمكن. فاتخذ سلاحاً له كل ما وقع في يده من الأشجار والأغصان وأخذ يضرب بها جسد تي ـ إيكا. فضربه بخشب الأوري (غيتا رادا سبيسيوزا)، وضربه بخشب الرين (تورنفروتي أرجانيتا)، وضربه بلحاء الكاناو (كورديا سوبكورداتا)، وبالبقايا الجافة الساقطة من شجرة جوز الهند. ضرب ت ـ إيكا بكل شدة حى جعله هو وشعاع الشمس الذي يحمله قطعاً صغيرة انتثرت في جميع البلاد.

ولكن تي ـ إيكا عندما غادر أباه وطال غيابه بدأ أبوه يأسف عليه لأنه كان يحبه حباً كبيراً. فقام يسبر كل البحار ليجد ابنه ولكن دون أي نجاح. عند ذلك بدأ باستكشاف الأراضي وذهب حتى إلى الغرب إلى بلاد تاباكيا. وهناك قال لتاباكيا: «هل رأيت ولدي؟ جسده يحرق ويحمل معه شعاع الشمس». فقال تاباكيا: «لقد رأيته، فقد أتى إلى هنا وأردت طرده بالقوة لأنني كنت أخافه فلم أستطع. عندئذ ضربته بقوة هو وشعاع شمسه حتى جعلتهما قصاصات منتثرة على سطح كل البلاد». وعندما سمع باكوا ذلك

تألم ألماً مراً لأنه كان يحب ابنه. ولكن تاباكيا قال له: «استمع إلي. سأرد لك ابنك إلى الحياة». ثم أخذ عصاً من الأوري (نوع من الشجر) هي التي كان بهـا قد ضرب تي - إيكـا ضرباً مبرحاً وأخذ يحكها بعصا من الرين. فحدثت معجزة لأن العصا بدأت تبعث دخاناً، وقال باكوا: «إنها تدخّن كما كانت الأشجار تدخّن عندما كان ابني يقترب منها». ثم قام تاباكيا فجمع كومة من اللحاء الجاف للأشجار التي كان قد ضرب بها تي - إيكا وأخذ ينفخ في مكان الحك فانبعث لهيب أشعل النار. وقد دُهش باكوا من هذه المعجزة وقال: «ها أنتذا قد أعدت ابني إلى الحياة». ثم ذهب فأخذ النار وحملها معه نحو الغرب لأنها كانت حقاً ولده كما كانوا يقولون. ولكن ما كاد يدخـل معـه إلى البحر ليقوده إلى البيت حتى انطفأت النار في الماء ولم يستطع أن يأخذ ابنه معه. ولا يزال الأمر كذلك حتى الآن. أما جسد تي - إيكا، وأما شعاع الشمس اللذين جعلهما تاباكيا قطعاً صغيرة فقد استقرا إلى الأبد في قلب العصوات وبقايا الأشجار التي كان تاباكيا قد ضرب بها تي - إيكا ولم يستطيعا أن يعودا إلى البحر.».

أما في جزيرة ياب أو واب إحدى جزر كارولين فيقول الوطنيون إنه في قديم الزمان كان يوجد اليام والقلقاس ولكن ليس من نار لطهوهما. فكانوا يطهون اليام والقلقاس في حرارة الشمس بوضعهما فوق الرمال. وكان الناس يعـانـون كثيراً من ذلك، فدعوا الإله الكبير يالافاث الذي كان يعيش في السمـاء أن يساعدهم وينظر في آلامهم. فسقطت على الفور صاعقة من السماء حمراء كالجمر فأصابت إحدى أشجار الكاذيّ فكسرتها مشكلة من أوراقها - بما فيها الوسط والأطراف - قطعاً من الإبر الشائكة. ولكن إله الرعد ديسرا عَلِقَ في داخل جذع الشجرة فأخذ ينادي بصوت يستدر الشفقة طالباً تخليصه من هذا السجن البغيض. وسمعت الصوت امرأة اسمها غواريتان كانت تطهو قلقاسها في أشعة الشمس غير بعيد عن المكان، فسارعت لانقاذ الإله مما هو فيه من ضيق. ولما سألها الإله عما كان يشغلها عندما سمعت صوتـه أخبرته بأمرها، فأمرها بأن تحضر الكثير من الغضار الطري وصنعه

على هيأة جفنة (وعاء مما يوضع فيه الطعام لطهوه) والمرأة تنظر إليه بفرح كبير. ثم أرسلها لتأتيه بقطع من خشب الآر (الذي يمسيه الوطنيون في بونـاب: توبوك)، فوضعها تحت إبطيه وأعطاها شرارات من ناره المختبئة هناك. وهكذا عُرف فن صناعة الأوعية الفخارية من الغضار وتعلمها أوائل السكان في جزيرة ياب.

وإليكم نصاً آخر أتى به إلينا من جزيرة ياب مكتشف آخر فيه بعض التلوينات عن النص السابق: «في ماضي الزمان لم يكن ثمة في ياب لا نار ولا فخار. وكانت توجد في قرية ديناي القريبة من جيتام ـ وهي قرية للعبيد لم يعد لها وجود ـ، كان يوجد في هذه القرية امرأة اسمها دينيمان كان لها ولدان صبيان. وفي أحد الأيام ذهبت هي وولداها يبحثون عن القلقاس في الحقل. وبعد أن هيّؤوه وقطّعوه وضعوا القطع في الشمس كي تجف. فأتى الرعد على هيأة كلب وسقط على شجرة الكاذيّ PANDANUS وقال للمرأة: «هيا تعـالي ساعـديني» لأنه كان يخاف أشواك الكاذيّ. فأجابت المرأة: «كـلا، إنني خائفـة». فقـال الـرعـد: «أرجـوك أن تتقـدمي». فذهبت لمسـاعـدتـه. وعنـدمـا رأى القلقـاس قال لها: «ما هذا؟»، قالت: «هو غذائي». فطلب منها قطعتين وضعهما برهة تحت إبطيه وأرجعهما لها فلما أكلتهما وجدتهما مطهوتين وذاتي طعم لذيذ.

عند ذلك قال الرعد: «إيتيني بغصن من الآر»، فقدمته له فنزع عنه لحـاءه ووضـع العصا تحت إبطيه وجعلها تمر بلطف من خلاله، فأصبح الخشب ناشفاً تماماً. ثم قطع العصا بعد ذلك من منتصفها فجعـل أحـد نصفيها مدبباً وصنع ثقباً في نصفها الثاني فأصبحت غابة النار جاهزة. عند ذلك أشعل النار بإدارة الرأس المدبب من العصا الأولى في الثلم من العصا الثانية وشوى عليها القلقاس. ثم دخلت المرأة وولداها بعد ذلك إلى المنزل وناموا. وفي الصباح التالي عادوا إلى الحقل ليعملوا ورافقهم الرعد. فقال للمرأة: «إيتيني بشيء من الغضار لا حجارة فيه». ثم أخذ الغضار وأرى المرأة كيف يصنع وعاء من طين. ثم صنع ناراً كبيرة وشوى الاناء عليها.

وعلَّم المرأة أخيراً تعويذة (ماتساماتو) تلقيها على الوعاء فتجعله متيناً إذا دفع فيه الشاري ثمناً جيداً أو تجعله سهل الانكسار إذا فاصل المشتري في السعر. ثم أخذ الكثير من اللاك ومن المال (أنواع من النباتات) وطهاها فكانت صالحة للأكل. وعادت المرأة وولداها وناموا مرة أخرى. وفي الصباح التالي كان الرعد قد اختفى. ولكن المرأة صارت تطهو طعامها في الليل كي لا يرى أحد ماذا تفعل.

ومع ذلك فقد أتاها رجل ليسألها لماذا يختلف طعامه عن طعامها وطلب منها تفسير ذلك. وأتى كثيرون غيره يطلبون منها المعلومات، إلا أن المرأة حافظت على سرها. عند ذلك اتفق الناس على مراقبتها ليل نهار. وفي إحدى الليالي عندما رأوا توهج النار اخترقوا الجدار وقاموا بنهب المنزل. وأمسك رجل بالنار فاحترق لأنه لم يكن يعرف تأثيرها. فأتى الناس ساعتئذ بخشب فأشعلوه وحملوا النار إلى البيوت الأخرى، ثم طلبوا من المرأة بعد ذلك أن تصنع لهم آنية من الفخار ووعدوها بمكافأة كبيرة في مقابل ذلك. ولكنهم لم يدفعوا لها ثمن النار.

وثمة نص آخر لهذه الحكاية يقول إن الصاعقة التي أتت بالنار إلى ياب للمرة الأولى ضربت شجرة كبيرة من أشجار الهيبيسكوس (الخبيزة) في أوغاتام، وهي قرية العبيد في أقصى الشمال من الجزيرة. فتوسلت امرأة إلى إله الصاعقة، واسمه في هذا النص ديرًا، أن يعطيها ناراً ففعل وأراها كيف تشوي عليها وعاءً من الطين. وعندما انطفأت النار علمها كيف تحصل عليها عن طريق غابة النار، أي عن طريق حك حد من عصا في تجويف من عصا ثانية. كما قال لها إن النار يمكن الحصول عليها دائماً بهذه الطريقة في أي بيت جديد، وأن من الواجب أن يستعمل حصراً لهذه الغاية خشب الهيبيسكوس، وأن هذا الخشب يجب أن يقطع بالأصداف أو بفؤوس منها ولا يجب أن يمسه حديد ولا فولاذ.

وقد روى مبشر إسباني من مطلع القرن الثامن عشر هذه الأسطورة بشكل مختزل ربما كان غير دقيق. وبموجب نصه أن سكان جزر كارولين

كانوا يضعون موروغوروغ في مصاف الأرواح الشريرة. فلما طُرد من السماء بسبب تصرفاته الفظة أتى معه إلى الأرض بالنار التي كانت مجهولة فيها من قبل.

٧ ـ أصل النار في أندونيسيا

يقـول التـوراديـاس سكـان المنطقة الوسطى من جزيرة سيليبس إن الخالق صنع أول رجل وأول امرأة بأن نحتهما من الحجر على هيأة تمثالين بشـريين ثم نفـخ فيهمـا الهواء فاكتسبا صورة الإنسان ودبت فيهما الحياة وترددت فيهما الأنفاس. وقد منحهما الخالق النار أيضاً، ولكنه لم يعلمهما كيف يصنعانها. وهكذا كان الناس البدائيون في ذلك الزمان يُعنون عناية كبرى بألا تنطفىء النار عندهم في المواقد. ومع ذلك حدث في أحد الأيام أن انطفأت النار نتيجة للاهمال، ووقع الناس في الضيق لأنهم لم يعودوا يستـطيعون طهو طعامهم من الأرز. ولكن السماء كانت يومذاك قريبة من الأرض فقرروا أن يرسلوا رسولاً إلى الآلهة ليطلبوا منها قليلاً من النار. وكان الـرسـول الـذي اختير لهذه الغاية حشرة اسمها تامبوبا. فلما وصلت إلى السماء طلبت ناراً فقال لها الآلهة: «سنعطيك ناراً، ولكن عليك أن تغلقي

عينيك لأن عليك ألا تري كيف نصنع النار». ففعلت ما طلبوه منها دون أن يعـرف الآلهة بأن لها عيناً على كل من كتفيها. وهكذا فإنها عندما رفعت ذراعيها لتخفي عيني رأسها، تمكنت بواسطة العينين الواقعتين تحت ذراعيها من أن ترى كيف كان الآلهة يصنعون النار بضرب قطعة من الصوان بسكين فتنبعث عن ذلك شرارة يشعلون بها الخشب الجاف. وقد أعطى الآلهة هذه النـار للحشـرة فحملتهـا إلى الأرض ونقلت معهـا سر إشعال النار. وهذه الطريقة في إشعال النار بواسطة قطعة من الفولاذ وأخرى من الصوان (نوع من حجـر السيليس) لا تزال حتى اليوم مستعملة عنـد التورادياس. وهم يجدون الصوان في بعض مجاري الماء وفي الجبال.

أما التوراديا من سكان بانا وماماسا وباروبو الذين يسكنون أيضاً أواسط سليبس فيروون القصة ذاتها مع تفصيلات ليست بذات شأن. فالحشرة التي كشفت للبشرية سر إيقاد النار تسمى في قصتهم دالي، ويبدو أنها نوع من النُعرة*. وقد أرسلت هذه الحشرة إلى بُوانغ ـ ماتُوا لتطلب منه النار. فأصدر سيد السموات أمره إلى الحشرة بأن تغطي عينيها بأصابعها لكي لا ترى الإله وهـو يصنـع النـار. فأطاعت الحشرة، ولكنها بعيونها الأخرى التي كانت تملكهـا بحسب روايتهم تحت إبطيها رأت كيف يصنع إله السموات النار بحكه قطعتين من البامبو إحداهما بالأخرى. ثم عادت الذبابة إلى الأرض بدون نار، ولكنهـا كشفت للانسـانية سر صنعهـا. أمـا التـوراديـاس في منغكانديك فيقولون إن الإنسان الأول الذي كان يسمى مولا أرسل طيراً إلى السمـاء يطلب ناراً. واسم هذا الـطير عنـد الـوطنيين دينـا، بينمـا يسميه الهـولنـديون «سـارق الأرز الصغير»، وهـو اسم استحقه تبعا لما يلي من الشرح. فمكافأة لهذه الخدمة الخطرة وعد الإنسان الأول الطير بأن يسمح له بأكل الأرز الجديد في الحقول. وبما أن الطير نجح في جلب النار من السماء فإن أحفاده يأتون في كل عام لنيل مكافأتهم فيأكلون الأرز المذكور.

---

* النُعرة: TAON ذبابة كبيرة تلسع أنثاها الإنسان والحيوان وتمتص دمهما. ـ المترجم ـ

وفي بانغالا يقول التوراداياس إن حارساً للجواميس اسمه مارادوند هو الذي كان أول من صنع النار بحكه قطعة من البامبو بقطعة أخرى. وقد فعل ذلك في جزيرة أسطورية تقع في البحر. يضاف إلى ذلك أنهم في كل بلاد التوراداياس يذكرون الحرب القائمة بين النار والماء. فهم يقولون إن النار هُزمت في هذه الحرب واضطرت إلى الفرار حتى اختبأت في شجرة بامبو وفي إحدى الحجارة. وعندما قام الإنسان الأول بونغ مولا يبحث عن النار قالت له البامبو والحجرة: «انتزعها مني». فسأل الرجل: «وكيف أستطيع أن أفعل ذلك؟». فقالت البامبو إن عليه أن يحكّها، وقالت الحجرة إن عليه أن يضربها بقطعة من فولاذ لتقدم له النار.

ويقول (دايار البحر) في جزيرة بورنيو إنه بعد الطوفان الذي انقرضت فيه كل البشرية نجت امرأة وحيدة من الهلاك. وقد وجدت كلباً مستلقياً بالقرب من نبتة متسلقة. ولما أحست بأن جذر هذه النبتة كان حاراً فكرت أنه قد يكون من الممكن الحصول منه على النار. فأخذت قطعتين من هذا الخشب وحكّتهما معاً حتى نجحت في إشعال النار. وكان هذا مبدأ غابة النار، وكانت تلك هي الطريقة التي حصل فيها الإنسان على ناره الأولى بعد الطوفان.

أما عند الموروت الذين يسكنون المناطق الجبلية الداخلية من شمال بورنيو فتوجد أسطورة تقول إن الوحيدين اللذين نجوا من الطوفان كانا أخوين، فتى وفتاة، تزوجا من بعضهما واقتنيا كلباً أصبحا أهلاً له نتيجة لهذا الارتباط. وفي أحد الأيام قاد الفتى كلبه للصيد وتوقفا عند جذور شجرة من الكيليان فجلب الكلب معه إلى المسكن قطعة من هذا الجذر فوضعها على الأرض وتركها تجف. ثم قال بعد ذلك للفتى بأن يجعل ثقباً في وسط الجذر وأن يدخل فيه عصاً ويديرها بشدة بين يديه. وعندما فعل ذلك طارت من الاحتكاك شرارات كانت أصل النار. ثم وُلد لهذين الشابين بعد فترة صبي وبنت، فأعطياهما قطعة من جذر الكيليان وأرسلاهما إلى بلد آخر، واستمرا يفعلان ذلك حتى عمرت الأرض بالناس وعرفوا صناعة النار.

إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى ملّ الشابان من هذه الطريقة البدائية للحصول على النار فقاد الفتى كلبه للصيد من جديد. فوجدا شجرة من البولور (شجرة تشبه شجرة القطن) وعوى الكلب عندما اقتربا منها حتى قاما بقطعها. فقال الكلب للفتى بأن يأخذ المادة القطنية من ثمرتها (لولوب). ثم عوى الكلب على شجرة بامبو فأخذا قطعة منها. وعوى الكلب بعد ذلك على صخرة فأخذا قطعة منها. ثم قاما بتجفيف اللولوب (المادة القَطنية) وأخذا يحكان البامبو بقطعة الحجر فاكتسب الموروت بذلك معرفة طريقة جديدة أكثر حداثة في إشعال النار.

أما الكياودوسون في شمال بورنيو فهم يقولون إن احتكاك غصنين من البامبو وهما في طريقهما إلى النمو أحدهما بالآخر يجعلهما يشتعلان. وفي أحد الأيام مر كلب فرأى هذه الحادثة فأمسك بواحدة من القطعتين المشتعلتين وأخذها إلى بيت سيده فما لبث أن أحرقته النار. وكان يوجد فيه سنابل من الذرة اشتعلت فأنضجت بعضاً من البطاطا تركت في البيت حتى تخضلّ. وهكذا تعلم الدوسون ليس فقط أن يشعلوا النار وإنما أن يطهوا طعامهم عليها أيضاً.

ويقول سكان نياس، وهي جزيرة إلى الغرب من سوماطرا، إن بعض الأرواح الماكرة المسماة بيلا والتي يفترضون أنها كانت بشراً في الأصل، كان من عادتها فيما مضى ان تعقد صلات ودية مع بني الإنسان، كما أنها كانت قديماً مرئية من أعين الجميع. وكان البيلا والناس يزور بعضهم بعضاً ويستعيرون النار من بعضهم أيضاً كما يفعل سكان نياس حتى الآن. إلا أن البيلا هم الذين كانوا يعرفون وحدهم طريقة صنع النار ويخفون هذا السر عن الجنس البشري. وفي أحد الأيام ذهب إنسان ليأتي بنار من عند امرأة من البيلا فتصادف أن نارها كانت مطفأة. ومن أجل أن تمنعه من مشاهدتها وهي تصنع النار اقترحت عليه أن تغطيه بثوب. ولكنه قال لها: «إنني أستطيع أن أرى من خلال الثوب، فضعي عليه سلة أيضاً»، ذلك لأن كان يعرف أنه يستطيع أن يرى من خلال السلة والثوب على السواء. فلبت طلبه وأخذت

بإشعـال النار، وحقق الرجل بُغيته لأنه رأى كيف كانت المرأة تصنع النار وضحك على ذقنها لحماقتها. أما البيلا الذين استاؤوا من هذا الفعل فقد قالوا لبني الإنسان: «لن تتمكنوا بعد الآن من رؤيتنا ولن تأتوا إلى بيوتنا أبداً».

ويروي التسورووو، وهم قبيلة من صيادي الرؤوس يسكنون المناطق الداخلية الجبلية من فورموزا كيف تعلم أجدادهم صناعة النار بعد الطوفان. فقد التجأ الناجون إلى قمة جبل، فلما غيض الماء لم يكن لديهم نار لأن انسحابهم السريع أمام الموج العاتي لم يترك لهم الوقت لأن يصطحبوا ناراً معهم. وقد قاسوا من البرد الشديد ردحاً من الزمان حتى رأى أحدهم قبساً يشبه وميض نجمة فوق جبل مجاور. عند ذلك قال الناس: «من الذي يريد أن يذهب فيأتي لنا بنار؟». فتقدم تيس وقال: «سأذهب أنا إلى هناك وآتيكم بالنار». وما أن قال ذلك حتى غطس في الأمواج وسبح مباشرة نحو الجبل يقوده وميض النجم الذي تسببه النار فوق القمة. وانتظر الناس عودته في قلق كبير. وبعد مضي بعض الوقت انفرج الظلام عنه وهو يسبح مع حبل متوهج ربطه في قرنيه. إلا أنه كلما اقترب من الشط كلما انحدر الحبل عن قرنيه وكلما أصبحت سباحته أكثر ضعفاً حتى انتهى به الأمر لأن ينكّس رأسه فغمره الماء وانطفأت النار. وعلى أثر ذلك استنهض الناس همة التاورون* ليقـوم بالمهمـة نفسها فنجح فيها وأوصل النار إلى الأرض اليابسة، ففرح الناس فرحاً كبيراً بنجاحه وأحاطوا به يداعبونه ويمسحون على ظهره، ولذلك ما زال هذا الحيوان يتمتع بجلد لامع وحجم صغير.

كذلك يروي الوطنيون في جزر أندامان حكاية عن الصعوبات التي عاناها أجدادهم ليكشفوا استعمال النار من جديد بعد أن أطفأ الطوفان كل النيران على وجه الأرض، أو على الأقل فوق أراضي جزر أندامان. وكان الجبل الوحيد الذي بقي مرتفعاً فوق الماء هو «قمة السرج» حيث كان يقيم

* لم يذكر المؤلف نوع هذا الحيوان ولا أوصافه. - المترجم -

الإله الخالق بيلوغا شخصياً هناك. ولم يكن الناس يعرفون كيف يتلافون فقدان النار حتى أشفق عليهم روح أحد أصدقائهم الذي كان قد قضى في الطوفان فاتخذ شكل مازور* وطار إلى السماء حيث وجد الإله الخالق جالساً بالقرب من النار. فأمسك الطير بقطعة من الخشب الملتهب في منقاره فلم يتمكن من حملها إما بسبب حرارتها أو بسبب وزنها أو للسببين معاً فتركها تسقط فوق الإله. وقد غضبت الخالق غضباً شديداً من هذا التجاوز بعد أن أصابته حروق قاسية فرمى بالجمرة على الطائر فأخطأته ووقعت لحسن الحظ بالقرب من المكان الذي كان فيه الناجون من الطوفان يندبون حظهم العاثر. وعلى هذه الطريقة استعادت البشرية استعمال النار بعد الطوفان.

وقد حمل لنا هذه الأسطورة الأندمانية السيد ي. هـ. مان الذي سكن هذه الجــزر ما بين عامي ١٨٦٩ ـ ١٨٨٠ وكــان على صلة حميمـة مع الوطنيين. كما التقط هذه الأسطورة مع بعض التغيير الأستاذ أ. ر. براون الذي أقام في جزر أندامان بين عامي ١٩٠٦ ـ ١٩٠٨. والنص الذي نقله لنا عن قبيلة آـ بو سيكوار هو التالي:

عنـدمـا كان الأجداد يسكنون في ووتا ـ إيمي كان بيليك (المناظر لبيلوغا في نص السيدمان) يعيش في تول ـ لوكورتيما على الضفة الأخرى من المضيق، وفي هذا الزمان لم يكن لدى الجدود نار. فأخذ بيليك بعض الخشب من شجرة اسمها بيرات فكسره وصنع منه ناراً لنفسه. وقد وصل طائر المازور (لوراتوث) إلى تول ـ لوكو ـ تيما بينما كان بيليك نائماً وسرق النار. وعندما استيقظ بيليك رأى الطير، فأخذ جمرة ملتهبة ورمى المازور فأصابته خلف عنقه وأحرقته، ولكن المازور تمكن من إيصال النار إلى سكان ووتا ـ إيمي. وقـد غضب بيليك غضبـاً شديداً فغادر الأرض وذهب ليعيش في السماء. ومازور هذه القصة له بقعة حمراء في ريش عنقه نتيجة لاحتراقه بالجمرة التي ألقاها بيليك عليه.

---

* طائر من الجوارح. ـ المترجم ـ

وفي بعض نصوص الأسطورة الأندمانية كانت الحمامة رفيقة للمازور في رحلته أو أنها حلت محله في حملها النار إلى بني الإنسان. وبموجب ترجمة حرة بعيدة عن الحرفية فإن «السيدة قريدس هي التي انتجت النار الأولى أو هي التي كانت أول من حصل عليها. وذلك أن بعض أوراق من البام كانت قد جفت وتصلبت بسبب حرارة الطقس فأمسكت بها النار. عند ذلك قامت القريدس بإشعال نار من الخشب القابل للاحتراق وذهبت لتنام. ثم أتى المازور فسرق النار وهرب بها ثم أوقدها وشوى عليها بعض الأسماك. وبعد أن ملأ بطنه نام. وأتت الحمامة فسرقت النار من المازور وهربت بها. وهذا ما يتضمن أن الحمامة هي التي أعطت النار لجدود الأندمانيين.

وإليك نصاً آخر لهذه الأسطورة الأندمانية يشترك فيها المازور والحمامة بهذا الدور:

لم يكن لدى الأجداد نار، بينما كانت بيليكا (المساوية لبيلوغا) تملك ناراً في بيتها (وهي في هذه الرواية أنثى). فأتى المازور وسرق منها النار وهي نائمة. ولما استيقظت رأته يمضي مع نارها فرشقته بقوقعة محارة من محار اللؤلؤ قطعت له الجناحين والذيل. فسقط المازور في الماء وسبح بالنار حتى بيت ـ را ـ كودو وأعطاها لتيب الذي أعطاها للحمامة ذات الجناحين البرونزيين وهي التي أعطتها بدورها للآخرين.

وفي نص آخر لهذه الأسطورة تكون الحمامة وحدها جالبة النار ولا يظهر فيه المازور أبداً. والقصة هي التالية:

كانت بيليكو تملك حجراً أحمر وقوقعة محارة لؤلؤية. وكانت تضرب إحداها بالأخرى فيصبح لديها نار بالقدْح. ثم تجمع خشباً قابلاً للاحتراق وتشعل فيه النار. وفي أحد الأيام ذهبت لتنام فأتت الحمامة ذات الجناحين البرونزيين (ميت) وسرقت منها النار ثم أعطتها إلى كل سكان القرية، ومن هناك توزعت إلى بقية الأماكن حيث أصبح لكل قرية نارها.

ويروي لنا السيد م. ف. بورتمان نصاً آخر لهذه الأسطورة تقوم فيه الحمامة وحدها بسرقة النار، وإليك هو:

«سرق السيد ذكر الحمام جذوة من النار من كورو ـ تون ـ ميكا بينما كان الإله يغط في النوم وأعطاها إلى ليش الذي أشعل النيران في كارات ـ تاتاك ـ إيمي».

وفي نص آخر للأسطورة الأندمانية يقال إن المازور (تيريتمو) أوقد أول نار بضربه قطعة فاسدة من خشب بيري بحجر. وعندما حصل على النار بهذه الطريقة أعطاها لنوع آخر من المازور يسمى البلشون (أو مالك الحزين) «توتيمو» الذي أعطاها للآخرين.

ويُستخدم نص آخر لهذه الأسطورة الأندمانية عن أصل النار في تفسير الألوان البراقة لبعض أنواع الأسماك. فيقال إن الناس في الماضي لم يكونوا يملكون ناراً. فذهب ديم ـ دوري (نوع من السمك) يبحث لهم عنها في بلاد أرواح الغائبين، ثم عاد وألقى بالنار إلى بني الإنسان فأحرقهم وترك فيهم علامات. وقد فر هؤلاء الناس إلى البحر وتحولوا إلى أسماك. وحاول ديم ـ دوري أن يسحبهم بواسطة قوسه وسهامه ولكنه تحول هو أيضاً إلى سمكة تحمل هذا الاسم.

٨ ـ أصل النار في آسيا

يقـول الميـنري البدائيون، وهـم إحدى قبائل السيمانغ الأقزام التي تسكن غابات شبه جزيرة ملقا الكثيفة، إنهم تلقوا النار من النقار الأخضر. وقصتهم هي التالية:

عنـدما أصبح المينري على اتصال بالماليزيين وجدوا عندهم زهرة حمراء (غانتوغن: وفي الماليزية غانتانغ) يتجمعون حولها ويمدون أذرعهم فوقهـا ليتـدفؤوا. وأخيراً أشعـل الماليزيون ناراً وألهبت اللالانغ (نوع من العشب)، فهرب المينري في الغابة أمام الحريق لأنهم لم يكونوا يملكون ناراً. وقدم وعل إلى الحريق الكبير وأخذ منه جذوة إلى بيته. وخوفاً من أن يسرقوا له ناره علّق الجذوة في أعلى كوخه بينما ذهب ليعمل في زراعته. وأبصر نقار الخشب بالنار فسرقها وأخذها للمينري شارحاً لهم أن هذه هي النـار، وأنـذرهم في الـوقت نفســه أن يأخذوا احتياطاتهم لأن الوعل كان

يتبعهم. ونصحهم، إذا ما أتى الوعل ليأخذ ماله المسروق، بأن يأخذوا حربتين من التيرا ويغرسوهما فيه. فلما قدم الوعل يطالب بناره أمسك رجلان بحربتين وغرساهما في رأس الحيوان. فعاد بسرعة إلى الغابة. ومنذ ذلك الوقت أصبح للوعل قرنان ولكن لم يعد لديه نار. وقد طلب نقار الخشب من المينري أن يحلفوا بألا يقتلوه لأنه هو الذي قدم لهم النار ليتدفؤا عليها ويطهوا عليها طعامهم، ومنذ ذلك الوقت لم يعد يستطيع أحد أن يتعرض لنقار الخشب بالقتل.

وفي نصوص أخرى من هذه الأسطورة يعزو السيمانغ سرقة النار أو اكتشافها ليس إلى نقار الخشب وإنما إلى قرد شجرة جوز الهند (بيروك). فبحسب واحدة من هذه الحكايات سرق قرد جوز الهند جذوة من كاري الكائن الأعلى الذي يعيش في السماوات العليا ويطلق قصف الرعد. وقد أشعل القرد بهذه النار عشب السافان فما لبث أن شب حريق كبير هرب السكان أمامه، وكان من بينهم ماليزيو اليوم الذين فروا إلى النهر فامتطوا قواربهم وأشرعوا أشرعتهم نازلين مع التيار. وهرب آخرون إلى الجبال والغابات، ولكن النار ما لبثت أن أدركتهم بسبب تأخرهم وأحرقت شعورهم، وهؤلاء هم جدود الأقزام الذين يسكنون شبه جزيرة ملقا تحت اسم الأورانغ - أوتان ويحملون شعوراً مجعدة لأن النار أحرقتها أثناء الفرار.

وفي نص آخر من هذه الأسطورة السيمانغية حصل قرد جوز الهند (البيروك) على النار بطريقة أقل استحقاقاً للذم من طريقة الاختلاس. فيقال إن امرأته عندما كانت تعاني آلام المخاض أراد القرد أن يقدم لها ثمرة من جوز الهند، فأخذها وفتحها عن طريق الكسر. وعندما فعل ذلك اندلعت النار من الجوزة فأشعل بها حريقاً كبيراً هو الذي أصبح للسيمانغ بسببه هذه الشعور المجعدة.

وبموجب حكاية أخرى للسيمانغ أن النار قد اكتشفت على يد بطل اسمه شيامب عندما كان يقطع بعض الراتان ليصنع منه منشاراً.

أما عند الثاي أو التاي اللذين يسكنون سيام (تايلاند = بلاد التاي) فتوجد أسطورة تقول إن طوفاناً قضى على كل بني الإنسان إلا فتى وفتاة تمكنا من النجاة منه بواسطة قرعة (ثمرة الدباء). ومن زواج هذين الشابين أتى كل السكان الحاليين في العالم. ولكن بعد أن انحسرت المياه في ذلك الزمن السحيق لم يكن لدى الأبناء السبعة لهذين الزوجين الأولين نار. فقرروا أن يرسلوا من بينهم مبعوثاً إلى السماء ليأتي لهم بنار. فأعطت روح السماء ناراً لمبعوثهم ما لبثت أن انطفأت عند حاجز القصر السماوي. فعاد الرسول إذن إلى الأرض وأخبر اخوته بفشله فعقدوا مؤتمراً تمخض عن إرسال ثعبان وبوم ليعرضا طلبهم في الحصول على النار. ولكن البوم توقف في الطريق عند أول قرية ليصطاد بعض الجرذان بينما تخلف الثعبان في بعض المستنقعات ليصطاد الضفادع. ولم يهتم أي واحد منهما بإنجاز المهمة التي أوكلت إليهما. فعقد الاخوة مؤتمراً ثانياً اتجهت فيه أنظارهم إلى النُعرة (نوع من الذباب) فقبل المهمة عن طيب خاطر بأن يذهب للبحث عن النار ولكنه وضع شروطه قبل أن يكرس نفسه لتنفيذها فقال: «في مقابل تعبي سأروي غليلي بامتصاص أفخاذ الجواميس وربلات سيقان الكبار منها والصغار». وكان الاخوة في وضع لا يستطيعون معه رفض هذه الشروط. وعندما صعد النُعرة إلى السماء قالت السماء له: «أين عيناك؟ وأين أذناك؟»، ذلك لأن التاي كانوا يعتقدون أن عيني النعرة ليستا في رأسه وإنما هما في جذر جناحيه، وأن هذه الخاصة الاستثنائية كانت تجهلها السماء. فأجاب الحشرة الماكر: «عيناي هما تماماً حيث توجد عيون الآخرين، وأذناي هما تماماً حيث توجد آذان الآخرين.» فتابعت السماء: «إذن أين تريد أن تسجن لكي لا ترى شيئاً؟». فأجاب الحشرة الماكر: «إنني أرى من خلال جوانب الاناء كما لو لم يكن لهذا الاناء أية جوانب. لذلك ضعوني في سلة فيها فجوات فلا أرى من خلالها شيئاً». فوضعته السماء الواثقة به في سلة لها فجوات وأخذت بصنع النار على الطريقة المعتادة. وكان النُعرة الغاطس في السلة يراقب بانتباه كل العملية التي تقوم بها السماء. ولذلك

فإنه عندما انطفأت الشعلة التي حملها من السماء أثناء الطريق لم يقلق النُعرة من ذلك قط لأنه حمل معه السر الإلهي في إشعال النار.

وعند وصوله حياه الاخوة بهذا السؤال القلق: «أين النار؟ أين النار؟» فأجاب النُعرة: «انتبهوا إلي! خذوا شظية من الخشب دقيقة كساق يحمور*، ورهيفة كلحية القريدس، واصنعوا ثلماً في الخشبة وضعوا حوله بقايا دقيقة من النباتات الجافة كأنه وكر صغار الخنازير، ثم اسحبوا الحبل بشدة عليه وبسرعة إلى الأمام والخلف حتى يتصاعد الدخان إلى وجوهكم». وقد تبع الاخوة تماماً نصيحة النُعرة فما لبث أن انبثقت النار من نفثة دخان فتمكنوا بذلك من طهو طعامهم. ولا يزال الناس يحصلون على النار بهذه الطريقة ولا يزال النُعرة يروي عطشه من أفخاذ الجواميس ومن ربلات سيقان الكبار منها والصغار».

وحيلة النُعرة في هذه القصة التي لجأ إليها للنظر من خلال فجوات السلة تشبه حيلة الرجل في قصة النيا.

أما الكاشين سكان بورما فيقولون إنه في البدء لم يكن لدى بني الإنسان نار. فكانوا يأكلون طعامهم نيئاً كما كانوا هزيلين ويرتجفون من البرد. ولكن على الضفة الأخرى من نهر إيراوادي كان يعيش روحٌ (نات) اسمه وون لاواماكام وكان لديه نار تحرق كل أنواع الأخشاب خضراً كانت أم يابسة. وقال الناس لأنفسهم: «هذا ما كنا نريد». وهكذا أرسلوا كومثان كومثوي ماكام إلى وون لاواماكام ليقترض منه ناراً. فاجتاز الرسول النهر على طوف حتى وصل إلى وون لاواماكام وقال له: «أيها الأب القادر. إننا نشعر بالبرد، ونأكل طعامنا نيئاً، ونحن هزيلون جداً. فأعطنا ناراً». فأجاب الروح: «أنتم أيها الناس الآخرون لا تستطيعون أن تمتلكوا روح النار لأنه يسبب لكم الكثير من الشرور» ولكن الرسول ترافع عن قضيته قائلاً: «كن شفوقاً بنا أيها الأب القادر، فنحن نتألم كثيراً». فقال الروح: «إنني لا

---

* اليحمور: نوع من الظباء. ـ المترجم ـ

أستطيع أن أعطيكم روح النار، ولكنني سأقول لكم كيف تصنعون النار».

وهكذا عاد الرسول إلى البشر الذين أوفدوه متهللاً وأعلمهم بالخبر السعيد. فسعى الناس فوراً وراء رجل اسمه تو وامرأة اسمها ثو، فقام الاثنان معاً بحك عصوين من البامبو (الخيزران) أحداهما بالأخرى فما لبث أن انبثقت النار منهما، وتمكن الناس منذ ذلك الوقت من التدفئة وطهو الطعام.

أما الصينيون فيروون القصة التالية: «ذهب حكيم يتنزه وراء حدود القمر والشمس، فرأى شجرة عليها طير كان ينقر فتنبجس النار. فذهل الحكيم من ذلك، وأخذ غصناً من الشجرة فأخرج منه النار. وقد أطلق على هذه الشخصية الكبيرة اسم سوي - جين». ويبدو أن سوي في الصينية تعني آلة تُصنع بها النار. وميه - ساي آلة تستعمل لبعث النار من الخشب عن طريق الحك والدوران. وسوي - جين - شي هو اسم أول شخص صنع النار لاستعمال البشر. وينجم بداهة عن ذلك أن اكتشاف إيقاد النار عن طريق حك الخشب إنما يُعزى عادة لدى الصينيين إلى حكيم كان يراقب طيراً وهو يصنع النار بنقر خشب إحدى الأشجار بمنقاره.

وثمة حكاية عن أصل النار لدى إحدى القبائل التترية في سيبريا الجنوبية هي التالية: يقال إنه عندما قام كوداي الخالق بخلق الإنسان لاحظ أن «الإنسان سيكون عارياً فكيف سيستطيع العيش في البرد؟ فلابد له إذن من اكتشاف النار!». وكان هنالك رجل اسمه أولغون عنده ثلاث بنات لم يستطعن إيقاد النار ولم يكتشفن طريقة صنعها. عند ذلك تقدم كوداي. وكانت ذقنه طويلة يمشي فوقها ويتعثر. فهزئت به بنات أولغون الثلاث فأخذ منه الغضب، ولكن بنات أولغون الثلاث كن يترصدن الطريق ليستمعن إلى ما يقوله الإله. فقال: «لقد هزئت بي بنات أولغون الثلاث. وقد ضحكن كثيراً من كونهن غير قادرات على اكتشاف حد الحجر وقسوة الحديد». وعندما تعلمن ذلك أخذت بنات أولغون حد الحجر وقسوة الحديد فانبجست منهما النار أمام دهشتهن.

أما الياقوت في سيبريا الشمالية فيقولون: «لقد تم انتاج النار كما

يلي: في يوم قائظ من أيام الصيف جلس عجوز كان تائهاً في الجبل ليستريح. ولما لم يكن لديه شيء يفعله أخذ يقدح حجراً بآخر فانبجست شرارات من هذا الاصطدام وشبت النار في العشب وفي بعض من الأغصان الجافة. وامتدت النار وجرى الناس من كل الجهات ليشاهدوا هذه الأعجوبة الجديدة. وكلما امتدت وتزايدت كلما تسببت في الهلع والخوف. ولكن وابلاً من المطر ما لبث أن أطفأها لحسن الحظ، إلا أن الناس كانوا قد تعلموا صنع النار.

ويروي البوريات من سيبريا الجنوبية قصة مختلفة عن أصل النار مفادها أن الناس في البداية لم يكونوا يعرفون النار ولا يستطيعون طهو طعامهم، وكانوا أبداً جائعين ويقاسون من البرد. فأخذت البومة بهم شفقة فطارت وسرقت ناراً من أجلهم من تانغري أي السماء. ولكن السماء غضبت من هذا الطير وصوبت عليه قوسها فأخطأ السهم جسد الطائر واخترق ذنبه، ولذلك اصبح ذنب البومة منذ ذلك الوقت مقسوماً إلى نصفين. فالبومة إذن هي التي أتت بالنار إلى بني الإنسان فأصبحوا سعداء منذ ذلك الوقت ولم يعودوا يتعرضون للبومة بسوء. وللسبب نفسه يشعر الناس بالسعادة عندما تبني البومة عشها في أكواخهم.

وثمة رواية يتناقلها السيما، وهم قبيلة من الناغا في أسّام، مفادها أنه أتى حين من الدهر على الإنسان لم يكن يعرف فيه النار -وهم يعتقدون أن الناس في ذلك الزمان كان لهم شعور طويلة كالقرود من أجل أن يتفادوا لسعات البرد. ولكن السيد ج. هـ. هوتّون الذي قدم لنا عرضاً دقيقاً كاملاً عن أحوال هذه القبيلة لم يلتق قط بواحد من أبنائها تمكن أن يروي له كيف تم اكتشاف النار. إلا أن جيرانهم من الشانغ عندهم علم بذلك. فهم يقولون إن اكتشاف النار قد تم على يد امرأتين أبصرتا بنمر وهو يصنع النار بسحبه شوكة من تحت قدميه. ولا يزال السيما حتى الآن يستعملون طريقة النمر من أجل حصولهم على النار، وذلك بأن يسحبوا بسرعة إلى الأمام وإلى الخلف قطعة من البامبو (الخيزران) المرن فوق شُعب لعصاة وُضع فوقه

بعض الصوفان، ويستمرون في ذلك حتى يبدأ الصوفان بالاشتعال فينفخون عليه حتى يلتهب. ومع ذلك فإن ثمة قبيلة أخرى من الناغا تقول إن القرد لا النمر هو الذي شاهدته إحدى النساء وهو يصنع النار.

أما الآو، وهم قبيلة من الناغا تسكن في الشمال على حدود السيما، فيتبنون القصة التالية عن أصل النار. فهم يقولون إن النار والماء كانا في صراع دائم. ولم تتمكن النار من مقاومة الماء فهربت لتختبىء في شجرة الخيزران (البامبو) وفي الأحجار ولا تزال هناك حتى اليوم. إلا أنهما ما لبثا أن تقاتلا من جديد، فشحذت النار كل همتها وأصبحت ناراً متأججة (مولومي) تمكنت، كما يتحدث في ذلك العجائز الذين عاشوا قبل وصول البعثات التبشيرية إلى البلاد، تمكنت من أن تكنس أمامها كل شيء اعتباراً من ضفاف نهر براهما بوترا وأحرقت كل ما وجدته في وجهها على الأرض. إلا أن الماء هو الذي انتصر في النهاية. فقد تبع ذلك طوفان كبير غمر الأرض. ولما فرت النار أمامه لم ترها إلا الجرادة بعيونها الثابتة الكبيرة وهي تختبىء في الحجارة وفي أشجار الخيزران. وفي ذلك الزمان كان الناس كالقرود لهم شعور طويلة. ولا يزال القرود حتى اليوم لا يملكون النار، فوجب عليهم أن يتدفؤوا بفرائهم ما وجدوا إلى ذلك من سبيل. أما الإنسان فإنه ـ على العكس من ذلك ـ فقد فراءه لأنه لم يعد بحاجة إليه بعد أن حلت محله النار. وبما أن النار اختبأت في الحجارة والخيزران فإن الآو لا يزالون يصنعون النار حتى اليوم بواسطة «قِدَّةٍ نارية» من الخيزران أو بواسطة الحجر والحديد. والقِدة النارية هي نموذج الناغا المعتاد. فهم يولجون حجراً في شُعب من عصاة ناشفة مشقوقة، ويضعون على الأرض صوفاناً مصنوعاً من قراضات القطن، ثم يُقلب الشعب فوقه ويثبت تثبيتاً قوياً بالرجل، ويؤتى بقدة النار، وهي شظية من الخيزران، فتسحب بكلتا اليدين بسرعة إلى الأمام والخلف في فرضة الشعب لتحتك بالحجر الموضوع هناك، فلا تمضي دقيقة حتى تكون النار قد أمسكت بالصوفان.

في قصة الآو السابقة تجد الحرب القائمة بين النار والماء أشباهاً لها

في الأساطير التي رواها ـ كما رأينا ـ الوطنيون من سكان جاوا وجزر جيلبرت، وكذلك التوراديا سكان سيليبس، وستواجهنا أسطورة أخرى تنحو نفس هذا المنحى لدى الساكالاف والتسيميهيتي من سكان جزيرة مدغشقر.

أما اللوري من سكان بلوجستان (إحدى مقاطعات باكستان الجنوبية) الذين يعملون في صنعة الحدادة أباً عن جد فيكنون للنار احتراماً خاصاً باعتبارها هبة من الإله إلى داوود. وقد سحبها الإله من المطهر عندما سأله داوود أن يعطيه ناراً ليذيب الحديد. وهم يشعلون النار بقدح حجر الصوان بقطعة من الفولاذ.

وفي جزيرة سيلان «تنتشر قصة عن ملتهم الذباب (نوع من الطيور) ذي اللون الأزرق والأسود والذنب الذي يشبه ذنب البوم، وعن عدوه اللدود الغراب (من نوع الزاغ). وتقول هذه القصة إن ملتهم الذباب جلب النار من السماء إلى الأرض كما فعل بروميثيوس في الأسطورة اليونانية، من أجل أن يسعد الناس على الأرض. ولكن الغراب الغيور من شرف هذا الصنيع غمس جناحيه بالماء ورشه على اللهب حتى أطفأه. ومنذ ذلك الوقت يقوم عداء مميت بين هذين النوعين من الطيور».

٩ ـ أصل النار في مدغشقر

يروي الساكالافا والتسيميهيتي الذين يسكنون مقاطعة أنانا لافا في الشمال الغربي من جزيرة مدغشقر، قصة بارعة عن الظروف التي جعلت النار تختبىء في الأخشاب والأحجار. وعن الطريقة التي تمكنهم من الحصول عليها عن طريق حك الأولى وقدح الأخرى.

فهم يقولون إنه كانت توجد في البدء شعلات طبيعية ملتهبة كانت الشمس قد أرسلتها لحماية الأرض فكانت بذلك جنوداً للشمس. ولم يكن من شيء يستطيع مقاومتها فكانت فخورة بقوتها كما كانت قاسية جداً.

وكان الرعد يحكم فوق الأرض سيداً مطلق السيادة. ففي بعد كل ظهر من أيام الصيف كانت تحدث قصوف رعد شديدة. وكانت الشعلات الملتهبة تفاجأ بالضجة الخارقة التي تسمعها في السماء. فكانت تقول: «ما هذا؟. إن من يحدث مثل هذه الضوضاء لابد أن يكون شديد الاقتدار. ومع

ذلك فإننا لابد أن نرسل له سفراء ليبلغوه إعلاننا الحرب عليه». وهكذا أرسلوا سفيراً. أما الرعد الذي كان شديد الفخار بنفسه فقد غضب غضباً شديداً وأجاب: «إنني لم أتسبب حتى الآن بأي سوء. فقد أضأت برقي، وأمسكت برعدي عن طيب خاطر مني، ولكن بما أنكم أتيتم تتحدونني في سمائي التي هي ملك خالص لي فإنني أقبل التحدي. سيكون بيننا حرب، وستكون حرباً رهيبة».

وتم تعيين يوم القتال. وكانت ساحة اللقاء هضبة كبيرة على رأس أحد الجبال. واجتمعت الشعلات الملتهبة في هذا المكان في اليوم المحدد واندفعت بقوة شديدة مثيرة زوابع من الدخان الكثيف الأسود وصافرة مزمجرة فضلاً عن ذلك. واستعد الرعد أيضاً باذلاً قصارى جهده. وعلى الرغم من أن النهار كان في عزه فإن ومضات الرعد كانت مبهرة وفيها جميع ألوان قوس قزح من الأزرق إلى الأحمر إلى الأخضر والبنفسجي. وكان قصف الرعد مصماً للآذان. وقد وقع الرعد ثلاث مرات فوق الشعلات الملتهبة وشتت شملها ولكن دون أن يطفىء منها النار. وكان يبدو أنها كانت ـ على العكس من ذلك ـ تستمد قوى جديدة من هذا الاحتكاك فتعود إلى الهجوم كعمالقة عادت إليها الحياة. وفي النهاية تعب الخصمان من جهودهما التي ذهبت هباء فعقدا هدنة وانسحب كل منهما يداوي جراحه ويتدارك خسائره.

ثم عادت المعركة فاندلعت بينهما بعد أيام أكثر ضراوة مما كانت عليه من قبل. وقد تقلصت الشعلات الملتهبة وصار أمر الرعد إلى حالة يرثى لها، ولكن لم يكن ثمة لا غالب ولا مغلوب.

وكان الرعد قد أصبح الآن في الواقع في أشد حالات الغيظ. فكيف يمكنه الانتصار على أعدائه؟. عند ذلك تذكر أصدقاءه القدامى من الغيوم، فجمعها وتوجه إليها بخطاب مطول يلتمس فيه نجدتها. فوعدته المساعدة. واعتماداً على ذلك أعلن بدوره الحرب على الشعلات الملتهبة وحدد ساحة للمعركة الهضبة نفسها التي جرت عليها المعركتان السابقتان.

وفي اليوم المحدد كانت الغيوم تتقدم من أربعة أركان السماء. وكان

الـرعـد مختبئـاً وراءها ويطلق بين الفينة والفينة زمجرة تصم الآذان. وقد ارتعبت الشعـلات الملتهبة في بادىء الأمر من منظر الغيوم الغريب وهي تتقـدم على هذا الشكـل فوق رؤوسهـا، ولكنهـا كانت شجـاعة، وهكذا استجمعت شجاعتها بين يديها ومشت بجرأة إلى الهجوم. وكانت تشكل كتلة كثيفـة متمـاسكـة، والأكثـر شجاعة منها كان يعتلي أكتاف الآخرين ليتمكن من الإمساك بعدوه السماوي. أما الغيوم فما كادت تصل في السماء إلى النقطة التي تغطي الشعلات الملتهبة حتى فتحت شآبيبها وأسقطت كل الكتلة المائية التي كانت تحملها. عند ذلك أصبح على الشعلات الملتهبة أن ينقذ نفسه منها من استطاع. وكان ملكها أول من ولى الأدبار، وحذت الجيوش بطبيعـة الحال حذو قائدها. وأخذ القادة الكبار منها يبحثون عن ملجأ في ثنايا الجبال حيث مكثوا حتى الآن يختبؤون هناك على الرغم من أن بعض هذه الشعلات تخرج أحياناً من خلال الفجوات التي شقتها في قمة بعض الجبال. وهذا هو أصل البراكين. أما الجنود العاديون فقد اختبؤوا في عدد كبير من الأشياء كالخشب والحديد والحجارة القاسية. وبسبب ذلك يمكن الآن الحصول على النار بحك عصاة جافة بعصاة أخرى. كما أن من الممكن الحصـول على شرارات النار بقدح حجر من الصوان بقطعة من الفـلاوذ. ذلك ـ كما يقول الساكالاف والتسيميهيتي ـ هو أصل النار التي يصنعها الناس لاستعمالهم ولتكون في خدمتهم.



١٠ ـ أصل النار في أفريقيا

يقول البيرغداما الذين يعيشون في الجنوب الغربي من أفريقيا والذين يطلق عليهم اسم شائع آخر هو البيرغدامارا، يقولون إنه في الوقت الذي لم يكن فيه لدى البشر نار كان الطقس بارداً جداً على الأرض. فقال رجل لامرأته: «سأجتاز النهر هذه الليلة لآتي بقبس من هناك من القرية البعيدة». فنصحته امرأته بعدم الذهاب ولكنه مضى فاجتاز النهر من المخاضة ودخل إلى خص الأسد. وكان الأسد واللبوة وأولادهما متحلقين حول نار متراقصة بينما الأولاد يقضمون عظاماً بشرية.

وقد أجلس الغريب في مكان الشرف أمام الباب وخلف النار. وكان يفضل أن يكون جالساً بالقرب من المدخل حتى يستطيع الفرار بجذوة. وبينما كان الحديث دائراً تزحزح شيئاً فشيئاً بطريقة جانبية حتى أصبح جالساً بالقرب من الباب وأخذ يثبت نظره على إحدى الجذوات. وفجأة وثب على

قدميه فرمى بإحدى يديه أولاد الأسد في النار وانقض على الجذوة باليد الأخرى وفر هارباً خارج المنزل.

أما الأسد واللبوة فقد قذفا بنفسيهما وراءه ولكنهما ما لبثا ان فكرا بوجوب إنقاذ أولادهما أولاً قبل أن يتمكنا من التفرغ لملاحقته. وكانت تلك فرصة للسارق كي ينسبقهما بمسافة كبيرة، فلما وصلا إلى ضفة النهر كان هو قد أصبح على الضفة الأخرى، وقد تمنعا عن الخوض وراءه في الماء ونكصا على أعقابهما بعد أن كفا عن ملاحقته. وهكذا أخذ السارق الجذوة إلى كوخه فجمع خشباً قابلاً للاحتراق من كل نوع ثم قال وهو يشعل النار: «أيتها النار، ستكونين منذ الآن في جميع أنواع الخشب»، ومنذ تلك الليلة أصبح بنو الإنسان هم أيضاً يمتلكون النار. ويفضل البير غداما اليوم أن يشعلوا النار بالكبريت، ولكنهم عند الضرورة لا يزالون يستطيعون الحصول عليها عن طريق حك الأخشاب، وهم يستعملون لهذه الغاية (غابة النار)، ويطلقون على المثقب الخشبي اسم الذكر، وعلى القطعة المسطحة اللينة منه اسم الأنثى.

أما التونغا، وهم قبيلة تسكن الجنوب الشرقي من أفريقيا بالقرب من خليج ديلاغوا، فإنهم يطلقون اسم ليلالا هومبا على الجد الأول الذكر الأول من بني الإنسان، وهذا الاسم يعني: «ذلك الذي أتى بقبس حار في قوقعة». والقصة التي ترويها عشيرة الهلينجوي تقدم لنا تفسيراً لهذا الاسم. فهؤلاء الوطنيون يقولون إن تشاوك ملكهم الأول اتخذ زوجة له ابنة زعيم آخر من قبيلة السونو. وكان السونو يعرفون كيف يطبخون طعامهم بينما لم يكن الهلينجوي يعرفون ذلك لأنهم كانوا يجهلون استعمال النار، فكانوا يأكلون طعامهم نيئاً. ومع ذلك فقد سرق ابن الملك تشاوك جذوة من النار من لدى السونو وأتى بها في قوقعة كبيرة. فاغتاظ السونو وأعلنوا الحرب على الهلينجوي، وكان هؤلاء قد أصبحوا أكثر قوة بفضل الطعام المطبوخ الذي أكلوه فأحرزوا على خصومهم النصر. وعند ذلك أطلق على ابن تشاوك اسم «شيوكي ـ شا ـ هومبا» أي «الذي أتى بالنار في قوقعة». وهكذا نستطيع أن

نفترض تبعاً لذلك أن هذه الشعوب تعتقد بأن الجد الأول للإنسانية أتى بالنار أو سرقها في قوقعة، ولكن المرء لا يـرى إلى من أُتي بالنار ومن هو الذي سُرقت منه.

ويروي البـائيلا، وهم قبيلة من روديسيا الشمالية، كيف أن الزنبور البناء ذهب ليأتي بنار من عند الإله، والقصة هي أنه في البدء لم يكن لدى الصقر والنسر الصياد والغراب نار، ذلك لأنه لم يكن ثمة نار على الأرض. وبما أنهم كانوا بحاجة إلى النار فقد اجتمع هؤلاء الطيور وتساءلوا: «أين نذهب للبحث عن النار؟». فقال بعضهم: «ربما كانت عند الإله». وعند ذلك تقدم الزنبور البناء وقال: «من يذهب معي عند الإله؟»، فأجاب الصقر مجيباً على هذا السؤال: «سنذهب معك أنا والنسر الصياد والغراب».

وهكذا استأذنوا من بقية الطيور في اليوم التالي قائلين لهم: «سنذهب لنرى ما إذا كان بإمكاننا الحصول على نار من الإله». ثم اتخذوا سبيلهم طائرين إلى السماء. وبعد أن استمروا في طيرانهم عشرة أيام على الطريق سقطت على الأرض بضعة عظام صغيرة ـ وكانت تلك عظام الصقر ـ. ثم سقطت بعد ذلك بضعة عظام صغيرة أخرى، ـ وكان هذه المرة عظام النسر الصياد ـ، وتوجب على الزنبور والغراب أن يكملا وحدهما الطريق. وما أن انقضت عشـرة أيام أخـرى حتى سقطت عظام صغيرة أخرى كانت عظام الغراب. وتوجب على الزنبور البناء أن يكمل وحده الطريق. فلما انقضت عشرة أيام ثالثة اضطر أن يركب الغيوم وهو مستمر في المسير، ولكنه مع ذلك لم يبلغ قط ذروة السماء.

على أن الإله ما كاد يعلم ذلك حتى نزل إلى حيث يوجد الزنبور. ولما سأله عن مطلبه رد الزنبور قائلاً: «مولاي! إنني لم آت إلى مكان بالذات، وإنما أتيت فقط لأطلب ناراً. إن كل رفاقي سقطوا على الطريق، أما أنا فقد تابعت تقدمي لأنني صممت على أن أصل إلى حيث يوجد الإله». عند ذلك قال له الإله: «أيها الزنبور البناء، من اللحظة التي وصلت إلي فيها أصبحت سيد كل الطيور وكل زواحف الأرض. والآن إني أباركك، ولن تكون بحاجة

لأن تنسل أولاداً. وعندما ترغب في أن يكون لك ولد عليك أن تنظر إلى ساق نبات من القمح أو أي نوع من أنواع الحبوب فترى حشرة اسمها نغونغوا. وعندما تجدها إيت بها في البيت، وابحث عن المكان الذي يطهو فيه الناس طعامهم وابن هناك مسكناً لولدك نغونغوا. وعندما تتم البناء ضعه هناك. وبعد بضعة أيام يمكنك أن تلقي نظرة عليه وستجد أنه تغير وأصبح تماماً مثلك». وقد أصبح الأمر كذلك منذ ذلك الوقت. فالزنبور البناء يبني بيته في المواقد تماماً كما أمره الإله.

وقد كتب المؤلفون الذين التقطوا هذه القصة ما يلي تفسيراً لها: «إن الزنبور البناء بروميثوس البائيلا بأجنحته الزرق النيلية وبطنه الأصفر وساقيه السوداوين والبرتقاليتين كثير الشيوع في أفريقيا الوسطى. وهو يبني عشه الطيني ليس في المداخن فقط كما تذكر القصة وإنما أيضاً (وهذا مزعج جداً) على الجدران والكتب ولوحات البيوت. وفي هذا العش يضع بيوضه ومعها سرفة أو دودة صغيرة ويغلق عليها العش. ثم يبني أعشاشاً أخرى حتى يمتلىء الجدار بعجينة كبيرة من الطين تصبح قذى في أعين الناظرين. وعندما تفقس البيوض تأكل الحشرات التي كانت خدِرةً لم تقتلها إبرة الأم. وهذا المثال المثير للفضول يظهر لنا كيف أن ملاحظات الوطنيين تكون دقيقة إلى حد معين لا تتخطاه. ولكن بما أنهم لم يأخذوا بعين الاعتبار كل ما جرى من أعمال لأنهم لم يتمكنوا من ملاحظتها فإنهم وصلوا في النهاية إلى نتائج مخطئة لأنهم افترضوا أن النغونغوا (أي الحشرة التي أخذها الزنبور لتكون طعاماً لبيوضه) هي التي تحولت فيما بعد إلى زنبور بناء. وهذا التفسير يفهمنا لماذا صيغت الحكاية على هذا الشكل، وكيف فسرت قدوم النار التي دجنها الإنسان».

أما البالويا فهم قبيلة تحتل أراضي واسعة في حوض الكونغو الجنوبي. وهم يصنعون نارهم على طريقة (غابة النار)، ويقولون إن الروح العظمى كابيزيا ميونغو هو الذي خلق الإنسان الأول الذي يطلقون عليه اسم

كيومبا. وقد وضع في شعره كل بذور النباتات الصالحة للأكل، كما وضع في يديه خشباً وصوفاناً وعلمه كيف يصنع منهما النار ليطهو عليها الطعام.

وتوجد لدى الباكوبا أو البوشونغو ـ وهم قبيلة، أو بالأحرى أمة، تمتد منطقة سكناها في الجزء الجنوبي من وادي الكونغو بين نهري سانكورد وكاساي ـ، توجد لدى هؤلاء القوم حكاية تقول إن أجدادهم حصلوا على النار عن طريق حرائق تسببت في إيقادها صاعقة، ولكنهم لم يكونوا يعرفون صنعها بأنفسهم. وكان يعيش في عهد أحد ملوكهم، واسمه موشو موشانغا، رجل اسمه كيري كيري اكتسب فن صناعة النار. وتفسير ذلك أن بومبا (وهو الاسم الذي يعبر به البوشو نغو عن الإله) ظهر ذات ليلة لكيري كيري في الحلم وطلب منه أن يمشي في طريق حدده له وأن يكسر أغصان شجرة معينة ويحتفظ بها بكل عناية. فانصاع الرجل للأمر. وعندما جفت الأغصان تراءى له بومبا في أحلامه من جديد وهنأه على طاعته وعلمه كيف يصنع النار عن طريق الحك. ولكن كيري كيري احتفظ بهذا السر لنفسه. فلما كانت كل نيران القرية تنطفىء مصادفة كان كيري كيري يبيع ناره بأسعار مرتفعة إلى جيرانه. وقد حاول كل الناس، العاقلين منهم والمجانين، أن يحصلوا منه على السر فلم يتمكنوا. وكان للملك موشو شانغا ابنة جميلة جداً اسمها كاتينجي، فقال لها: «إذا تمكنت من كشف سر هذا الرجل فإنك ستكرمين وستحتلين بين القدماء مكانة الرجال». وهكذا أخذت الأميرة الجميلة ترمي شباكها حول كيري كيري حتى شغف بها حباً. ولما لاحظت ذلك أمرت بأن تطفأ كل نيران القرية وأرسلت عبدها يقول لكيري كيري بأن ينتظر ها هذه الليلة في كوخه. وعندما نامت أعين الناس تسللت الأميرة بكل هدوء نحو كوخ كيري كيري ودقت بابه. وكانت الليلة حالكة السواد. وفتح لها كيري كيري فجلست لدى دخولها ولزمت الصمت لا تنبس ببنت شفة. فسألها العاشق: «لماذا أنت صامتة إلى هذا الحد؟ فأنت إذن لا تحبينني». فأجابته: «كيف يمكنني أن أفكر بالحب وأنا أرتجف في بيتك؟. هيا واجلب لنا ناراً أتمكن من رؤيتك وليدفأ قلبي). فأسرع كيري كيري راكضاً ليستعير

ناراً من الجيران فوجد نيرانهم مطفأة تلبية لأوامر الأميرة، واضطر كيري كيري أن يعود إلى بيته بدون نار. وذهبت كل توسلاته لها عبثاً بأن تنصاع لهواه، وأصرت بأن يشعل لها النار قبل كل شيء. وقد خضع أخيراً أمام هذا الإصرار فأتى بغابة النار وأشعل بها النار أمام الأميرة المحبوبة بينما كانت هي تراقبه بكل انتباه. وأخيراً ضحكت وقالت له: «أتظن أنني أنا، ابنة الملكة، كنت أحبك لشخصك؟. إنه سرك ما كنت أريد أن اكتشف. والآن وقد اشتعلت نارك تستطيع ان تعتمد على امرأة من العبيد لاطفائها». ثم نهضت بعد ذلك وغادرت المنزل وأفشت ما اكتشفته لسائر سكان القرية. ثم أبدت لأبيها هذه الملاحظة: «حيثما يفشل ملك قدير تستطيع امرأة أريبة أن تنجح». وهكذا كان أصل إيقاد النار وذلك هو أصل الوظيفة التي احتلها كاتينجي بين البوشونغو، ذلك أنه لا يزال يوجد حتى الآن بين كبار المستشارين امرأة هي كبيرة بين الأكابر وتحمل لقب كاتينجي. وهي تحمل في أيام السلم وتر قوس حول عنقها زينة فخار. وعندما تتعرض البلاد للأخطار تضع نفسها في مقدمة الجيش ماضية لتدمير الأعداء.

وهناك الباسونغو مينو، وهم مجموعة من القبائل تمتد أراضيهم إلى الشمال من نهري سانكورد وكاساي، وكان لهم علاقة مع البوشونغو منذ العديد من السنين. هؤلاء يروون حكاية مختلفة عن أصل النار فيقولون إنهم كانوا منذ العصور القديمة جداً يصنعون قفف صيدهم من قشور بلح الرافيا. وفي أحد الأيام بينما كان واحد من الرجال يصنع قفته على هذه الطريقة أراد أن يحفر ثقباً في نهاية إحدى القشور فاستخدم لذلك عصا صغيرة مدببة. وبينما كان يثقب القشرة اندلعت النار. ومنذ ذلك الوقت أخذوا يستعملون هذه الطريقة للحصول على النار كلما دعت الحاجة إليها. وتهتم هذه الشعوب بمساحات واسعة من أشجار الرافيا وترعاها لتحصل منها على (غابات النار) وعلى المواد التي تستخدمها في عملية جدل ما تحتاجه من القفف.

ويحكي البولوكي أو البانغالا، وهم قبيلة من أعالي الكونغو، عن

محـاولة غير مجدية تمت في الأيام الأولى من هذا العالم للحصول على النـار. وتنص حكـايتهم على أنه مضى حين من الدهر كانت كل الطيور والحيوانات فيه تعيش في السماء. وفي أحد الأيام أمطرت السماء وساد برد شديد ارتجفت منه كل الطيور والحيوانات. فقالت الطيور للكلب: «إنزل وأبحث لنـا عن نار نتـدفأ بها». ونزل الكلب. ولكنه عندما رأى قطعاً من العـظام والأسمـاك تغطي الأرض نسي أن يحمل النار للطيور التي كانت ترتجف. وبعد أن انتظرت الطيور والحيوانات فترة من الوقت دون أن يظهر الكلب أرسلوا الـديك بسرعة ليأتي لهم بالنار. إلا أن الديك عندما بلغ الأرض ورأى كمية كبيرة من البلح ومن فستق العبيد (الفول السوداني) ومن الذرة الصفراء وغير ذلك من الأشياء لم يستحث الكلب المتباطىء بل لم يهتم بحمل النار إلى رفاقه الأعلين. ولذلك تستطيع ان تسمع عند المساء طائراً يغني ألحاناً تشبه ما يلي: نسوسو أكيندي بومبوا! نسوسو أكيندي بومبوا! ، أي «أصبح الـديك عبـداً! أصبح الـديك عبـداً!». ويقف البلشون (مالك الحزين) على شجرة قريبة من القرية ويصيح: مبوا أووا! مبوا أووا!، أي «أيها الكلب ستموت! أيها الكلب ستموت!». والسبب الذي من أجله يقوم هؤلاء الطيور بالسخرية والإهانة للكلب والديك هو أن هذين الحيوانين تركا رفاقهما يرتجفون من البرد بينما يتمتعان هما بالدفء ووفرة الغذاء.

ويقول الباكونغو، وهم قبيلة من الكونغو الأدنى، إن النار إنما أتت في بادىء الأمر من الأعلى بفضل صاعقة ضربت شجرة فأشعلت فيه النار. أما إنتـاج النـار الصنعي فهم يؤكـدون أنهـا انبعثت في بادىء الأمر من حك الخشب ثم بعد ذلك من قدح الصوان والفولاذ. وهم يروون أيضاً في إحدى أسـاطيرهم كيف أنه لم يكن في البداية نار على الأرض وكيف أن الناس أرسلوا ابن آوى (لأن الحيوانات كانت يومذاك أليفة وتعيش في القرى) نحو مغيب الشمس ليأتيهم بنـار. ولكن ابن آوى وجـد هناك كثيراً من الأشياء المفيدة التي ألهته عن الرجوع نحو مساكن الإنسان. ويتحدث السكان فيما بينهم عن وجود قبائل كاملة في الشمال البعيد تجهل كل شيء عن النار،

وأنهم يأكلون طعامهم من غير طهو ويمضغون اللحم نيئاً. على أنهم لم يروا أحداً من أمثال هؤلاء الناس وإنما يسمعون عنهم في الأحاديث التي تدور حول النار في المساء.

ويتحدثون في لوانغو عن عنكبوت غزلت يوماً خيطاً طويلاً طويلاً جداً. فأمسكت الريح بنهايته وأخذته نحو السماء، فتسلقه النقار الأخضر وأخذ ينقر القبة السماوية حتى أحدث فيها ثقوباً هي ما نسميه بالنجوم. ثم تسلقه الإنسان بعد النقار حتى وصل إلى السماء وأتى منها بالنار. على أن آخرين يقولون إن الإنسان وجد النار في المكان الذي سقطت فيه دموع اللهب الساقطة من السماء.

ويقول الإيكوا في نيجريا الجنوبية على الحدود التي تفصلها عن الكاميرون، إن إله السماء أوباسّي أوسوا خلق في البداية كل شيء دون أن يعطي النار لبني الإنسان الذين كانوا على الأرض. فقال إيتيم ني للأعرج: «ماذا يعني أن يرسلنا أوباسي أوسوا إلى هنا دون أن يزودنا بنار؟. هيا إذن واسأله أن يعطينا شيئاً منها». فسمع الأعرج الكلام ومضى إلى إله السماء.

وقد غضب أوباسّي أوسوا عندما تلقى هذه الرسالة وطرد الأعرج بأقصى سرعة إلى الأرض كي يوبخ إيتيم ني لتقديم مثل هذا الالتماس. وفي ذلك الوقت لم يكن الأعرج أعرج بل كان يستطيع السير مثل غيره من الناس. وعندما علم إيتيم ني أنه أغضب أوباسّي أوسوا ذهب إلى مدينة الإله وقال له: «اغفر لي أرجوك ما اجترحته البارحة بحقك، فقد كان ذلك حادثاً لن يتكرر». ولكن أوباسّي لم يشأ أن يسامحه رغم أنه بقي ثلاثة أيام يستغفره قبل أن يعود أخيراً إلى بيته.

وعندما وصل إيتيم ني إلى بلده سخر منه فتى قائلاً: «هل أنت زعيم إذا لم يكن باستطاعتك أن تأتي لنا بنار؟ سأذهب بنفسي إلى هناك وآتيكم بها. فإذا لم يعطوني إياها سأسعى إلى سرقتها». وفي اليوم ذاته ذهب الفتى حتى بلغ عند المساء منزل أوباسّي فوجد الناس كلهم مشغولين بتحضير الطعام.

فقام يساعدهم في عملهم. ولما جلس أوباسّي إلى الطعام ركع أمامه بكل تواضع حتى انتهى من وجبته.

ورأى السيد أن الفتى كان مفيداً فلم يطرده من المنزل. وبعد أن أقام في خدمته أياماً عديدة استدعاه أوباسّي وقال له: «امض إلى منزل زوجاتي واسألهن أن يرسلن لي قنديلاً». فسر الفتى سروراً كبيراً بما طلب منه لأن النار كانت محفوظة في منزل النساء. على أنه لم يمس أي شيء في المنزل بل انتظر حتى أعطينه القنديل ومضى به بسرعة إلى سيده. وبعد أن أمضى الفتى مدة في خدمة أوباسّي أرسله للمرة الثانية ليحضر له القنديل. ولكن إحدى النساء قالت له هذه المرة: «تستطيع أن توقد القنديل بنفسك». وما أن قالت له ذلك حتى مضت إلى البيت تاركة إياه وحده. فأخذ الفتى جذوة أشعل بها القنديل وغلّف الجذوة بأوراق نوع من النبات وربطها في ثوبه. وبعد أن أتى بالقنديل إلى سيده قال له: «إنني خارج لبعض أمري»، فأجابه أوباسّي: «تستطيع أن تفعل». عند ذلك ذهب الفتى إلى الدغل خارج المدينة حيث كان يوجد خشب جاف، فغطاه بسيقان أوراق البلانتان (وهو النبات الذي غلف به الجذوة) ليخفي الدخان وعاد إلى البيت. فسأله أوباسّي: «لماذا أطلت الغياب؟»، وأجابه الفتى: «لأنني كنت منحرف المزاج».

وفي هذه الليلة عندما نام الجميع أمسك السارق بكل ثيابه وزحف إلى طرف المدينة حيث كان خبأ النار. فوجدها مشتعلة. فأخذ منها جذوة حارة وبعض الخشب القابل للاحتراق ومضى إلى مسكنه. وعندما بلغ الأرض من جديد ذهب إلى إيتيم وقال له: «ها هي ذي النار الذي وعدت بجلبها إليك. فأرسل من يحضر خشباً وسأريك ما ينبغي أن تفعل».

وهكذا أوقدت أول نار على الأرض. وعندما كان أوباسّي أوسوا ينظر من بيته في السماء رأى الدخان يتصاعد على الأرض. فقال لابنه البكر أكبان أوباسّي: «سل هذا الفتى ما إذا كان هو الذي سرق النار». فنزل أكبان إلى الأرض ونفذ ما أمره به أبوه. واعترف الفتى: «أنا الذي سرق النار. والسبب

الـذي من أجله خبـأتها هو **الخوف**». وأجاب أكبان: «**إنني أحمل** رسالة إليك، أنت تستطيع الآن أن تمشي، ولكنك لن تستطيع ذلك منذ اليوم.».
ومن أجل هذا لم يعد يستطيع الأعرج أن يمشي. فلقد كان هو أول من أتى بالنار إلى الأرض من مسكن أوياسّي السماوي.

أما لدى اللاندو، وهم قبيلة من أفريقيا الوسطى تسكن إلى الشمال الغـربي من بحيرة ألبـرت، فتـوجـد حكاية تقول إن جدودهم هاجروا من السهول الشمالية إلى أرضهم الحالية. وعند وصولهم وجدوا أقزاماً يسكنون البلاد. فانسحب هؤلاء أمام الغزاة. وقد أتى هؤلاء اللاندو معهم بالنار من موطنهم القـديم. ولكن الأقـزام لم يكـونوا يعرفون استعمال النار، فكانوا ينـظرون بحسـد إلى القـادمين الجدد الذين كانوا يتدفؤون بالنار السعيدة ويأكلون طعامهم مطهواً غير نيء. وفي إحدى الليالي قام الأقزام وسرقوا النار وأشعلوها في الغابة لتكون في خدمتهم. ثم نقلوها بعد ذلك إلى الواسّونغورا (نجالي) الذين كانوا قد هاجروا إلى هذه البلاد من الجنوب وكانوا يجهلون النار كما كان حال الأقزام.

ويروي الكيكـويو من أفريقيا الشرقية القصة التالية عن أصل النار. فهم يقولون إن رجلاً في غابر الزمان سرق من جاره حربة ليقتل شيهماً (جنس من حيوانات لبونة قاضمة) كان يخرب له المحاصيل. فترصده في الحقل حتى تمكن في النهاية منه. ولكن الشيهم لم يمت بل كان جريحاً وتمكن من الفـرار والحربة في جنبه واختفى في جحر. فذهب الرجل إلى مالك الحـربة وادعى فقدانها، ولكن المالك أصر على أن يردها إليه. فاشترى المستعير* حربة جديدة وقدمها للمالك بديلاً عن الحربة المفقودة. ولكنه رفض هذه التقـدمة وأصر على استرداد حربته الأصلية. ومن أجل أن يرد المستعير هذه الحربة لمالكها زحف في جحر الشيهم فوجد نفسه لدهشته في مكان يجلس فيه أناس كثيرون وهم يصنعون طعامهم بالقرب من النار.

---

* هذا الاختلاف بين السرقة والاستعارة في أصل النص. ـ المترجم ـ

فسألوه عما يريد فروى لهم سبب مجيئه إلى هذا المكان. وعلى ذلك فقد دعوه ليبقى فيأكل معهم، ولكنه خاف وقال إن عليه أن يعود ومعه الحربة التي رآها مركونة هناك. ولم يبذلوا من جهتهم أي جهد لإبقائه وإنما قالوا له أن يتسلق جذور شجرة الموغومو التي كانت تخترق المغارة وهي التي ستوصله إلى العالم العلوي. وقد أعطوه الحربة والنار، وخرج متسلقاً كما نصحوه، وهكذا وصلت النار، كما يقال، إلى بني الإنسان الذين كانوا يأكلون طعامهم نيئاً قبل وصولها. وعندما وصل الرجل إلى أصدقائه رد الحربة إلى صاحبها وقال: «لقد سببت لي الكثير من الأذى لأسترد حربتك. فإذا كنت تريد شيئاً من هذه النار التي ترى دخانها عليك أن تتسلق هذا الدخان إلى أعلاه وتأتيني بشيء منه». وقد حاول مالك الحربة أن يتسلق الدخان عدة مرات ولكنه لم يتمكن من ذلك. عند ذلك تدخل الشيوخ وقالوا: «سنقوم بينكم بالتسوية التالية: ستكون النار في متناول الجميع، ولكن بما أنك أنت الذي أتيتنا بها فإنك ستكون رئيساً علينا منذ الآن». أما العالم السفلي الذي أُشير إليه في هذه الحكاية فإن اسمه هو ميري ياميكي أونغوا (وذلك لمن يريد أن يسأل).

أما الواشاغا الذين يسكنون جبل كليما نجارو الكبير في أفريقيا الشرقية فيقولون إن الناس في الزمن الماضي لم يكن لديهم نار. فكان عليهم أن يأكلوا طعامهم نيئاً حتى الموز، شأنهم في ذلك شأن القراديح (نوع من القرود). وفي أحد الأيام قاد الناس أبقارهم كالعادة إلى المرعى وحملوا طعامهم معهم. وهناك قطعوا سهاماً وأخذوا يلعبون بها. وقد وضع أحدهم سهمه بشكل عمودي في نقرة من الخشب وأخذ يديره بين يديه. فسخن طرف السهم وصاح الرجل بالآخرين: «من منكم يريد أن أضربه؟». فجرى الناس إليه وأخذ يضربهم بطرف السهم حتى صرخوا وهربوا، ثم أخذ يدير السهم بين يديه بشكل أقوى وأسرع حتى أصبح حاراً وأخذ يضربهم من جديد. وفي هذه المرة اقترحوا أن يساعدوه في أن يكون طرف السهم أكثر حرارة. فأمسكوه كلهم وأخذوا يديرونه بكل قوتهم حتى ارتفع الدخان

من طرفه وبدأ العشب اليابس الذي كان موجوداً تحته يظهر فيه الدخان أيضاً. ثم أتى الشباب بعشب يابس من جديد ليزيدوا في الدخان. وبينما كانوا ينظرون إليه اندلعت منه نار حارة أحرقت العشب والتهمت الأدغال وأصدرت ضجة تشبه الضجة التالية: وو، وو، وو، وو، وو، تماماً كما لو أن عاصفة هوجاء من الرياح كانت تمر.

وأسرع سكان المناطق المجاورة كلهم ينظرون ويصرخون: «من ذا الذي أتى لنا بهذا السحر المؤذي؟». ثم وجدوا الشباب المسببين فصرخوا فيهم: «أين وجدتم إذن هذا السحر؟». لقد كانوا حانقين بينما كان الشباب خائفين. ولكنهم أخذوا عصياً وأبانوا للناس كيف أداروا السهم، فانبثقت النار من جديد. وصرخ الشيوخ: «ماذا أنتم فاعلون؟ لقد أتيتم بشيء التهم كل عشبنا وكل أشجارنا!»

ومع ذلك فقد تعلموا أن النار مفيدة عندما ذهب الشباب يأخذون طعامهم من وسط الرماد. وكان الشباب قد قالوا في بادىء الأمر: «ها هي ذي وو، وو قد دمرت كل غذائنا»، ذلك لأنهم كانوا يسمّون النار وو، وو بسبب الصوت الذي يصدر عنها. ولكنهم عندما جاعوا عضوا الموز الذي شوته النار فوجدوه أشهى طعاماً مما ألفوه. وهكذا قام الناس في كل الجوار فجلبوا النار وو، وو إلى منازلهم وصاروا يطهون عليها الطعام.

وكلما قدم عليهم غريب وتذوق طعامهم الشهي كان يسألهم: «كيف تمكنتم من جعل طعامكم هكذا؟»، فيطلعونه عند ذلك على النار. ويذهب الغريب إلى منزله ليأتي بشيء يقايض به النار. وإذا سأله أحد: «إلى أين تذهب بهذه العنزة؟» يجيبه: «أنا ذاهب إلى الساحر وو، وو لأشتري منه وو، وو». وهكذا قدم كثير من الناس لشراء النار، فانتشر استعمالها في جميع البلاد. وقد أطلقوا على القطعة الطرية من الخشب اسم كيبونغورو، أما قطعة الخشب التي يديرونها فأطلقوا عليها اسم أفيتو. وكان من عادتهم أن يحتفظوا بهذين النوعين من العصيّ جاهزين على الأرض

بالقرب من الكوخ لأنهم يقولون إنه: «عندما يأتي الليل الطويل الذي يحبس الناس في بيوتهم لا يستطيع أحد أن يخرج ليبحث عن النار عند الجيران».

أما الشِلوك الذين يعيشون في منطقة النيل الأبيض فيقولون إن النار أتت من بلد الروح الكبير (بان جووك). فقد أتى حين من الدهر لم يكن أحد يعرف النار. فكان من عادة البشر أن يسخنوا طعامهم في الشمس، فما كان منه في الأعلى وطهي على هذه الطريقة يأكله الرجال، وما كان في الأسفل ولم تنله أشعة الشمس تأكله النساء. ثم إن كلباً سرق قطعة من اللحم كانت مطهوة على النار في بلد الروح الكبير وأتى بها إلى بني الإنسان. فتذوقها الشِلوك فوجدوها أطيب من اللحم النيء. ومن أجل أن يحصلوا على النار ربطوا بذنب الكلب قشاً جافاً وأرسلوه إلى بلد الروح الكبير. وعندما وصل الكلب إلى هناك أخذ يتدحرج كعادته فوق كومة الرماد فأمسكت النار بالقش المربوط في ذنبه وكانت مختبئة في الرماد الذي كان لا يزال أحمر اللون. وأخذ الكلب ينبح من الألم وعاد بأقصى سرعة إلى بلاد الشِلوك وأخذ يتدحرج على العشب اليابس ليخفف من ألمه. فأمسكت النار بالعشب فحصل الشِلوك من الحريق الذي نجم عن ذلك على النار. وتمكنوا منذ ذلك الوقت أن يحافظوا على النار مستورة ومخنوقة تحت أكوام الرماد.

١١ ـ أصل النار في أمريكا الجنوبية

يروي هنود اللانغوا الذين يسكنون منطقة شاكو في باراغوي القصة التالية عن أصل النار لدى بني الإنسان. فيقولون إن الناس، بما أنهم لم يكونوا في البدء يعرفون صنع النار، فقد وجب عليهم أن يأكلوا طعامهم نيئاً. وفي أحد الأيام ذهب أحد الهنود إلى الصيد، ولكنه لم يتمكن من أن يحصل على أية طريدة طوال ما قبل الظهر. وعند الظهيرة أراد أن يخفف من آلام الجوع فاتجه نحو شاطىء مستنقع ليجمع منه بعض الحلزون. وبينما كان يأكله لفت انتباهه طائر فزَّ من فوق المستنقع وفي منقاره إحدى الحلزونات. وبدا أنه وضعها بالقرب من شجرة ضخمة ثم عاد ليأخذ غيرها من المستنقع، وتكـررت هذه العملية عدة مرات. ولاحظ الهندي أيضاً أنه كان يتصاعد عمود دقيق من الدخان فوق المكان الذي كان الطائر يضع حلزوناته فيه. وقد أثار ذلك فضول الهندي. وعندما ابتعد الطائر عن المكان مرة أخرى اتجه

الهندي بكل حذر نحو مصدر الدخان. فوجد عدداً من العصيّ موضوعاً رأس كل واحدة إلى رأس الأخرى وأطرافها حمر كلها وتنتشر الحرارة منها. وعندما اقترب رأى بضع حلزونات موضوعة بالقرب من العصي. وبما أنه كان جائعاً فقد تذوق الحلزونات المطهوة فوجدها طيبة المذاق. فقرر منذ ذلك الوقت ألا يأكل حلزوناته نيئة أبداً.

ثم أمسك بعد ذلك بعدد من العصي وجرى بها نحو قريته حيث روى لأصدقائه كشفه العظيم. فجمعوا فوراً مؤونة من الخشب في الغابة ليحافظوا على هذا الكسب الذي لا يقدر بثمن والذي أطلقوا عليه منذ ذلك الوقت اسم تاثـلا أي النـار. وفي تلك الليلة طهـوا لحـومهم وخضرواتهم للمرة الأولى، وكلما ازداد استعمالهم لهذا الاكتشاف الجديد كلما زاد تقديرهم لما جنوه من فوائد فيه.

إلا أن الطائر عندما عاد إلى المكان الذي ترك فيه حلزوناته واكتشف اختفاء النار غضب غضباً شديداً ما عليه من مزيد وقرر الانتقام من السارق. وكان غضبه شديداً لدرجة أنه لم يعد يستطيع إيقاد النار. فحلق في الفضاء محوماً باحثاً عمن سرق ناره حتى رأى لدهشته سكان القرية جالسين حول كنزه السليب يستفيدون من حرارتها ويطهون طعامهم عليها. فانسحب إلى الغابة مشحوناً بأفكار الانتقام، ودبّر عاصفة هوجاء مصحوبة بالبروق والرعود تسببت بأضرار بالغة وأرعبت السكان. وهكذا أصبح من المعروف أنه كلما قصف صوت الـرعـد فإن ذلك يدل على أن الطائر غاضب يسعى لعقاب الهنود بأن يرسل عليهم نار السماء. ذلك لأن الطائر منذ أن أضاع ناره وجب عليه دائمـاً أن يأكـل طعامه نيئاً. ويضيف المبشر الذي نقل لنا هذه الحكاية «أن مما يثير الدهشة أن يؤمن الهنود بمثل هذه الأسطورة لأنهم يستطيعون أن يوقدوا النار بأنفسهم عن طريق الحك ولا يرون أن عليهم الإبقاء على النار مشتعلة عندما لا يكون لهم حاجة فيها، كما أنهم لا يخشون أبداً لمعان البرق ولا قصف الرعود».

على أن هذه الحكـاية التي يرويهـا هنـود الـلانغوا إنما هي شكل

أسطوري لاعتقاد قديم يرجع الفضل في استعمال الإنسان للنار إلى حريق نجم عن صاعقة نزلت من السماء. ذلك لأن الاعتقاد المنتشر بين الهنود الأمريكيين يتضمن أن الرعود إنما تنجم عن خفق طائر عملاق لجناحيه وأن البروق إنما هي لمعان عينيه.

أما هنود الشوروتي الذين يعيشون في شاكو الكبرى فيقولون إنه حدث حريق كبير منذ زمن طويل جعل كل البلاد التي يعرفونها صحراء قاحلة وقضى على كل الشوروتي عدا رجلاً وامرأة نجوا من الموت بالتجائهما إلى مغارة في الأرض. وعندما انتهى كل شيء وانطفأت النيران حفرا طريقهما إلى الأرض ولكنهما كانا بدون نار. إلا أن النسر الأسود قدم النار إلى الشوروتي فأصبحوا يمتلكونها منذ ذلك التاريخ. وقد أتى كل الشوروتي بعد ذلك من هذين الزوجين.

ويقول هنود التابييت، وهم قبيلة أخرى من سكان شاكو الكبرى، إن النسر الأسود إنما حصل على ناره من نار السماء. ولم يكن لدى التابييت في ذلك الزمان نار. ومع ذلك فإن طائراً صغيراً هو الكاكا سرق لهم النار من النسر الأسود، ولكنها انطفأت وعاد التابييت بدون نار يتدفؤون عليها ويطهون عليها ما يصطادونه من طرائد. ونالهم برد شديد. فأخذت بالضفدع الشفقة عليهم فذهبت إلى نار النسر وجلست هناك. وبينما كان النسر الأسود يتدفأ أخذت الضفدع بضع شرارات وخبأتها في فمها ثم أخذت تقفز حتى أعادت النار إلى التابييت الذي عادوا فامتلكوها منذ ذلك الوقت. ولكن نار النسر الأسود انطفأت بعد أن سرقتها الضفدع. فجلس يبكي ورأسه بين يديه، بينما اجتمعت الطيور كلها وقررت أن تمنع النار عنه.

أما هنود الماتاكو، وهم أيضاً من شاكو الكبرى، فيقولون إن الجاغوار (النمر الأمريكي) كان يمتلك ناراً ويحافظ عليها قبل أن يحصل عليها الإنسان. وبينما كان كل الماتاكو في الصيد في أحد الأيام قام الكوباي*

* الكوباي: COBAYE ، يسمى أيضاً خنزير الهند، وهو حيوان يستعمل في المخابر للتجارب. ـ المترجم ـ

بزيارة للجاغوارات وحمل لهم معه سمكاً. ولكن عندما تقدم إلى النار ليأخذ بعض ما عليها من سمك منعه من ذلك القائم على حراستها. فهيأ الكوباي نفسه على الأثر لسرقة النار وتخبئتها. ولما سأله الجاغوار عما يحمله أنكر أنه يحمل شيئاً، بينما هو في الواقع كان يحمل ناراً ما لبث أن أشعلها في طرفة عين. وعندما مضى الصيادون لصيد سمكهم أمسكت النار بالعشب وبدأ بالاحتراق. وقد رأى الجاغوار هذا الحريق وأسرعوا لإطفائه وهم يحملون الماء. ولما عاد الصيادون إلى مساكنهم كانوا قد جلبوا معهم جذوات من الحريق أشعلوا بها نارهم التي لم تنطفىء بعد ذلك قط. ولم يعد أحد من الماتاكو يفتقر إلى النار.

ويقول هنود التوبا من سكان شاكو الكبرى البوليفية إن ناراً كبيرة اجتاحت كل الأرض فيما مضى من الزمان ولم تترك عليها شيئاً. ولم يكن التوبا قد ظهروا يومذاك على ظهر البسيطة بعد. وقد أمسك أوائل التوبا الذين خرجوا من الأرض بجمرة من النار الكبيرة وحملوها معهم. ثم خرج رجال آخرون من التوبا من باطن الأرض. فكان الناس إذن يعرفون النار، وعاشوا على نوع من الجذور يسميه التوبا (تانّارا)، كما كانوا يلتقطون السمك من النهر، في الوقت الذي لم تكن فيه امرأة من التوبا قد ظهرت على ظهر البسيطة بعد.

ويتحدث الشيريغوانو، وهم قبيلة تسكن جنوب شرقي بوليفيا، وكانت قبيلة قوية فيما مضى من الزمان، يتحدث أفراد هذه القبيلة عن طوفان أغرق كل قبيلتهم وأطفأ كل نيرانهم باستثناء صبي وفتاة صغيرين. فكيف يستطيع هذان الصغيران إذن ان يطهوا طعامهما بدون نار، وبخاصة ما يلتقطان من أسماك؟. وأمام هذه الضرورة الملحة تقدم علجوم** لمساعدة الصغيرين. وكان هذا الحيوان الحريص قبل أن يغمر الطوفان الأرض قد أخذ احتياطاته بأن اختبأ في جحر حاملاً معه جذوات حارة هيأ نفسه ليجعلها مشتعلة طول

** العلجوم: الضفدع. ـ المترجم ـ

مدة الطوفان بالنفخ عليها بأنفاسه التي لا تنقطع. ولما رأى أن وجه الأرض عاوده الجفاف قفز من جحره مع الجذوات الحارة التي كانت في فمه واتجه مباشرة نحو الصغيرين اللذين قدم لهما النار هدية منه. وهكذا تمكنا من شيِّ الأسماك التي كانا قد التقطاها ودفآ جسميهما المرتجفين. وكبر الزمان فكبرا معه وتناسلت من زواجهما كل القبيلة فيما بعد.

أما هنود التوبينامبا الذين يسكنون نواحي رأس فريو FRIO في البرازيل فقد كان من عادتهم في القرن السادس عشر أن يرووا كيف أن السماء والأرض والطيور والحيوانات إنما خلقها كائن أعظم يسمى مونان وينسبون، إليه نفس ما ننسبه إلى الله عندنا من انجازات، وقد عاش هذا الإله في إلفة مع البشر حتى اشمأز من فسادهم ونكرانهم للجميل فهجرهم وأنزل عليهم ناراً من السماء اسمها تاتّا أحرقت كل ما هو موجود فوق سطح الأرض. ولم ينج من هذه النكبة إلا رجل واحد اسمه إيرين - ماجي كان الإله قد نقله إلى السماء أو إلى مكان آخر عصمه من غضب النيران. ولشدة ما توسل هذا الرجل إلى مونان أرسل الإله امطاراً غزيرة أطفأت النيران وتحولت مياه هذه الأمطار إلى البحر الذي أتت ملوحته من الرماد الذي خلفه الحريق الكبير. ويروي نص آخر لهذه الحكاية أن من نجا من الحريق كانا أخوين مع زوجتيهما لا رجلاً واحداً كما جاء في النص السابق. أما عن إنقاذ النار من الطوفان الذي تسببت به الأمطار الغزيرة فيقولون إن مونان أنقذ النار بوضعها بين كتفي حيوان ضخم ثقيل (الكسول) ومن هناك أخذها الأخوان بعد أن انسحبت مياه الطوفان من الأرض. ولا يزال الهنود يقولون إن هذا الحيوان يحمل آثار النار بين كتفيه حتى الآن. وفي تأييد ذلك يبدي المؤلف الفرنسي القديم الذي نقل لنا هذه القصة الملاحظة التالية: «والحقيقة أنكم إذا تأملتم هذا الحيوان عن بعد ما فعلت لرأيتم لوناً صارخاً بين كتفيه يشبه النار شبهاً تاماً. واذا تمعنتموه عن قرب لحكمتم بأنه حُرق في هذا المكان. ولا يزال المتوحشون يسمون هذا الحيوان تاتّا - أو باب، أي النار والموقد»*.

* كتبت هذه الملاحظة باللغة الفرنسية القديمة التي كانت مستعملة في القرن السادس

وهكذا نرى أن هنود رأس فريو، كغيرهم من المتوحشين الكُثُر، إنما اخترعوا هذه القصة ـ أو ربما كان ذلك أحد أسباب اختراعها ـ من أجل أن يفسروا لوناً خاصاً لحيوان بدا لهم أنه لابد أن يكون أثراً لنار.

ويروي هنود الأبابوكوفا، وهم فرع من جنس الغواراني الذي ينتسب إليه التوبينامبا أيضاً، كيف أن البطل الكبير نانديريكي اختلس النار من النسور السود بمساعدة العلجوم. وتفصيل الحكاية أن هذا البطل بعد أن تحقق من مساعدة العلجوم آكل النار له استلقى على الأرض متصنعاً الموت. فاجتمع حوله النسور السود الذين كانوا يومئذ أسياد النار وتهيئوا لإقامة وليمة من هذه الجثة الخادعة. ومن أجل هذا أوقدوا ناراً كبيرة لطهو الجسد. ولكن نسراً كان يجلس على فنن شجرة مجاورة ليقوم بالحراسة لاحظ كيف أن مدعي الموت هذا كان يطرف جفنيه، فحذر رفاقه من النسور لكي يكونوا على أتم أهبة واستعداد. ولكن نصيحته لهم ذهبت أدراج الرياح ولم تسبب أي قلق فيهم، فرفعوا نانديريكي وألقوه في النار. وقام البطل الشجاع يضرب ذات يمين وذات شمال فأرسل الجمرات الحارة تتطاير حوله في الهواء في كل اتجاه. وطار النسور مرعوبين. ولكن رئيسهم أمرهم بأن يجمعوا الجمرات المبعثرة التي كانت لا تزال تتقد بعد. عند ذلك طلب نانديريكي من العلجوم أن يبتلغ بعضاً من هذه الجمرات. ولكن الحيوان أصابه مغص شديد فقدم له البطل دواء أجبره على أن يفرغ الجمرات من جوفه فاستطاع نانديريكي بواسطتها أن يشعل النار.

أمـا هنود السيبايا من حوض نهر كسينغو في وسط البرازيل فيروون كيف تصرف بطل كبير من قبيلتهم اسمه كومافاري الأصفر لكي يتمكن من سرقة النار من النسر الأسود باصطناعه الموت. وتفصيل الحكاية أن نسراً أسود (غافيا ودي أنتا) كان يطير في يوم ما وفي براثنه جذوة نار يثير بها غيرة كومافاري الذي لم يكن لديه نار. ففكر البطل عند ذلك بالطريقة التي

عشر. ـ المترجم ـ

يستطيع بها الحصول على النار. وقد لاحظ أن النسر بعد أن حط على أغصان شجرة عاد فحط على الأرض ليطعم نفسه من جثة حيوان. فأوحى هذا المشهد لكومافاري بخطة. فتمدد على الأرض ومات وتفسخ. وأتى النسر مع طيور أخرى إلى الفريسة يلتهمون لحمها المتفسخ. ولكن النسر ترك النار على غصن شجرة بعيد لا يستطيع كومافالاري أن يصل إليه. وأكلت الطيور اللحم ولم تترك منه إلا العظام. فتحول كومافاري عند ذلك إلى أيّل ومات. وأتت بقية الطيور المفترسة تلتهم الأيّل الميت بينما كان النسر الأسود متشككاً بالأمر. فقالت الطيور الأخرى: «تعال! إنه ميت». فأجاب النسر: «هل هو ميت حقاً؟ إنني أراه حياً وأحترس من الذهاب إليه». وفي النهاية فتح كومافاري عينيه قليلاً فرأى النسر هذه الحركة وصاح: «أنظروا إذن! ألم أقل إنه ما زال حياً؟». وعندما قال ذلك أخذ جذوته وطار مبتعداً. ولكن كومافاري تمدد مرة أخرى فوق صخرة ومات. إلا أنه في هذه المرة مد ذراعيه وغرسهما في الأرض كأنهما جذران كبيران وأخرج منهما دغلتين في كل منهما خمسة أغصان تنبعث من المكان نفسه من الساق. وعندما أتى النسر الأسود ليلتهم الجثة قال في نفسه: «إن هذه الأغصان المتشعبة هي خير مكان أضع فيه ناري». وما أن قال ذلك حتى وضع النار في يد كومافاري. فأمسك البطل بها وانتصب بعد أن أصبحت النار ملك يمينه. ولكن النسر الأسود صرخ: «أنت تدعي ياكومافاري أنك ابن أبيك ولا تستطيع مع ذلك أن تصنع ناراً! ألا فاعلم أنك من أجل أن تصنع ذلك، عليك أن تضع عصاتين من شجرة الأوروكوس حتى تجفا في الشمس ثم تأخذ بإدارة إحداهما في الأخرى». فقال كومافاري: «حسن جداً! لقد تعلمت ذلك ا لآن أيضاً. ولكنني أفضل أن احتفظ بالجذوة التي أخذتها منك ولن أعيدها إليك أبداً».

ويروي الباكيري، وهم قبيلة هندية من وسط البرازيل، كيف أن أخوين توأمين كبيرين في أيام العالم الأولى هما كيري وكامي قد حصلا على النار بناء على طلب من عمتهما إيواكي. وكان سيد النار في ذلك الزمان هو

الحيوان الذي يسميه علماء الطبيعة كانيس فيتولوس. وكان هذا الحيوان قد وضع شبكة لاصطياد الأسماك. فذهب كيري وكامي ووجدا في الشبكة سمكة (جيجوم) وحلزوناً (كاراموجو). عند ذلك دخل الأخوان في هذين الحيوانين فاتخذ كيري شكل السمكة وكامي شكل الحلزون. ووصل سيد النار (كانيس فيتولوس) بعد ذلك بقليل وهو يغني وأوقد ناراً. ثم نظر إلى الشبكة فوجد السمكة والحلزون فأخرجهما ووضعهما على النار على أمل أن يشويهما عليها. ولكن الأخوين المتقمصين شخصيتي السمكة والحلزون صبا الماء على النار. أما الحيوان الغاضب (كانيس فيتولوس) فقد حاول الإمساك بالحلزون ولكن هذا قفز إلى النهر ليأتي بماء جديد يسكبه فوق النار حتى كاد أن يطفئها. فانقض الحيوان على الحلزون من جديد محاولاً سحقه على حطبة ولكن الحلزون تخلص من حصاره و وارتمى على الجانب الآخر منها. وكان هذا أكثر من أن يستطيع كانيس فيتولوس احتماله ففر هارباً وهو يحمل أبشع ما يستطيعه من مزاج خبيث. أما كاري وكامي فقد أذكيا النار من جديد بنفخهما عليها فاتقدت وحملاها إلى عمتهما إيواكي.

ويقول التيمب، وهم قبيلة هندية تسكن الشمال الشرقي من البرازيل في مقاطعة غراوبارا، إن النار كانت في الأصل ملكاً للنسر الملكي. فكان على التيمب نتيجة لذلك أن يطهوا اللحم الذي يريدون أن يأكلوه على حرارة الشمس. عند ذلك قرروا أن يسرقوا النار من النسر الملكي، وقتلوا من أجل هذه الغاية أحد حيوانات التابير*. وقد تركوا الحيوان في مكانه حتى تفسخ جسمه بعد ثلاثة أيام وامتلأ بالديدان. وحطّ النسر الملكي مع عائلته فخلعوا أزياءهم الريشية وظهروا في شكلهم الإنساني. وقد أتوا معهم بجذوة من النار ما لبثوا بعد حين أن أوقدوا بها ناراً عالية. ثم جمعوا الديدان وغلفوها بأوراق الأشجار ووضعوها لتشوى على النار. أما التيمب الذين لبثوا مختبئين في مكمنهم فقد وثبوا عليهم دون أن يتمكنوا منهم لأن النسور طاروا وحملوا

---

* التابير: حيوان أمريكي استوائي يشبه الخنزير. ـ المترجم ـ

معهم نارهم إلى مكان أمين. واستمر الهنود يبذلون جهودهم خلال ثلاثة أيام دون أن يفوزوا بطائل. وأخيراً بنوا كوخاً للصيد إلى جانب الجثة اختبأ فيه طبيب عجـوز من أطبائهم، فلما أتى النسور وأشعلوا ناراً بالقرب منه قال العجوز لنفسه: «في هذه المرة إذا قفزت بسرعة عليهم فإنني سأنال جذوة من النار». ولما خلع النسور ما عليهم من ريش وانشغلوا بشيّ الديدان قفز من مكمنه عليهم. فأسرع النسور نحو ملابسهم الريشية وطاروا بها، ولكن العجوز تمكن أن يمسك بجذوة من النار. أما الطيور فقد التقطت ما بقي من النار وحملتها معها. وأما العجوز فقد وضع ناره في جميع الأشجار التي لا يزال الهنود يستخرجون منها النار حتى الآن عن طريق الحك.

ويروي هنـود الأريكـونـا من الشمال من البرازيل قصة رجل اسمه ماكونيما كان يعيش مع اخوته قبل زمن طويل من الطوفان. ولم يكن لديه يومذاك نار فكان عليهم أن يأكلوا طعامهم نيئاً. ومن أجل ذلك راحوا يبحثون علن النـار حتى علمـوا أن طائـراً أخضـر صغيراً يسميه الـوطنيون موتونح (بريونيت موموماتا) كان يملك النار. وكان هذا الطائر منهمكاً بصيد السمك عندما عقد ماكونيما من مخبئه خيطاً في ذنبه. فخاف الطائر وطار عالياً جاراً وراءه الخيط المربوط. وكان الخيط طويلاً جداً فتبعه الأخوة حتى عرفوا منزله في نهـاية المـطاف وتمكنوا أن يحصلوا منه على النار. ثم بعد ذلك أتى الـطوفـان. ولكن أحـد القوارض الذي يسميه الوطنيون آكولي (دازيبروكتا آغوتي) تخلص من الغرق بتسلله إلى جحر في شجرة سدّه عليه بإحكام. وهناك أشعل ناراً، ولكنها امسكت بمؤخرته فجعلت وبرها أحمر، ولا يزال هذا الحيوان يحمل حتى الآن وبراً أحمر فوق هذا الجزء من جسمه. وهكذا يمكننـا الاعتقاد ـ رغم أن ذلك لم يُذكر صراحة في القصة ـ بأن النار تم انقاذها بهذه الطريقة الاستثنائية خلال الطوفان.

أمـا هنـود التاوليبيانغ، وهم قبيلة من شمال البرازيل، فلديهم قصة أخرى تقول إنه في الزمن القديم عندما لم يكن لدى الناس نار بوجه عام، كانت تعيش امـرأة عجـوز اسمها بيلينوزامو وكانت تملك في جسدها ناراً

تستخرجها منه في كل مرة تريد فيها أن تطهو حلوياتها من المانيوك* أما بقية الناس فقد كان عليهم في مثل هذه الحالة ان يطهوا حلوياتهم من المانيوك تحت أشعة الشمس. وفي أحد الأيام تمكنت إحدى الفتيات أن تشاهد المرأة العجوز وهي تخرج النار من جسدها وأخبرت الناس بذلك. فذهبوا إلى العجوز وسألوها أن تعطيهم شيئاً من نارها ولكنها رفضت مدعية أنها لا تملك النار. عند ذلك امسكوا بها وربطوا لها ذراعيها وساقيها وجمعوا كثيراً من الوقود وضعوه بقربها ثم قاموا يعصرون جسدها حتى خرجت منه النار. ولكن النار تحولت بعد ذلك إلى هذه الأحجار التي تدعى واتو والتي إذا قُدحت بعضها ببعض خرجت منها النار.

ويروي هنود الوارّاو في غويانا الانكليزية قصة قصدوا منها أن يفسروا لماذا توجد النار في الأخشاب ولماذا تنبثق منها عند الحك. فهم يقولون إن أخوين توأمين هما ماكونيما وبيا وُلدا من امرأة ماتت فوراً بعد الوضع. فقامت بتغذيتهما بكل حنان امرأة عجوز اسمها نانيوبو، وهو اسم يطلق على نوع كبير من الضفادع. وعندما كبرا كانا قد اعتادا على أن يذهبا إلى ضفة الماء ليحصلا منه على الأسماك والطرائد. وفي كل مرة كانا فيها يصطادان السمك كانت العجوز تقول لهما: «ينبغي عليكما ان تجففا السمك في الشمس ولا يجوز لكما أبداً شيَّه على النار». ولكن الغريب في الأمر هو أنها كانت ترسلهما دائماً للبحث عن حطب قابل للاحتراق، وعندما يعودان يجدان أن السمك قد تم طهوه جيداً وأصبح معداً للطعام. والحقيقة هي أنها كانت تخرج النار من فمها فتطهو بها الطعام ثم تطفئها قبل أن يتمكنا من رؤيتها مشتعلة. وعندما تكرر ذلك خلال أيام وأيام تناوبت الشابين الشكوك. فلم يكونا يفهمان كيف كانت العجوز توقد النار وقررا في النتيجة أن يقوما بمراقبتها. وفي المرة التالية عندما أرسلتهما للبحث عن الحطب تحول أحد الشابين التوأمين إلى جرذون، ثم عاد أدراجه وتسلق السقف بحيث يستطيع

---

* المانيوك: نوع من النبات يستخرج من جذوره دقيق نشوي. ـ المترجم ـ

من هناك أن يرى كيف تتصرف العجوز. ومن هناك رآها تخرج النار من فمها وتستخدمها ثم تعود فتبتلعها من جديد. وبعد أن اكتفى مما شاهده نزل عن السقف وجرى نحو أخيه. وبعد أن تناقشا ملياً قرارا قتل العجوز. ثم قاما باستصلاح حقل كبير تركا في وسطه شجرة كبيرة وربطا بها تلك الأم الطيبة التي أرضعتهما وهما صغيران. ثم أحاطا الشجرة والمرأة العجوز بأكداس من الحطب وأشعلا بها النار**. وبما أن اللهب كان ينهك العجوز شيئاً فشيئاً فإن النار الموجودة في جسدها خرجت منه وانتقلت إلى الحزم المحيطة به وكانت من الخشب الذي يطلق عليه الهنود اسم هيما ـ هيرو. ولا يزال الهنود يستعملون هذا الخشب للحصول على النار بحك قطعة منه بقطعة أخرى.

ومن أجل تفسير النار المخبأةِ في الحجارة يقول هنود الفاراو من غويانا إن امرأة أسطورية كانت تملك النار في جسدها، ثم يكملون القصة كما فعل هنودالتاوليبانغ من سكان شمالي البرازيل في تفسيرهم للنار المخبأة في الحجارة.

أما التاروما فهم قبيلة من هنود الأراواك يسكنون المنطقة الواقعة في الجنوب الشرقي من غونا الانكليزية. وهم يحصلون على جزء من قوتهم من الأسماك التي يصطادونها من نهر إسّيكّيبو الذي يجتاز بلادهم، ولكنهم يعتمدون بالدرجة الأولى في غذائهم على الطرائد من صيد البر، أما عنايتهم بالزراعة فهي أقل من عناية بقية قبائل الآراواك على الرغم مما يملكونه من حقول الكاسّاف* وما يزرعونه من بعض الحبوب. وأما حكايتهم عن أصل النار فهي تقول إنه في بدء الخليقة لم يكن يعيش على وجه الأرض إلا أخوان: الأكبر منهما هو أجيجيكو، والأصغر هو دويد. ولم يكن ثمة غيرهما من ذكر وأنثى. ولكن الأخوين شعرا أنه لابد لهما من امرأة يجدانها في مكان ما لأنهما لاحظا على صخرة قريبة من النهر حراشف وبقايا من سمك

** لم تذكر الحكاية من أين أتى الشابان بهذه النار. ـ المترجم ـ

* الكاسّاف: نبات من الدرنيات يطلق عليه أيضاً أسم مانيوك. ـ المترجم ـ

مأكـول. وبعـد أن طرحـا بدون طائل أسئلة على الضفدعة والبوم أمسكا بقضاعة** انثى وأجبراها على أن تدلهما على مكان المرأة. وقد علما منها أن المرأة كانت تسكن في منطقة تقع بين سدين في أعماق النهر وأن عليهما إذا أرادا الحصول عليها أن يقوما بصطيادها. وقد عملا بالنصيحة واستمرا على ذلـك بضعـة أيام وهمـا يلتقـطان من الماء أشياء أنثوية من مختلف الأنـواع، كسلة وأرجـوحة للنوم، ولكنهما لم يستطيعا الوصول إلى المرأة نفسها. وعندما تعب الأخ الكبير أجيجيكو وأصابه الملال غفا في النهاية. وبينمـا هو نائم تمكن أخـوه الأصغر دويد من أن يسحب المرأة من الماء ويتزوجها، ومن هذا النكاح بين هذين الزوجين الأولين أتت البشرية جمعاء.

وبعد زواج دويد سكن الأخوان في منزلين منفصلين متقاربين يقعان في الفسحـة نفسها من الغابة. وكان يأكلان دائماً طعامها نيئاً. ولكنهما لاحظا أن المرأة لا تأكل الطعام نيئاً باستثناء الفواكه، فاعتقدا أنه لابد أن يكون وراء ذلك سر، سيما أنها كانت تأكل طعامها في معزل عنهما. وقد حاولا إقناعها بأن تقول لهما من أين تأتي بالنار وكيف تصنعها ولكنها كان ترفض دائماً أن تشبع فضولهما. وبعد عدد كبير من السنين، وبعد أن أصبحت عجوزاً ذات أبنـاء كثيرين قام أجيجيكو بزيارة لها ولزوجها. وعند مغيب الشمس ألقى عليهما تحية المساء وعاد إلى منزله. وقد استغربا أن ينسى عندهما كيس تميمته، ولكنه ما لبث أن صاح بامرأة أخيه بأن تأتي له بالكيس. فحملته وتوقفت على مسافة منه وقالت له: «إليك هو». ولكن قال لها: «كلا! أحمليه إلى هنـا واقتربي مني». فخافت من هذا الطلب وقالت له: «سأرمي لك إياه». فقال لها: «لا تفعلي لأنك ستكسرين ما فيه. آتيني به إلى هنا حيث أقف». فلما اقتربت قفز عليها فجأة وأمسك بها وهددها بأن يغتصبها اذا لم تكشف له عن سر النار. وبعد أن قامت بمحاولات عديدة فاشلة للتخلص منه خضعت لرغبته. فجلست على الأرض وأبعدت ما بين فخذيها وأخذت

** القضاعة أو القندس حيوان يعيش في الماء ويبني فيه السدود. ـ المترجم ـ

تضغط على أعلى بطنها حتى أصابتها هزة كبيرة وخرجت من منفذها التناسلي كرة نارية تتدحرج على الأرض. ولم تكن هذه النار هي النار التي نعرفها اليوم، ذلك لأنها لم تكن تحرق ولا يُشوى ما يوضع عليها من الأشياء بعد أن فقدت هذه الخواص عندما تخلت المرأة عنها. ومع ذلك قال أجيجيكو بأنه سيجد علاجاً لذلك. وهكذا قام فجمع كل لحاء الأشجار وكل الثمار وكل الفلفل الأحمر ومزجها بالنار التي خرجت من المرأة حتى صنع النار التي نعرفها اليوم. والآن بعد أن أصبح الأخوان يملكان النار أصبحت كل الطبيعة تطلبها وترغب بها. ولكنها أعطيت إلى دويد زوج المرأة الذي أصبح موكلاً بها وبحمايتها.

وفي أحد الأيام بينما كان جالساً على ضفة النهر وقد وضع النار إلى جانبه خرج قاطور* فأمسك بها بين فكيه ومضى. وفي هذه الأثناء وصل الأخ الأكبر فنادى القاطور وحمله على أن يخرج النار من فيه. ولم تكن النار هى التي تأذّت من فكي القاطور، ولكنها هي التي أحرقت لسانه فبقي من ذلك الوقت بدون لسان.

وفي يوم آخر بعد ذلك، بينما كان دويد يسهر على النار، أمسك بها طائر من المارودي وطار بها. وعندما وصل أجيجيكو إلى المنزل أخبره دويد بفقدان النار، فنادى على الطائر فأرجعها في أحسن حال، ولكن عنقه كان قد احترق منها. ومنذ ذلك الوقت أصبح عنقه أحمر حتى اليوم.

وفي يوم ثالث ذهب دويد وترك النار وحدها على الأرض. وأتى في غيابه نمر أمريكي (جاغوار) فمشى مصادفة على النار، فاحترقت قدماه احتراقاً كبيراً لدرجة أنه لم يعد يستطيع وضعهما مسطحين على الأرض. ومر التابير فمشى على النار أيضاً. فأصبحت خطواته بطيئة بعد أن احترقت قدماه بشدة، وأصبح عليه دائماً أن ينتعل حذاءين تجنباً للآلام.

على أن أحداً لم يخبرنا كيف يصنع التاروما الذين رووا لنا هذه القصة

---

* القاطور: هو التمساح الأمريكي. ـ المترجم ـ

عن أصل النار، كيف يصنعون هم نارهم اليوم. ويغلب على الظن أنهم يلجؤون إلى «غابة النار». ذلك لأن الوابيسيانا، وهم قبيلة تسكن المنطقة نفسها وتمت إلى التاروما بصلة القربى يستعملون هذه الطريقة في إيقاد النار. فيقوم رجل بإدارة عصا عمودية بين راحتيه، بينما يمسك بقدميه طرفي عصا مسطحة أفقية ملقاة على الأرض. وقد تتم إدارة العصا العمودية بواسطة قوس بدلاً من إدارتها بين راحتي اليدين.

ويقول الجيفارو، وهم قبيلة هندية من شرقي الاكوادور، إن أجدادهم فيما مضى كانوا يجهلون النار ويحضّرون طعامهم بتدفئة اللحم تحت آباطهم واليوكا (جذر يصلح للطعام) بين فكيهم بينما يشوون البيض تحت أشعة الشمس الحارقة، وكان الوحيد الذي يملك ناراً بينهم رجلاً اسمه تاكّيا كان يصنع النار بحكه قطعتين من الخشب إحداهما بالأخرى. وبما أنه كان على عداء مع بقية أفراد القبيلة فإنه لم يكن يرضى بأن يقرضهم النار ولا أن يعلمهم طريقة صنعها. وقد حاول كثيرون من أفراد القبيلة أن يسرقوا منه النار بأن يأتوا طائرين إلى بيته (ذلك لأنهم كانوا على ما يبدو في ذلك العصر من الطيور)، إلا أنهم لم يتمكنوا من تحقيق مسعاهم. والسبب في ذلك أن تاكيا الذكي كان يترك الباب مفتوحاً مواربة، فلما يقدم شخص على دخول بيته طائراً كان يصفق الباب عليه فيسحقه بين الباب وعارضته.

وأخيراً أتى العصفور الطنان* فقال للآخرين: «سأذهب لأسرق النار من بيت تاكيا». ثم بلل جناحيه وأخذ يضرب بعضهما ببعض ويتخبط أثناء الطريق موحياً بأنه لا يستطيع الطيران وأنه يرتجف من البرد. وكانت زوجة تاكيا عائدة من الحقل فرأت العصفور المبلول فحملته معها إلى البيت ليتمكن من تجفيف ريشه أمام النار. وكانت تعتقد بأنها تقدم له بذلك خدمة جلى. وبعد قليل من الوقت جف ريش العصفور فحاول أن ينهض ليطير

---

* عصفور صغير زاهي الريش طويل المنقار يتغذى بالحشرات ورحيق الأزهار.
ـ المترجم ـ

ولكنه لم يتمكن من ذلك. فالتقطت زوجة ماكيا العصفور مرة أخرى ووضعته أقرب إلى النار. وبما أنه كان صغيراً جداً فإنه لم يكن يستطيع أن يحمل جذوة من النـار بكـاملها، وهكذا وضع ذنبه بين اللهب حتى أخذ الريش بالالتهاب وطار نحو شجرة عالية كان لحاؤها جافاً جداً ويسميها الجيفارو شجـرة المـوكـونا. فأمسكت النار باللحاء. وطار العصفور الطنان ببعض اللحاء الملتهب إلى أحد المنازل وهو يصيح بالآخرين: «لقد حصلتم على النار فخذوها سريعاً واحملوها كلكم. فالآن تستطيعون طهو طعامكم بشكل مناسب، والآن لم تعودوا بحاجة لتدفئته تحت أباطكم».

ولما رأى تاكيا أن العصفور الطنان قد هرب بالنار غضب غضباً شديداً وأخذ يوجه اللوم إلى زوجته قائلاً لها: «لماذا أدخلت إلى بيتنا هذا العصفور الذي سرق نارنا؟. الآن سيكون لدى كل الناس نار، وأنت المسؤولة عن هذا الاختلاس». ومنذ ذلك العصر أصبح الجيفارو يمتلكون النار بصورة دائمة وتعلموا فن صناعتها بحك قطعتين من خشب القطن إحداهما بالأخرى.

١٢ ـ أصل النار في أمريكا الوسطى والمكسيك

يتحدث الكيشي في غواتيمالا عن عصر كان أجدادهم فيه لا يملكون ناراً ويعانون من البرد. ولكن الإله توهيل كان خالقاً للنار وعنده قليل منها. وهكذا توجه الكيشي إليه تحت ضغط الحاجة يسألونه أن يعطيهم شيئاً منها، فقدم لهم ما أرادوه. إلا أن مطراً غزيراً هطل بعد ذلك ممزوجاً بالجليد القاسي (البَرَد) فأطفأ كل نيران البلاد. على أن توهيل ما لبث أن خلق النار من جديد ضارباً الأرض بمداسه. وتكرر الحادث مرات عديدة، يفقد الكيشي النار على هذه الصورة فما يلبث توهيل أن يعيدها إليهم من جديد.

أما هنود الكورا في المكسيك فيروون أن الإيغوان* كان يملك النار. ولكنه تشاجر مع امرأته وحماته فانسحب إلى السماء آخذاً معه النار إلى

* الإيغوان IGUANE نوع من العظايات الأمريكية العاشبة. ـ المترجم ـ

هناك. وهكذا لم يعد ثمة نار على الأرض لأن الإيغوان أخذها كلها معه إلى السماء. وكان الآلهة الخالقون بحاجة ماسة إلى النار. فعقدوا مؤتمراً كبيراً ليناقشوا الطريقة التي يمكن بها أن يحصلوا عليها. وقد حضر الاجتماع الآلهة كلهم شيباً وشباناً لمدة ثلاثةَ أيام بدون طعام ولا شراب ولا نوم يقلبون وجهات النظر ويمعنون التفكير ويصلون الليل بالنهار. وأخيراً بعد خمسة أيام عرفوا أين النار. «إنها في السماء»، هذا ما قالوه وتوصلوا اليه. وأضافوا: «إن الإيغوان خبأها. لقد ذهب إلى السماء وهو الآن هناك». ثم تشاوروا: «كيف يمكننا أن نأتي بالنار إلى الأرض؟». وأضافوا: «لابد أن يصعد أحد إلى هناك ليأتينا بها». وعندئذ استنهضوا همة الغراب لانجاز هذه المهمة وقالوا له: «اذهب أيها الغراب وحاول إن استطعت أن تتسلق السماء». وكان ثمة منحدر في الجوار فذهب الغراب يرتقيه. ولكن عندما وصل إلى منتصف الطريق انزلقت قدمه وهوى على الأرض حيث فارق الحياة وانفجر وتحول إلى نتف صغيرة. وهكذا فشل الغراب.

عند ذلك استدعى الرجال طائراً آخر هو العصفور الطنّان فما لبث أن شد الرحال. ولكنه لم يتمكن هو الآخر من الوصول لأنه سقط في منتصف الطريق، ولم يتمكن إلا بكل صعوبة من إنقاذ نفسه من الموت. وعندما عاد ونزل إلى الأرض قال للشيوخ: «إن من المستحيل التسلق إلى السماء، وذلك لوجود شلال ليس منَ منفذ فيه». ثم ذهب طائر آخر حاول تسلق الطريق نفسه ولكنه لم يتمكن من الصعود بل اضطر أن يعود وينزل إلى الأرض. وعندما وصل قال للشيوخ: «إن هذا مستحيل، فليس من وسيلة تساعد على التسلق».

وهكذا حاول كل الطيور، ولكن أحداً منهم لم يتمكن من التسلق إلى السماء. عند ذلك استدعيَ الأوبوسّوم*. فتمنّع في بداية الأمر، ثم قبل

* الأوبوسوم OPOSSUM حيوان أمريكي من الجرابيات يتظاهر بالموت عندما يحدق به الخطر. ـ المترجم ـ

ومضى قائلاً لهم: «إذا كان ممكناً لي أن أصعد، فافعلوا ما أقول لكم. انتبهوا إلى اللحظة التي تسقط فيها النار لأنني سأرمي بها إلى الأرض. عند ذلك ينبغي أن تتلقوها في أرديتكم ولا تدعوها تسقط على الأرض كي لا تهلك فيها الحرث والنسل».

وبعد أن قال الأوبوسوم ذلك مضى يتسلق المنحدر حتى وصل إلى منتصف الطريق. وكانت تنمو هناك شجرة من أشجار التكيسكالام فتوقف عندها واستراح. ثم تابع المسير إلى الأعلى، وكان الطريق سوياً حتى وصل إلى الشلال. وكان من حظه أن تمكن من اجتيازه ولكن بعد جهد جهيد. وبعد أن هز نفسه تابع الصعود منهكاً ولكن ناجياً. وعندما وصل إلى الأعلى تلفت حوله فرأى النار وقد جلس بالقرب منها رجل عجوز فاقترب منهما مسلماً على العجوز: «صباح الخير ياجدي! صباح الخير ياجدي!» فنهض العجوز وقال: «من ذا الذي يتوجه إليّ بالكلام؟». وأجاب الأوبوسوم: «إنني أنا حفيدك». ثم طلب أن يسمح له بالتدفىء على النار. ولم يكن العجوز يرغب بذلك في بادىء الأمر، ولكن الأوبوسوم ألح عليه بقوله: «إنني أشعر بالبرد وأحب أن أتدفأ». عند ذلك أجاب العجوز: «دفىء نفسك ولكن لا تحمل معك شيئاً من النار». وجلس الأوبوسوم بينما تمدد العجوز وما لبث أن أدركه النوم. وبينما كان نائماً لف الأوبوسوم ذنبه حول جذوة وأخرجها بكل هدوء من النار. إلا أن ذلك أيقظ العجوز فقال له: «لقد أخذت ناري أيها الحفيد». فأجابه الأوبوسوم: «كلا، وإنما أنا أذكي النار». ونام العجوز من جديد ولكنه نام هذه المرة بعمق. وبينما كان نائماً نهض الأوبوسوم بكل هدوء وهو يمسك الجذوة وأخذ بالانسحاب بكل بطء. وكان قد قطع مسافة كبيرة من الطريق وأصبح قريباً من الهاوية عندما استيقظ العجوز وأدرك كل شيء ونهض لمطاردة هذا الدخيل. ولكن الأوبوسوم كان قد أدرك الهوة ورمى بالنار إلى أسفلها. وعندما أدركه العجوز انهال عليه ضرباً بعصاه حتى ازرقّ منه الجلد وقذف به بعد ذلك على الأرض. وبعد

أن شفـا منه غليله مضى وهو يقول: «ذلك لكي لا تسرق مني ناري أيها الأويبوسوم اللعين».

وكـان سكـان الأرض خلال ذلـك ينتظرون النار حتى رأوها تسقط عليهم. عنـد ذلـك أسرعوا لتلقيها في أرديتهم ولكنها لم تسقط فوقها بل سقطت على الأرض فاحترقت على الفور. وبينما كانوا يجمعون النار وصل الأويبوسوم كجندول صخر منحدر وسقط على الأرض جثة هامدة. عند ذلك لفوه ودثروه بأرديتهم. ولم يمض وقت طويل وقت حتى تحرك تحت الأردية وعادت إليه الحياة ثم نهض وهو يستصعب النهوض وجلس منتصب الظهر. وعنـدمـا استعـاد حواسه سألهم: «هل وصلت النار؟، لقد رميت بها إلى الأسفل! إن جدي هو الذي أعطاني هذه الضربات الأليمة». فأجابوه: «إن النار سقطت هنا، ولم يتمكن أحد من التقاطها عند سقوطها، فقد سقطت على التراب واحترقت كل الأرض، فكيف سنستطيع الآن إطفاءها؟ إن من المستحيل علينـا أن نفعـل ذلـك!». عند ذلك استدعوا أمنا إلهة الأرض فأطفأت النار بحليبها. وهكذا حصلوا على النار وبقيت لديهم منذ ذلك الحين.

في هذه الأسطورة التي يرويها الكورا نلاحظ أن الإغوان بعد أن حمل النار من الأرض إلى السماء اختفى من القصة وحل محله رجل عجوز كانت مهمته أن يحرس النار السماوية. إلا أن هذا العجوز يمكن أن يكون هو نفسه الإغوان ولكن تحت مظهر إنساني قل أو كثر، ذلك لأن الهمجيين لا يبدون تمييزاً واضحـاً بين الإنسـان والحيوانـات. وفي نص مختصـر آخـر لهـذه الأسطورة يوصف المخلوق الذي سرق الأويبوسوم النار منه بأنه «النسر الأسود العجوز».

١٣ - أصل النار في أمريكا الشمالية

يقول هنود السيا SIA من مكسيكو الجديدة إن العنكبوت التي يسمونها سوسّيستيناكو هي التي خلقت البشر والحيوانات الطيور وكل الكائنات الحية الأخرى. وكانت تعيش في بيت تحت الأرض تصنع فيه ناراً بقدح حجر قاطع مدبب بحجرٍ مسطح مستدير. وكانت بعد أن توقد النار تحافظ عليها في بيتها بأن تضع على بابه الأول ثعباناً لحراستها ونمراً أمريكياً على الباب الثاني ودباً على الباب الثالث بحيث لا يتمكن أحد من الدخول ورؤية النار. ولم يكن سكان الأرض الآخرون يملكون ناراً لأن سرها لم يكن قد وصل إلى الأعلى. ولكنهم ما لبثوا بعد ردح من الزمن أن ملوا من قضم الحشائش كالأيائل وبقية الحيوانات وقرروا أن يرسلوا القيّوط* ليسرق لهم النار من

---

* القيّوط COYOTE ذئب أمريكي صغير الحجم. - المترجم -

العالم السفلي. وما أن رضي القيّوط بهذه المهمة حتى وصل إلى بيت العنكبوت في منتصف الليل. فوجد الثعبان الذي يحرس الباب الأول نائماً في مركز حراسته فانساب من أمامه دون أن يراه. وحدث الشيء نفسه مع النمر الامريكي الذي يحرس الباب الثاني ومع الدب الذي يحرس الباب الثالث حتى وصل القيّوط إلى الباب الرابع فوجد المولج بحراسته نائماً أيضاً. فانسل من أمامه حتى دخل الحجرة فوجد العنكبوت تغط في نوم عميق. ووجد النار أمامها فاتجه نحوها وأشعل منها جذوة من خشب الأرز الذي كان مربوطاً في ذنبه وانفلت هارباً بأقصى سرعته لا يلوي على شيء. ولكن العنكبوت استيقظت وهي تفرك عينيها في اللحظة المناسبة لترى أن شخصاً ما كان يغادر الغرفة. فصرخت: «من هناك؟. إن شخصاً ما دخل إلى هنا». وقبل أن تتمكن من إيقاظ حرس الأبواب النائمين وتطلب منهم إيقاف السارق كان القيّوط قد ابتعد سالكاً طريق العالم العلوي.

ويروي النافاهو أو النافاجو، وهم قبيلة هندية من المكسيك الجديدة، أن أجدادهم القدماء كانوا ستة رجال وست نساء خرجوا من الأرض في وسط بحيرة موجودة في وادي مونتيزوما. وعند خروجهم من باطن الأرض كان قد سبقهم إلى سطحها الجرادة والغُرير*. والواقع أنهم عندما وصلوا إلى سطح الأرض وجدوا عليه نفس الحيوانات التي تسكن اليوم تماماً عدا الأيّل والظبي اللذين لم يكونا قد خُلقا بعد. يضاف إلى ذلك أن الحيوانات كانت، في مقياس ما، أحسن حظاً من بني الإنسان لأنها كانت تملك النار بينما لم يكن لدى الرجال والنساء شيء منها. ومن بين هذه الحيوانات كان القيّوط والوطواط والسنجاب أصدقاء خاصين للنافاهو، فتعاون الطرفان كلاهما على أن يؤمن كل منهما النار للآخر. وبينما كانت بقية الحيوانات تلعب لعبة الحذاء بالقرب من النار، أتى القيّوط إلى مكان اللعب ومعه قطع من خشب الصنوبر الراتنجي مربوطة في ذنبه. وفي الوقت الذي كان فيه انتباه

---

* الغُرير: حيوان من اللواحم. ـ المترجم ـ

الحيوانات منصباً على اللعب، قام هو باجتياز النار راكضاً فالتقطتها القطع الخشبية الصنوية وأخذت بالاشتعال. وما أن تم له ذلك حتى لاذ بالقرار تلاحقه جموع الحيوانات. وعندما تعب تقدم الوطواط، حسبما كان متفقاً عليه من قبل، فخفف العبء عنه آخذاً النار منه ولائذاً بالفرار. وبما أنه كان يطير من هنا إلى هناك، ويدور تارة إلى هذه الجهة وتارة إلى الجهة الأخرى فقد تمكن أن يتخلص لبعض الوقت من ملاحقيه. وعندما أحس في النهاية أنه سيهوي إلى الأرض أسلم النار للسنجاب الذي تمكن بسبب خفته وجلَده أن ينجح في إيصال النار سليمة إلى النافاهو.

أما أباش جيكاريللا من شمالي مكسيكو الجديدة فيقولون إن أجدادهم عندما خرجوا للمرة الأولى خارج مسكنهم في باطن الأرض كانت الأشجار تستطيع الكلام. ولكن الناس لم يكونوا يستطيعون إحراقها لأنها لم يكن فيها نار. ومع ذلك فإن الناس استطاعوا في النهاية أن يحصلوا على النار بفضل الجهود التي بذلها الثعلب. ففي أحد الأيام ذهب الثعلب لزيارة الأوزكي يتعلم كيف يقلد صراخهم. وقد وعده الأوز أن يعلموه. ولكنهم قالوا له إنه إذا أراد أن يقلد صراخهم الحقيقي فإن عليه أن يرافقهم في طيرانهم ثم أعطوه أجنحة ليطير بها ولكنهم حذروه من أن يفتح عينيه أثناء الطيران. وعندما مد الأوز أجنحتهم وطاروا بها طار الثعلب معهم، فلما حل الظلام مروا فوق جدران حوش كانت تعيش فيه الحباحب، فلما اخترق لمعانها أجفان الثعلب المغلقة دفعه لأن يفتح عينيه. عند ذلك تخلا عنه الجناحان فوقع فوق خيام الحباحب، وتقدم اثنان منهم لينظروا أمر هذا الذي سقط عليهم من السماء، فما كان منه إلا أن قدم لكل واحد منهما عقداً من حبوب العرعر ليقوما بإرشاده إلى الطريق الذي يستطيع منه أن يغادر جدران الحوش. فأراه الحبحبان أرزة منحنية بحيث يستطيع أي كائن أن يتسلقها ويتجاوز الجدار. وعند المساء ذهب الثعلب مع الحبحبين ليأتيا بماء من النبع فوجد أتربة ذات ألوان مختلفة وصالحة لاستخراج الأصبغة فاختار واحدة صبغ نفسه منها باللون الأبيض. ولما عاد إلى المخيم قال للحباحب

إن عليهم أن يقيموا وليمة يرقصون فيها ويتسلون وقدم لهم آلة موسيقية جديدة. وقد قبلوا اقتراحه وجمعوا حطباً لايقاد نار كبيرة أشعلوها بما على أجسادهم من بريق. وقبل بداية الاحتفال ربط الثعلب رقائق من لحاء الأرز بذنبه وصنع طبلاً كان الأول من نوعه وأخذ يضرب عليه فترة من الزمن. وعندما تعب من الضرب عليه أعطاه لواحد من الحباحب واقترب من النار. وأخيراً وضع ذنبه فيها على الرغم من أن الحباحب كانوا قد نصحوه بألا يفعل ذلك أبداً لأنها نار حارقة. وقد قال لهم: «إنني رجل طيب، وذنبي لا يحترق أبداً». ومع ذلك فإنه استمر في مراقبة ذنبه بكل انتباه، فلما اشتعلت النار باللحاء جيداً قال للحباحب: «إن الطقس حار جداً هنا، أفسحوا لي مجالاً ودعوني أمر إلى حيث يكون الطقس أكثر برودة». وما أن قال ذلك حتى هرب راكضاً مع ذنبه الملتهب يلاحقه الحباحب وهم يصرخون: «قف! أنت لا تعرف الطريق، عد أدراجك». ولكن الثعلب جرى مباشرة نحو شجرة الأرز وصاح: «انحني ياشجرة الأرز، انحني أمامي». وهكذا رفعته الشجرة إلى خارج الحوش حيث أخذ طرف ثوبه بين أسنانه ولاذ بالفرار والحباحب تجري دائماً وراءه. وعندما كان يركض سقطت شرارات من قطع الأرز الملتهبة فأشعلت الأدغال والأشجار في كل اتجاه حتى أن النار امتدت أوسع امتداد على الأرض. وعندما تعب من الجري أعطى الثعلب النار إلى النسر الذي حملها وأعطاها إلى الكركي البنية اللون. فطارت بها الكركي بعيداً نحو الجنوب حتى وصلت لسرعتها إلى شجرة لم تنلها النيران، ولا تزال هذه الشجرة حتى اليوم منيعة على الاحتراق وإن كان الأباش لا يعرفون اسم هذه الشجرة ولا يعرفون أن يدلوا أحداً عليها. أما الحباحب الذين لحقوا بالثعلب إلى وجاره فقد أعلموه أن عقابه على سرقة نارهم وبثها في جميع البلاد سيكون بحرمانه من استعمال هذه النار في مستقبل الأيام.

ويروي الوينتاه أوت الذين يسكنون الشمال الشرقي من يوتاه قصة طويلة عن أصل النار، أو بالأحرى عن سرقة النار. وخلاصة القصة هي التالية: كان القيّوط يعيش مع الناس مترئساً عليهم، ولم يكن لدى الجميع

نار. وفي أحد الأيام بينما كان متمدداً على سريره في خيمته رأى شيئاً يسقط أمامه وكان قطعة من قصبة محترقة ذرتها الريح مع الدخان حتى سقطت في هذا المكان. وقد التقطها القيّوط ووضعها جانباً واستدعى معاونيه ليسألهم ما إذا كانوا يعرفون ماهيتها أو من أي مكان أتت. إلا أن أحداً منهم لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك. عند ذلك أشار القيّوط إلى واحد من رجاله وهو البوم وقال له: «لقد اخترتك لكي تأتي بالكثير من قومك اليوم». وأرسل رجلاً آخر ليستدعي له شعب النسور، وآخر للغربان، وآخرين لقبائل ديوك الخَلَج ودجاج الأحراش والعصافير الطنانة وكل أنواع الطيور الأخرى. فقد كان من الواجب عليه أن يرسل المبعوثين إلى كل القبائل وعليها كلها أن تأتي لمقابلته.

عند ذلك توجه إلى أحد الرجال قائلاً: «اذهبْ ياصديقي إلى النهر وائتني بقصبات احملها إلى هنا». وأتى الرجل بالقصبات. فأخذ القيّوط عصاً وأخذ يضرب بها القصب حتى أحاله نُتفاً وأصبح لديه كومة من لحاء القصب الممزق. وعندما قدم الليل أخذ لوناً أزرق غامقاً وصار يفرك به مِزَق اللحاء حتى أصبحت زرق اللون، وعندما استمر في فركها استحالت هذه المِزقُ إلى لون السواد. لقد أصبحت سوداً كأنها شعر واحد من بني الإنسان. وفي صباح اليوم التالي بعد شروق الشمس استدعى أصدقاءه ووضع على رأسه مِزقَ اللحاء فكانت كأنها شعر طويل ينسدل حتى الأرض. وعندما وصل أصدقاؤه أنكروه ولم يعرفوه وظنوه شخصاً آخر. عند ذلك أرسلهم إلى بيوتهم وخلع غطاء شعره من اللحاء فغطاه ووضعه إلى جانبه.

وفي هذه الأثناء كانت القبائل المختلفة التي استدعاها قد بدأت بالوصول. وكان الواصلون هم الرجال وحدهم وليس كل الشعب. وقد أتوا إلى خيمته وتحلقوا حوله على صفوف متعددة ليستمعوا إليه. عند ذلك وجه القيّوط سؤاله للجميع عما إذا كانوا يعرفون ماهية الشيء الذي حمله الهواء ومن أين أتى وما إذا كان قد وصل من الأعلى. وأخذ يمرره من يد إلى يد دون أن يتمكن أحد من الموجودين من الاجابة على ما وجهه إليهم من

أسئلة. عند ذلك قال القيّوط: «إنني أنوي الذهاب لمطاردة هذا الشيء، وسأجد من أين أتى وإلى أية قبيلة يخص وما إذا كان قد قدم من السماء وأريد منكم أن تبحثوا معي. وعلى كل منكم أن ينظر في المكان الذي يعتقد أنه جدير بأن يبحث فيه. من أجل هذا استدعيتكم، وسنمضي عند الصباح».

وما أن قدم الصباح حتى اتجهوا كلهم إلى الغرب معتقدين أن هذا الشيء الغامض لا يمكن أن يأتي إلا من هذا الاتجاه. وهكذا سافروا عبر الجبال والوديان أياماً عديدة حتى أرسل القيّوط في أحد الأيام صقراً ذا ذنب أحمر ليكون دليلاً لهم وهادياً. وطار الصقر عالياً جداً ولكنه عاد متعباً جداً وقال إنه لم يتمكن من رؤية أي شيء. عند ذلك أرسل القيّوط العُقاب. فحام في الجو حتى اختفى عن الأنظار وذهب إلى أبعاد لم يصل إليها الصقر، ولكن عاد هو الآخر تعباً وقال إنه لم يتمكن من رؤية شيء سوى الأرض التي بدت له مسودة بالدخان بعض الشيء. وظن الآخرون أن العصفور الطنان هو خير من يصلح لهذه المهمة وأن على القيّوط أن يسأله «فهو قادر على أن يفعل ذلك خيراً من العقاب» كما قالوا للقيّوط. وأرسل القيّوط العصفور الطنان، فطار وبقي غائباً مدة طويلة من الزمان أكثر مما فعله الصقر والعقاب ثم عاد ليقول: «عند طرف الأرض، هناك حيث تلتقي السماء، رأيت شيئاً منتصباً، هناك في مكان بعيد جداً. وكان شيئاً أسود ينتصب وفي قمته انحناء. هذا كل ما رأيت». فسر القيّوط سروراً كبيراً من هذه المعلومات التي تلقاها من الطنان وقال: «هذا ما توقعت أن يراه أحدكم، وهذا ما سنسعى للبحث عنه. فمن هذا الشيء هناك أتى هذا الشيء الذي وجدناه».

وساروا مجتازين الجبال واحداً بعد آخر ونازلين إلى السهل الذي يقع على المنحدر المقابل حتى وصلوا إلى آخر الجبال. عند ذلك أخذ القيّوط بتزيين نفسه واضعاً اللحاء فوق شعره ويحمله مِن حوله. وقد جعل له فرقاً في الوسط نزلت منه ضفيرتان حتى القدمين. ولكنه قبل أن يتم زينته أرسل

العقاب في الهواء فطار وعاد ليقول: «لم نعد بعيدين جداً، فأنا الآن أرى ما رآه الطنان. نحن قريبون الآن من المكان».

ثم وصلوا بعد ذلك إلى قرية تقع فوق تلة مسطحة، فوجه القيّوط إلى أصدقائه هذا الكلام: «إننا لم نحرق شيئاً حتى الآن. لقد وصلنا إلى قرب النار، وهي ما أتينا نسعى إليه، وسننتزعها من هؤلاء القوم حتى لا يبقى لهم منها شيء. فهناك حيث مصدر النار لن يكون بعد اليوم نار، لأننا سنحملها إلى المكان الذي نعيش فيه ونمتلكها فوق أرضنا. وقد نويت أن أستفيد من هذا الشعر المستعار لأجتذبهم بواسطته، وسأخدع هؤلاء القوم الذين يمتلكون النار».

وعلى هذا دخلوا القرية وتوجهوا إلى أول خيمة في طريقهم ليقوم القيّوط بالسؤال عن مسكن الرئيس. فدلوه عليه وتوجه إلى هناك حيث قام بمصافحته. وقد قال للرئيس إنه قام بسفر طويل وليس له من غاية إلا أن يراه وأنه يتمنى على الرئيس أن ينظم حفلاً راقصاً لأنه وشعبه يحبون مشاهدة الرقص. ووافق الرئيس على ذلك فجمع كل شعبه لهذا الحفل بما في ذلك النساء والأطفال بحيث لم يبق أحد في الخيام. واقترح القيّوط أن تطفأ كل النيران ما عدا ناراً كبيرة تتقد أمام الحفل. وعند ذلك نشر القيّوط لحاءه وارتداه وظن الناس أنه ذاهب للرقص فلم يخيب رجاءهم واستمر يرقص طول الليل دون توقف.

وعندما بدت تباشير الصباح أصدر القيّوط صراخاً عالياً لتحذير شعبه. ولما أصبح النهار أكثر ضياء اقترب من النار وصرخ من جديد وهو يرقص حولها، بينما انفصل قومه عن الآخرين وتهيؤوا للرحيل، وفي هذه اللحظة نزع القيّوط عنه شعره المستعار من اللحاء فأمسكه بيديه وضرب النار به حتى أطفأها. ولكن النار أمسكت باللحاء الممزق فسحبها وراءه وأطلق ساقيه للريح. وركض معه كل رجاله بينما لم يبق لسكان القرية شيء من النار لأنها كانت قد أطفئت كلها. وفهموا عند ذلك نية الخيانة التي كان يضمرها هؤلاء الذين قدموا عليهم فأخذوا بمطاردتهم من أجل قتلهم والانتقام منهم. وبينما

كان الهاربون يركضون قام القيّوط فرمى النار إلى العُقاب قائلاً: «تستطيع أن تجري أسرع مني فخذ هذه أيها الصديق». فأخذها العقاب وجرى حتى تعب بمضي الوقت فأعطاها للطنّان. ثم أعطاها هذا لغيره حتى تعبت كل الطيور البطيئة واحدة بعد أخرى وتخلت عن السباق محاولة أن تختبىء بمقدار ما تستطيع، ولم يبق بينها من يتابعونه إلا الأفضل والأسرع. وعندما رأى القيّوط اقتراب من يلاحقونهم اختار الصقر الفتي باعتباره أسرع الطيور وقدم إليه النار. ثم ما لبث القيّوط أن استلم النار بنفسه وجرى وهو يقول لرجاله أن يتبعوه بأقصى سرعة يستطيعونها. ثم عاد العصفور الطنان وأخذ النار من القيّوط وطار في المقدمة فصاح به القيّوط: قف، إن النار تكاد تنطفىء»، فاغتاظ الطنان من ذلك وأعاد النار إلى القيّوط وابتعد مفتشاً عن مخبأ من شدة الغيظ.

ولم يكن قد بقي إلا أربعة من الهاربين: القيّوط والعقاب والصقر الفتي والسميرانث (نوع من الطيور الامريكية). أما الآخرون فكانوا قد أُنهكوا وانفرط عقدهم. وفي النهاية تبعهم العقاب والصقر الفتي والسميرانث فتخلوا عن السباق وبقي القيّوط وحده راكضاً وحاملاً للنار. واقترب الملاحقون منه وفي نيتهم أن يقتلوه، فلجأ إلى جحر وأغلقه من الداخل بحجر وأخذ يذكي ما بقي من النار من شرارات. ثم خرج من الجحر مغيراً اتجاهه واجتاز مجرى مائياً عميقاً بحيث أصبح هذا المجرى حاجزاً بينه وبين ملاحقيه، فما لبثوا أن قطعوا الأمل بالإمساك به وقالوا: «فليذهب، فإننا سنجعل السماء تثلج وتمطر، وسنثير عاصفة هوجاء نجعل بردها مميتاً، وسنطفىء النار». وأمطرت السماء حتى امتلأت كل الحفر والوديان بالمياه حتى بلغت الرُكب. وظن القيّوط أن النار لن تلبث أن تنطفىء، فنظر إلى تلة صغيرة تعلوها أشجار من الأرز واعتقد أن بإمكانه أن يكون في أمان هناك طالما بقيت الوديان مليئة بالمياه.

ولكنه قبل أن يبلغ ذروة التلة رأى أرنباً ذا ذنب أسود يجلس في الماء. فأعطاه النار ليمسكها فوضعها تحته تماماً. ولكن القيّوط قال له: «لا تفعل

ذلك، فأنت في الماء وستطفىء النار». عند ذلك رد الأرنب النار إليه ودله على مغارة قريبة قال له إنه سيجد فيها ملجأ له. وعندما دخل القيّوط إليها وجد فيها عساليج* وإبراً جافة من شجر الأرز، فكوّمها وأشعل بها النار التي يحملها. ولقد كان يرتجف من القر في بادىء الأمر، ولكن عندما اتقدت النار انتشر الدفء وأحس بالراحة التامة. على الرغم من أن الثلج كان يتساقط في الخارج ورغم البرودة الشديدة التي كانت تلف الجو والتي سببها اولئك الذين كانوا يلاحقونه على أمل أن تتسبب بتجميده. وفي الصباح كانت السماء صافية ليس فيها غيوم ولكن الصقيع كان ينتشر في كل مكان. ثم ما لبث أن هب ريح الجنوب فأذاب كل الصقيع. وعندما خرج القيّوط من مكمنه وجد الأرنب جالساً حيث تركه بالأمس، فجذبه القيّوط إليه وقتله ثم عاد إلى المغارة فأخذ قطعة عتيقة جافة من الأرطماسية (نوع من شجر عطر) وحفر فيها ثقباً ملأه بجمرات من النار وسده بإحكام. وكان بعمله هذا يظن أنه سيحفظ النار سليمة وبعيدة عن الانطفاء.

بعد ذلك وضع القيّوط النار التي حفظها بهذه الطريقة في زناره وتوجه عائداً إلى منزله. وهناك وضع أنبوب الأرطماسية الذي كان يحتوي على النار. ثم استدعى الرجال القلائل الذين كانوا قد مكثوا في القرية مع النساء والأطفال، فلما اجتمعوا أخذ النار التي كانت تشبه عصاً وشحذ قطعة من الأنسيرين* القاسي وقال: «هيا الآن وانظروا كلكم». ثم طلب من اثنين من الرجال أن يمسكا قضيب الأرطماسية ويثبتاه بشدة على الأرض وأخذ يحفره بقطعة الأنسيرين ويجمع ما ينجم عن عملية الحفر من فتات فيضعه على العشب اليابس. وما أن أخذ ينفخ على هذا العشب حتى اتقدت فيه النار. ثم توجه إليهم وقال: «وهذه الثمرة الجافة من الصنوبر ستحترق. والأرز اليابس سيحترق أيضاً. فهيا خذوا النار إلى كل مضاربكم لأنها ستكون

---

* العُسلوج: هو الغصن الدقيق من الشجر. ـ المترجم ـ
* الأنسيرين ANSÉRINE نوع من النبات يسمى بالعربية «رِجل الأوز». ـ المترجم ـ

موجودة في كل بيت». هكذا تكلم القيّوط. وفي هذه الأثناء كانت كل الطيور التي كانت متعبة ومختبئة أثناء رحلة الملاحقة قد وصلت إلى القرية. ولكنها وصلت طائرة إلى نفس الأماكن التي كانت قد خرجت منها، ولذلك بقيت كلها طيوراً من ذلك الوقت.

ولا شك أن الغاية من هذه القصة كلها هي أن توضح طريقة إشعال النـار بحـك قطعة من الأنسيرين في ثقب من أرطماسية طرية. وفي هذه القصـة كمـا في كثير من الأساطير نرى القائمين بالأدوار يشبهون الرجال والنساء في بعض الأحيان أو هم حيوانات أو طيور في أحيان أخرى. والحد بين هذين الجنسين إنما رسم بيد مترددة غير واثقة لأن عقل الراوي امتزج فيه هذان النوعان من الكائنات امتزاجاً كاملاً.

وتستبـدل بعض الحكـايات التي يرددهـا هنود الجنوب الشرقي من الولايات المتحدة الأرنب بالقيّوط سارقاً للنار. وهكذا يقول الهنود الكريك إن الناس اجتمعوا ذات مرة وتساءلوا: «كيف يمكننا أن نحصل على النار؟»، ووقع اختيارهم على الأرنـب ليحاول ذلك. فاجتاز الماء الكبير الواقع إلى الشرق، وهناك استُقبل استقبالاً مفرحاً باحتفال راقص نظم على شرفه. وقد دخل الأرنب في حلقة الرقص من هذا الاحتفال وهو يلبس لباساً أنيقاً ويعتمر قلنسوة متفردة غرز فيها أربعاً من عصي الصنوبر الراتنجية. وكلما كان الناس يتمادون في رقصهم كلما كانوا يقتربون أكثر فأكثر من النار المقدسة القائمة في وسط الحلقـة، وكان الأرنب بين هؤلاء المقتربين. ثم أخذ الراقصون يقدمون تحياتهم للنار وهم يطأطئون لها أكثر فأكثر، وكان الأرنب يقدم أيضاً تحياته للنار ويطاطىء لها أكثر فأكثر. وبما أنه انحنى فجأة أكثر من اللازم أمسكت النار بعصي الصنوبر الراتنجية الموضوعة في قلنسوته حتى أصبح رأسه مشعلاً من اللهيب. وقد خجل الناس من هذا الغريب الملحد الكافر الذي تجرأ على أن يلمس النار المقدسة. فتقدموا إليه مغتاظين، ولكنه لاذ بالفرار والناس يلاحقون خطاه. وقد جرى حتى الماء الكبير حيث غطس فيه بينما وقف الآخرون على الشط. وتمكن الأرنب من أن يجتاز الماء الكبير

سباحة واللهيب يلمع فوق قلنسوته حتى عاد إلى شعبه الذي تلقي النار على هذه الصورة من الشرق.

ويبدو أن «الماء الشرقي الكبير» في هذه الأسطورة هو المحيط الأطلسي. وهذا الاستنتاج يؤكده نص أكثر كمالاً للأسطورة نفسها يرويه هنود الكواساتي. فهم يقولون إنه في البدء لم يكن ثمة نار في بلادهم، بل كانوا يجدونها فقط على الطرف الآخر من المحيط. وكان الناس يريدون النار ولكن ممتلكيها لم يكونوا يشاؤون أن يعطوهم منها شيئاً. فكان لابد للكواساتي إذن من أن يعبروا إلى هناك. فقال الأرنب: «إنني قادر على أن أجلب لكم النار». فقال رجل جالس في وسطهم وعنده عدة بنات: «سأقدم واحدة من بناتي الصبايا هؤلاء لأي رجل يستطيع أن يجلب لنا النار». فقال الأرنب: «إن امرأة واحدة لا تكفيني». وقال آكل الرجال الكبير: «إنني أستطيع أن آتيكم بالنار». فأجابه الرجل ذو البنات: «حسن، هيا وائتنا بها». وبما أن آكل الرجال الكبير كان بحاجة إلى امرأة فإنه مضى غاطساً في الماء ولكنه لم يعد ولم يره أحد منذ ذلك الحين.

عند ذلك قال الأرنب: «إن أحداً لا يستطيع أن ينجح، أما أنا فإنني أعرف طريق النجاح». فأرسله الرجل ذو البنات ليأتي بالنار، ولكن الأرنب قال: «حسن سأذهب للبحث عن النار، ولكنني سأنام مع كل هؤلاء الصبايا». فأجابه الرجل إلى مبتغاه. ومضى الأرنب. وعندما وصل إلى الشط نزع قميصه ورماه في الماء ووضع خشبة فوقه فاعتلاهما واجتاز الماء على هذا المنوال حتى أكمل رحلته العتيدة. فلما سأل السكان أن يعطوه ناراً رفضوا أن يعطوه شيئاً منها، فأمسك ببعضها وجرى ولحق به الجميع. وقد جرى عبر الغابات حتى وصل إلى البحر. وهناك طلى رأسه بالقار. فلما أدركه أول ملاحقيه رمى بنفسه إلى الماء وأخذ يسبح وهو يحمل النار في إحدى يديه لتكون فوق الأمواج. ولما أدركه التعب بعد بعض الوقت وضع النار على رأسه فاشتعل القار بينما استمر هو في السباحة والنار في رأسه تشتعل. وهكذا اجتاز المحيط حتى وصل إلى الرجل الذي أرسله فقال له

هذا: «الآن أصبحت الصبايا ملك يديك»، فكان الأرنب سعيداً بذلك جداً.

كذلك يروي هنود الهيتشيتي كيف سرق الأرنب النار ووزعها على الناس كلهم. فهم يتكلمون عن عصر لم تكن النار فيه، في الواقع، مجهولة تماماً وإنما جرت العادة أن يمنع إيقادها في أي مكان خارج أرض طقسية كانت تقام فيها احتفالات مقدسة ويدور فيها رقص رسمي في هذه المناسبات. وكان الأرنب يعرف أن رقصاً سيجري فوق أرض الطقوس فقال لنفسه: «سأتمكن من الحصول على بعض النار». وبعد أن فكر بهذا الموضوع خطط للطريقة التي توصله إلى ذلك. ثم طلى رأسه بالقار ليصبح شعره منتصباً ومضى لتنفيذ خطته. وعندما وصل إلى الأرض المقدسة كان يتجمع فوقها جمهور كبير. وجلس ينظر إلى الراقصين حتى اقتربوا منه وطلبوا إليه أن يقود الرقص. فقبل ونهض ليرقص حول النار وهو يغني ويردد معه الراقصون. وتسارع الرقص شيئاً فشيئاً. وبينما كان الأرنب يرقص حول النار كان ينحني بين الفينة والأخرى كما لو أنه كان يريد أن تمسك النار برأسه. وقد حدث ذلك: «فبينما كان الأرنب يقود الرقص كان تصرفه دائماً ينبىء عن ذلك». وأخيراً أدخل رأسه في اللهيب ولاذ بالفرار بينما كان رأسه يشتعل. وتبعه الناس بضجيج وصراخ وهم يزمجرون: «أوهي، أمسكوه واقتلوه». ولكنه استمر في الفرار والآخرون في أعقابه دون أن يتمكنوا من الإمساك به حتى غاب عن الأنظار. عند ذلك أمطرت السماء لمدة ثلاثة أيام بكاملها فقال الناس في اليوم الرابع: «لابد أن المطر قد أطفأ النار». وتوقف المطر وبزغت الشمس من جديد وأصبح الطقس صحواً وجميلاً. وكان الأرنب خلال المطر قد أشعل ناراً في تجويف شجرة لجأ اليه، فلما صحا الطقس وبزغت الشمس خرج منه وهو يحمل النار. ولكن المطر ما لبث أن هطل من جديد وأطفأ كل النيران عدا النار التي كان الأرنب قد احتفظ بها في تجويف الشجرة. وحدث مثل ذلك عدة مرات. ولكن على الرغم من غزارة الامطار فإنها لم تتمكن من أن تطفىء إلا ما كان يحمله الأرنب إلى خارج الشجرة

أثناء فواصل الصحو. وهكذا أصبح الناس يفدون إليه ليأخذوا الجذوات الحارة ويحملونها معهم حتى وزع الأرنب النار في جميع البلاد.

أما هنود الألاباما فإن لديهم في أصل النار أسطورة مختلفة. فهم يقولون إن الدببة في الأصل هم الذين كانوا يملكون النار ويحملونها دائماً معهم. وفي إحدى المرات وضعوها على الأرض وأكملوا طريقهم وهم يقضمون ثمر البلوط. وكادت النار تنطفىء بعدما أهملت على هذا الشكل، فصاحت من يأسها: «أطعموني!». وسمع صراخها بعض الكائنات البشرية فأتوا لنجدتها. فأتوا بعصا من الشمال ووضعوها فوقها. وأتوا بعصا من الغرب فوضعوها فوقها. وأتوا بعصا من الجنوب فوضعوها فوقها. وأتوا بعصا من الشرق فوضعوها فوقها، فاشتعلت. ولما عاد الدببة ليحملوها معهم قالت لهم: «إنني لا أعرفكم أبداً». ومنذ ذلك الوقت لم يعد لدى الدببة نار لأنها أصبحت ملكاً للبشر.

ولدى هنود الشيين قصة يتوارثونها مفادها أن الرعد قام في العصور الأولى من العالم بتعليم أحد جدودهم صناعة النار عن طريق «غابة النار»*. وكان اسم هذا الجد «الجذر اللطيف». وبموجب هذه الحكاية فإن الرعد تلقى من الثور الوحشي BISON شظية من الخشب هي التي تستعمل في إيقاد النار. وقال الرعد للجذر اللطيف: «خذ عصاً وسأعلمك شيئاً سيتمكن إخوتك بفضله من أن يتدفئوا ويطهوا طعامهم وأن يحرقوا الأشياء». فعندما أتى الجذر اللطيف بالعصا قال له الرعد: «ضع الحد في وسط نشارة دقيقة وأمسكها جيداً بين يديك وأدرها بسرعة هناك». ففعل الجذر اللطيف ذلك عدة مرات حتى أمسكت النار بالنشارة فتسلح بها الناس بفضل الرعد ضد العاصفة (التي يسميها الهنود هوإيماها، وترجمتها الحرفية رجل الشتاء) التي تجلب البرد والثلج، وأصبح لدى الناس بذلك وسيلة للدفء.

---

* ذكرنا فيما مضى أن غابة النار هي مجموعة الأدوات التي تستعمل لتوليد النار عن طريق الحك. ـ المترجم ـ

وتوجد عند السيو والمينوموني والثعالب وقبائل هندية كثيرة تعيش في وادي الميسيسيبي رواية تقول بحدوث طوفان غرق به كل سكان الأرض باستثناء رجل وامرأة. وقد لجأ هذان الناجيان المتفردان إلى رأس جبل عال شعرا فيه في عزلتهما أنهما بحاجة إلى النار. فأرسلها لهما إله الحياة مع غراب أبيض توقف في الطريق ليلتهم رمّة فترك النار تنطفىء. فعاد إلى السماء ليأتي بنار أخرى ولكن الروح الأكبر طرده وعاقبه بأن جعله أسود اللون بعد أن كان أبيض. ثم أرسل الروح الأكبر رسولاً له هو اربيت ERBETTE (عصفور صغير رمادي اللون) ليحمل النار إلى الناجيين. وفعل العصفور ما أمر به وعاد فقدم تقريره إلى الروح الأكبر فكافأه بأن منحه علامتين سوداوين على كل طرف من عينيه. ومن أجل ذلك يكن الهنود لهذا العصفور كل احترام فلا يقتلونه أبداً ويمنعون أطفالهم من إيذائه ويحاكونه بأن يرسموا علامتين سوداوين على كل طرف من عيونهم.

أما هنود الأوماها فيقولون إن أجدادهم فيما مضى لم يكن لديهم نار، فكانوا يعانون من البرد. ففكروا: «ماذا نفعل؟». ووجد أحد الرجال جذر دردار جافاً جداً، فحفر فيه ثقباً وضع فيه عصا وأخذ يحكها فما لبث أن ظهر الدخان الذي شمه كما شمه بقية الرجال. فاقتربوا وقام بعضهم يساعده بالحك حتى انبثقت في النهاية شرارة من النار. فأخذوا ينفخون عليها حتى انبعث اللهب. وعلى هذه الطريقة أتت النار ليتدفأ بها الناس ويطهوا عليها الطعام.

ويقول الشيبيوا أو الأوجيبواي، وهم زمرة كبيرة من القبائل تنتمي إلى الجنس المركزي من الألغونكان، يقولون إن الناس في البدء لم يكونوا متعلمين، فلم يكن عندهم ثياب ويجلسون دون أن يفعلوا أي شيء. فأرسل الروح الخالق رجلاً لتعليمهم. وكان اسم هذا الرجل أوكابيوي أي الرسول. وكان بعض هؤلاء الناس يعيشون في الجنوب حيث لم يكن لديهم حاجة إلى الثياب. أما الأناس الذين كانوا يعيشون في الشمال فكانوا يتعرضون للبرد فبدؤوا يهتمون بما يجب عليهم أن يفعلوا. وقد رأى الرسول أناس الجنوب

عراة وبدون مسكن فأسلمهم إلى أنفسهم. ثم تقدم إلى الشمال حيث رأى الناس يعانون من البرد ويحتاجون لمساعدته. فقال لهم: «لماذا أنتم تجلسون هكذا دون لباس؟». وأجابوه: «لأننا لا نعرف ما نصنع». وكان أول ما علمهم إياه إيقاد النار بواسطة قوس وعصا وقطعة من الخشب العفن. ولا يزال الشيبيوا يستعملون هذه الطريقة في إيقاد النار، أو على الأقل استمروا يستعملونها حتى عصر قريب من تاريخنا اليوم. ثم قام الرسول بتعليم السكان كيف يطهون لحومهم على النار.

بينما يقول هنود الشيروك إنه لم يكن في البدء نار وإن الأرض كانت باردة حتى بعثت الرعود بصواعقها فألهبت جوف شجرة جميز كانت تنبت فوق إحدى الجزر. وكان الحيوانات يعرفون أنها هناك لأنهم كانوا يستطيعون رؤية النار خارجة من ذروتها ولكنهم لا يستطيعون الحصول عليها بسبب المياه. وعند ذلك عقدوا مؤتمراً ليقرروا ما يجب عليهم أن يفعلوه.

وكان كل حيوان يستطيع السباحة أو الطيران يبدي رغبته الحارة في الذهاب لجلب النار. وكان الغراب من بينهم. وبما أنه كان كبيراً وقوياً فقد ظن أنه يستطيع بالتأكيد ان ينجز هذه المهمة بكاملها، فكان إذن أول من أرسلوه. فطار عالياً وبعيداً إلى الطرف الآخر من الماء وحط فوق شجرة الجميز. ولكن حرارتها سوّدت ريشه وأحرقته فخاف وعاد بخفي حنين. فتقدم البوم متطوعاً حتى وصل سليماً إلى الطرف الآخر من الماء. ولكنه بينما كان ينظر إلى الشجرة المجوفة خرجت منها زفرة من الهواء الحار كادت أن تحرق عينيه، فاضطر إلى العودة إلى بيته وكان عليه أن يمكث فيه مدة طويلة حتى عاد إليه النظر، ولا تزال عيناه حمراوين حتى اليوم. وذهب الخَبَل (طائر بحجم الغراب) والغراندوق (نوع من الطيور) ولكنهما عندما وصلا إلى الشجرة الجوفاء كانت النار تحترق بشدة حتى أن الدخان كاد يعمي عيونهما وتسبب لهما الرماد الذي تحمله الريح بدوائر بيض حول العينين. فكان لابد من أن يعودا بدون نار. ولكنهما بقيا مدة طويلة يفركان عيونهما دون أن يتمكنا من إزالة هاتين الدائرتين البيضاوين.

وعلى الأثر لم يعد أحد من الطيور يرغب في أن يعرض نفسه للأخطار. عند ذلك قال الثعبان الصغير أوكسوهي (اللون الأسود) بأنه سيجتاز الماء سباحة ويأتي لهم بالنار. وهكذا سبح حتى الجزيرة وأخذ يزحف نحو الشجرة عبر العشب حتى دخل اليها من خلال ثقب صغير في أسفلها. ومع ذلك كانت الحرارة عالية والدخان شديداً عليه أيضاً. وبعد أن تلوى وقد عمي من الدخان عبر جذوات النار كان سعيداً بأن يخرج من الثقب الذي دخل منه، ولكن جسده أصبح الآن أسود، ومنذ ذلك الوقت أصبح من عادته أن يتقدم ثم ما يلبث أن يعود أدراجه كما لو أنه يحاول التخلص من شيء يضغط عليه عن قرب. عند ذلك تقدم الثعبان الكبير الأسود غوليجي «أي المتسلق» وعرض أن يذهب للاتيان بالنار. وقد أدرك الجزيرة سباحة وتسلق الشجرة من الخارج كما يفعل الثعبان الكبير الأسود دائماً، ولكن ما كاد يدخل رأسه في الثقب حتى خنقه الدخان لدرجة أنه سقط عن الأرومة الحارقة، وقبل ان يتمكن من الخروج أصبح أسود كما هو حال الثعبان الصغير أوكسوهي.

وعلى هذا عقدت الحيوانات مؤتمراً آخر. ذلك لأنها طالما بقيت بدون نار فإن البرد كان يزداد، وأصبحت الطيور والأفاعي وذوات الأربع تخاف الآن كلها من الاقتراب من شجرة الجميز التي كانت تحترق. عند ذلك عرضت عنكبوت الماء أن تذهب هي في هذه المهمة. ولم تكن هذه العنكبوت هي تلك التي تشبه البعوضة وإنما هي الأخرى ذات الزغب المخططة بخطوط حمر على جسدها. وكانت تستطيع الجري فوق الماء أو الغطس في نفس الوقت. فكان من السهل عليها إذن أن تجتاز الجزيرة، ولكن كيف كان بإمكانها ان تجلب النار؟. تلك كانت المشكلة «سأتوصل إلى إيجاد حل لهذا»، كذلك قالت العنكبوت. وغزلت خيطاً خارج جسمها عقدته على ظهرها واجتازت الجزيرة وشقت لها طريقاً بين الأعشاب حتى بلغت الشجرة التي كانت النار لا تزال تشتعل فيها. ثم وضعت جمرة صغيرة فوق طين وضعته على ظهرها وعادت أدراجها. ومنذ ذلك الوقت أصبحنا

نمتلك النار، بينما احتفظت العنكبوت بالحز الذي سببه الخيط في جسدها.

ويبدو أن هذه الأسطورة إنما كان الهدف منها تفسير المظهر الخاص لبعض الحيوانات أو بعض الطيور وطرائق سلوكها. أما تفسير أصل النار فيحتل المكان الثاني، وليس ثمة أية محاولة لحل معضلة النار المختبئة في الأخشاب أو في الأحجار.

أما هنود الكاروك الذين يقطنون كاليفورنيا فيتحدثون عن عصر في الأزمان الأولى من العالم لم يكن فيه جدودهم يمتلكون النار بسبب أن الخالق كاريا KAREYA الذي خلق الناس والحيوانات لم يزودهم بنار. بل على العكس من ذلك فإنه كان يخفيها في صندوق جعل على حراسته ساحرتين عجوزين خوفاً من ان يسرقه واحد من الكاروك. وكان القيّوط يومئذ على علاقات حسنة مع الكاروك فوعدهم بأن يجلب لهم النار. وأخذ يحشد جيشاً من الحيوانات آخذاً واحداً من كل منهم بدءاً من الأسد* وانتهاء بالضفدع وواضعاً إياهم صفاً على كل طرف من الطريق الواصل بين بلاد الكاروك وبين البلاد البعيدة التي تختبىء فيها النار. وكانت الحيوانات مصفوفة بحسب قوتها، فالأضعف بالقرب من الكاروك والأقوى بالقرب من النار. ثم قاد معه أحد الهنود وخبأه وراء تلة وذهب بعد ذلك إلى كوخ الساحرتين اللتين كانتا تحرسان الصندوق وقرع عليهما الباب. فخرجت إحداهما فقال لها: «مساء الخير»، فأجابتا: «يَسعد مساؤك». فقال لهما: «إنها ليلة شديدة البرودة، أما تتركانني أجلس بجانب ناركما؟». فأجابتا: «أجل، على الرحب والسعة». فدخل وتمدد أمام النار ومد بوزه نحو اللهب فأحس بالدفء ووجد نفسه على راحة كأحسن ما يكون. وأخيراً وضع أنفه بين قائمتيه وتظاهر بالنوم على الرغم من أنه كان مفتوح العينين ولا يغفل عن مراقبة العجوزين. ولكنهما لم تكونا تنامان أبداً لا في الليل ولا في النهار، وبقي طول ليلته يراقبهما دون أن يتوصل معهما إلى خطة للعمل.

---

* مما لاشك فيه أن المقصود بالأسد هنا هو الكوجر أو الأسد الأمريكي.

وفي صباح اليوم التالي خرج وقال للهندي الذي خبأه وراء التلة أن عليه أن يحاول القيام بهجوم على بيت الساحرتين وكأنه يريد أن يسرق النار، في الوقت الذي يكون فيه القيّوط موجوداً هناك. ثم عاد وطلب من الساحرتين أن تسمحا له بالدخول من جديد. وهذا ما فعلتاه لأنهما لم تكونا تفكران بأن الهندي يمكن أن يسرق منهما النار. وبقي القيّوط قريباً من صندوق النار، فلما هجم الهندي على غرفة الساحرتين ووثبتا عليه من أحد الأبواب أمسك القيّوط بجذوة بين أسنانه وهرب بها من الباب الآخر. ورغم أنه كان يكاد أن يطير طيراناً فوق الأرض فإن الساحرتين أبصرتا بالشرارات المنبعثة من الجذوة وجدّتا في أثره. وقد تمكنتا من قطع الطريق عليه بسرعة لم يكن يتوقعها. ولكن في اللحظة التي أصبح فيها على آخر أنفاسه أدرك الأسد الذي أخذ الجذوة منه وجرى بها حتى موقع الحيوان التالي. وهكذا كان كل حيوان لا يستطيع إلا بشق النفس أن يوصل الجذوة إلى الحيوان الذي يليه قبل أن تتمكن الساحرتان منه.

وكان الحيوان ما قبل الأخير في الخط هو السنجاب. فأخذ الجذوة فوق ظهره فحرقت المكان الأسود الذي لا نزال نراه حتى اليوم بين كتفيه. وكانت الضفدع آخر حيوانات الخط. وقد رمى السنجاب بالنار لها فابتلعتها بلقمة واحدة ثم استدارت وقامت بقفزة كبيرة لم تنقذها من يد إحدى الساحرتين التي كانت قريبة منها، فأمسكت بها من ذنبها (لأنها كانت يومذاك من أصحاب الأذناب) واقتلعته. ومنذ ذلك الوقت أصبحتِ الضفادع بدون أذناب. ثم سبحت تحت الماء مدة طويلة هي أقصى ما تستطيع خلالها أن تحبس أنفاسها، وخرجت بعدها لتبصق النار في طرف خشبة كانت هناك، ومنذ ذلك الوقت بقيت النار في الخشب. ويستطيع الهندي حتى اليوم أن يحك قطعتين من الخشب إحداهما بالأخرى فتنبثق منهما النار.

ويتحدث هنود تولوا عن طوفان غرق فيه كل الهنود إلا زوجين نجيا عندما استقرا عند انحسار الماء على قمة أعلى الجبال. ولكن المياه عندما انحسرت لم يعد لديهما نار. وعلى الرغم من أن الأرض بعد ذلك عمرت

بالناس بفضل جهودهما المشكورة فإن هؤلاء الناس بقوا محرومين من النار. وكانوا ينظرون إلى القمر نظرة حسد معتقدين أنه يملك الكنز الذي حُرموا منه. وأخيراً وضع الهنود العناكبُ والهنود الثعابينُ خطة لسرقة النار من القمر. ومن أجل أن يصلوا بها إلى غايتها نسج الهنود العناكب منطاداً من خيوط العذراء وربطوه بالأرض بحبل طويل كانوا يغزلونه عندما كانوا يصعدون بالمنطاد نحو مدار القمر. وقد وصلوا مع الزمن إلى مقصدهم، ولكن هنود القمر كانوا ينظرون إليهم من علٍ مخمنين الغاية من بعثتهم تلك. ومع ذلك تمكن الهنود العناكب من أن يقنعوا سكان القمر بأنهم إنما قدموا للتسلية فحسب. فكان هنود القمر سعداء بذلك واقترحوا أن يبدؤوا الحفلة على الفور. ولكن بينما كانوا جالسين يلعبون قرب النار وصل هندي ثعبان إلى المسرح متسلقاً الحبل الممدود وانقض على النار ولاذ بالفرار قبل أن يعود هنود القمر من دهشتهم. وعندما عاد إلى الأرض جعل النار تستقر في كل الصخور وكل الأخشاب وكل العصي، وكل ما لمسته أصبح يحتوي على النار منذ ذلك العصر، وسعدت بذلك قلوب الهنود. وبما أن النار بقيت مستمرة منذ ذلك الزمان فإن الهنود الثعابين هنؤوا بعضهم بعضاً على ما أحرزوه من نجاح.

ويعتقد هنود الباووم بومو من كاليفورنيا أن الصاعقة كانت أصل النار على الأرض. فهم يظنون أن أول ضربة رعد سقطت من السماء خزنت شراراتها في الخشب الذي يمكن إخراجها منه بحك قطعتين من الخشب إحداهما بالأخرى.

ويظن هنود الغالينوميرو من كالفورنيا أن القيّوط هو أول من أنتج النار بحك قطعتين من الخشب سوية بقائمتيه وأن هذا الحيوان الأريب حفظ النار في جذوع الأشجار حتى اليوم.

ويظن هنود الأشوماوي من كاليفورنيا أن أرضنا إنما خلقها القيّوط والعُقاب، أو بالأحرى بدأ بها القيّوط وأنهاها العقاب. والقيّوط هوا لذي أدخل اليها النار في النهاية لأن الهنود كانوا يرتعدون من البرد. فقد سافر

بعيداً نحو الغرب حتى وصل إلى المكان الذي توجد فيه النار فحملها في أذنيه وأوقدها في الجبال فرأى الهنود الدخان فقدموا ونالوا مبتغاهم. وهكذا تدفئوا على راحتهم وحافظوا على نارهم دائماً منذ ذلك الوقت.

ويقـول هنود النيشينام من كاليفورنيا إنه بعد أن خلق القيّوط العالم وساكنيه كان ينقصه شيء واحد هو النار. وكان يوجد منها في بلاد الغرب الشيء الكثير ولكن أحداً لم يكن يستطيع أن يحصل عليها لأنها كانت بعيدة جداً ومخبأة بكل عناية عن العيون. عند ذلك اقترح الوطواط على الحرذون أن يذهب لسرقتها، ففعل ذلك وأخذ قطعة كبيرة من الجمر ولكنه وجد أنه من الصعب جداً حملها لأن كل واحد كان يريد أن يسرقها منه. وأخيراً وصل إلى الطرف الغربي من وادي سكرامنتو. وكان عليه أن يكون حريصاً جداً عند اجتيازه مع النار من أن يحرق البلاد. ومن أجل ان يمنع العشب اليابس من أن تمسك به النار، واللصوص من أن يسرقوا منه كنزه الثمين، وجب عليه أن يسافر في الليل. وفي إحدى الليالي، بينما كاد أن يصل إلى تلال الطرف الشرقي من الوادي، كان من سوء حظه أنه وقع على زمرة من كراكي الكثبان كانت تمضي ليلها في اللعب. فانسل بكل حذر على طول جذع إحدى الأشجار ماسكاً النار بيده، ولكن الكركي اكتشفت أمره وقامت بمطاردته. وكانت قوائم الكركي طويلة جداً لدرجة أنه لم يكن لديه أمل في التخلص، فوجب عليه إذن أن يضع النار في العشب ويتركه يحترق فوق الجبال. وما لبـث أن اشتعلت نار مزمجـرة، وكـان عليه أن يركض بأقصى سرعتـه لمسابقتها. وعندما رأى الوطواط قدوم النار التي لم يكن معتاداً عليها أصبح نصف أعمى وأصابه وجع أليم في عينيه. وصرخ في الحرذون أنه يكاد يفقد عينيه ورجاه أن يسترهما له بالقار. وأطاع الحرذون. ولكنه فرك القار بقوة على عينيه حتى أن الوطواط لم يعد يرى شيئاً قط. وبعد أن أصبح الوطواط أعمى على هذه الصورة أخذ يحجل ويرفرف ويطير هنا وهناك، واحترق رأسه كما احترق ذنبه. ثم طار نحو الغرب وهو يصرخ بأعلى صوته: «اصفري أيتها الريح». وسمعته الريح فصفرت ونفخت على عينيه ولكنها لم تستطع

أن تزيل عنهما كل القار. وها هو ذا لا يزال يعاني من نظره المشوش حتى اليوم. وبما أنه كان في وسط النار فإنه أصبح أسود تماماً وله هيئة كائن محروق.

أما هنود المايدو في كاليفورنيا فيقولون إن الناس كانوا قد وجدوا النار ذات مرة وكانوا على وشك أن يستعملوها لولا أن الرعد أراد أن يسحبها منهم لأنه كان يرغب بأن يكون الوحيد الذي يمتلك النار. وقد اعتقد أنه لو تمكن مع صنع النار فإنه سيستطيع أن يقتل كل البشر. وقد نجح بعد فترة من الوقت وحمل النار إلى منزله الذي كان يقع بعيداً إلى الجنوب. ثم كلف الووسووزيم (وهو طائر صغير) بأن يحرس له النار ويحرص على ألا ينالها أحد. وكان الرعد يعتقد أن بني الإنسان سوف يموتون بعد أن سرق منهم النار لأنهم لن يتمكنوا من طهو طعامهم، ولكن الناس استطاعوا أن يتدبروا أمرهم بدون نار. فكانوا يأكلون الغالبية العظمى من مآكلهم نيئة ويكلفون التوسكوم (عصفور صغير آخر) أحياناً أخرى بأن ينظر خلال مدة طويلة إلى قطعة من اللحم بعينيه الحمراوين جداً، وعندما ينظر إلى اللحم هذه المدة الطويلة ينضج تماماً كما لو أنه وضع على نار. ولكن الزعماء وحدهم هم الذين كانوا يطهون طعامهم على هذه الطريقة.

وكان الناس جميعاً يعيشون سوية في مكان واحد كبير كأنه الجبل. وكان بين السكان الحرذون وأخوه، فكانا أول الصاعدين إلى السطح عند الصباح ليتدفؤوا بحرارة الشمس. وفي أحد الأيام بينما كانا يتطلعان إلى الأفق الغربي باتجاه السلسلة الساحلية رأيا دخاناً يتصاعد إلى السماء. فأنذرا بقية السكان قائلين لهم إنهما رأيا دخاناً بعيداً في جهة الغرب. ولم يشأ الآخرون أن يصدقوهما حتى أن القيّوط خرج ورماهما بالغبار والأقذار. ولكن هذا التصرف لم يعجب أحد الرجال فتقدم إلى القيّوط وأنبه على هذا العمل الذي لا يليق. عند ذلك تقدم الآخرون باعتذاراتهم أيضاً وسألوا الحرذونين عما رأياه ورجوهما ان يرياهم الدخان. وفعل الحرذونان ذلك، وتمكن الجميع من رؤية خيط الدخان الدقيق الذي كان يتصاعد بعيداً من

جهـة الغرب. وقال أحدهم: «كيف سنأتي بهذه النار؟ كيف نخطفها من الرعد؟. فهو رجل خبيث. وإنني أتساءل ما إذا كان علينا أن نحاول ذلك أم لا». فقال الزعيم عند ذلك: «إن الرجال الفضلاء يحسن بهم أن يحاولوا الذهاب إلى هناك. وإذا كان الرعد خبيثاً فإن علينا مع ذلك محاولة الحصول على النـار». وتم تكليف الفـأر والأيّل والكلب والقيّوط بأن يقـومـوا بهذه المحاولة، ولكن الجميع ذهبوا أيضاً إلى هناك. وقد أخذوا ناياً معهم وفي نيتهم أن يضعوا النار فيه.

وسافروا زمناً طويلاً حتى اقتربوا في النهاية من بيت الرعد حيث كانت توجـد النـار. وقد بدأ الووسووزيم الذي كان يفترض أنه حارس النار في المنزل، بدأ يغني: «أنا الرجل الذي لا ينام أبداً. أنا الرجل الذي لا ينام أبداً». وكان الرعد قد دفع له مقابل مهمته هذه لؤلؤاً كان يحمله طوقاً حول عنقه وقامته. وكان يجلس في قمة المنزل بالقرب من المدخنة. وبعد هنيهة أرسلوا الفـأر ليرى ما إذا كان بإمكانه أن يدخل. فزحف بكل هدوء حتى اقتـرب من الووسووزيم ورأى أن عينيه مغمضتان، فقد كان نائماً على الرغم مما كان يصدر عنه من غناء. وعندما رأى الفأر أن الحارس نائم زحف حتى الفتحة ومضى إلى الداخل. وكان للرعد عدة بنات، وكن جميعهن نائمات. فتسلل الفأر بكل هدوء وحلّ لكل واحدة منهن عقدة تنورتها بحيث أنه إذا ما صدر النفير ونهضت البنـات سقـطت عنهن وزراتهن فاضـطررن للتـوقف لعقدها. وبعد أن فعل ذلك أخذ الفأر نايه وملأه بالنار وتسلل إلى الخارج. وقد وُضع قسم من هذه النار في أذن الكلب، بينما بقيَ باقيها في الناي الذي أُعطي لأسرع عدّاء. ومع ذلك فإن الأيل أخذ أيضاً شيئاً من النار ووضعها عى عرقوبيه حيث لا تزال توجد حتى اليوم عليهما بقعة حمراء.

وهكذا مضى كل شيء على ما يرام لفترة من الوقت. ولكنهم عندما وصلوا إلى منتصف الطريق استيقظ الرعد واشتبه في أن شيئاً ما قد حدث، وتساءل: «من ذا الذي سطى على ناري؟». ثم نهض واثباً وهو يزمجر زمجرة رعد كما نهضت بناته قافزات، ولكن وزراتهن سقطت عنهن واضطررن إلى

الجلوس من أجل إصلاح شأنهن. وعندما أصبح كل شيء جاهزاً خرجن مع الـرعد وأخذن بمطاردة الدخلاء. وكن يحملن معهن ريحاً هوجاء وأمطاراً غزيرة وبرداً فكن قادرات إذن على إطفاء النار التي حصل عليها بنو الإنسان مهمـا كان شأنهـا. وقـد أسـرع الرعد وبناته حتى أدركوا الهاربين، ولكن الظربان رمى الرعد فقتله ثم صاح قائلاً: «لا ينبغي لك بعد الآن أن تلاحق الناس وتقتلهم، بل ينبغي عليك أن تبقى في السماء وتصبح رعداً، وهذا ما ستكـون». ولم تذهب بنات الرعد إلى أبعد من ذلك، فتابع بنو الإنسان مسيرتهم دون حيف حتى وصلوا إلى منزلهم بنارهم التي بقيت لديهم حتى اليوم.

أما القبائل الهندية التي، تعيش، أو التي كانت تعيش، على الساحل الشمـالي الغربي من ولاية واشنطن، أي على الساحل المجاور لكولومبيا البريطانية في أقصى الجنوب الغربي من جزيرة فانكوفر، فإنهم، أو كانوا، يُعـرفـون باسمهم القومي هوليموش. وكان من عادة العجائز من بينهم أن يتحـدثـوا عن عصـر بعيد لم يكن جدودهم يمتلكون فيه النار وإنما كانوا مكرهين على أن يأكلوا طعامهم نيئاً ويمضوا أمسياتهم في الظلام. وفي أحد الأيام، بينما كانوا جالسين على العشب يأكلون اللحم النيء أتى طائر جميل ذو ذنبٍ لامع يحوّم حولهم. وبعد أن أعجبوا بريشه الجميل قال أحدهم: «أيهـا الطائر الجميل، ماذا تريد؟ أيها الطائر الجميل، من أين أتيت؟». «لقد أتيت من بلد جميل بعيد جداً، أجاب الطير، لكي أجلب لكم كل محاسن النار (هيوك). وما ترونه حول ذنبي إنما هو نار. وقد أتيت لأقدمها بدون شرظ إلى أطفال الهوليموش. فيجب عليكم أولاً تقديرها حق قدرها والقدرة على كسبها. ولن يكون في مقدور أي مجرم أو أي فرد ارتكب عملاً سيئـاً أو عملاً دنيئاً أن يحاول الحصول عليها. والآن، فليهيء كل واحد منكم قليلاً من الصنوبر، وغداً مساء سأكون هنا». وعندما قدم الطائر في صبيحـة اليوم التـالي قال لهم: «هـل أتيتم كلكم بالصنـوبـر؟». فقـالـوا جميعهم: «نعم!». «سأذهب، قال الطير، وليمسك بي كل منكم فيضع

على ذنبي قطعـة الصنوبر التي أتى بها فيحصل على شيء حسن، شيء يسمح له أولها بأن يتدفأ، ويهيء طعامه، ويقدم له كثيراً من الخدمات كما يقدمها إلى جميع أطفال الووليموش. والآن إنني ذاهب». ومضى. وتبعه النـاس وقـد اختلط حابلهم بالنابل، رجالاً ونساء صبية وبنات من القبيلة كلهـا. أما من لم يكن يمتلك الصـلابة والثبات فقد عاد إلى منزله بخفي حنين. وتعب الجميع ونـال منهم الجوع. واقترب رجل من الطير محاولاً الإمساك به، ولكن هذا قال له: «لن تستطيع أبداً أن تنال الثمن، فأنت رجل متعجرف.». ثم طار على أثر هذه الكلمات فطارده رجل آخر دون أن يمكنه الطائر من نفسه لأن الرجل كان على علاقة مع امرأة جاره. وعندما مر أمام امرأة كانت تُعنى برجل عجوز قال لها: «أيتها المرأة الطيبة، أنت تتصرفين دائماً بكرم معتقدة أنك لا تقومين بأكثر من الواجب. هات حطبتك وضعيها فوق ذيلي وخذي النار. فهي تليق بأن تكون لك تماماً». وعندما وضعت الخشبة على ذيل الطائر اشتعلت، فأتى الناس كلهم بصنوبراتهم وأخذوا منها النار، ومنذ ذلك الوقت حتى أيامنا هذه لم تندثر النار عند الهنود قط. أما الطائر الذي جلب النار فقد طار ولم يعد أحد يراه أبداً.

ويروي هنـود النوتكا أو الآهت الذين يسكنون الساحل الغربي من فانكوفر، يروون قصة التقط منها المكتشفون على اختلافهم ثلاثة نصوص مختلفة على الأقل. ولن يكون من غير المفيد أن نعرضها كلها وأن نقارن بينهـا. وأقدم هذه النصوص نشره السيد ج. م. سبروت SPROAT الذي عاش مدة طويلة بين الهنود وعرفهم معرفة وثيقة. وقد أقام في ألبيرني على الباركلي ساوند التي كانت يومئذ البناء الوحيد المتمدن على الساحل الغربي من الجـزيرة. والبلاد المجاورة لهذا الموقع جبلية صخرية مغطاة بغابات كثيفة. وكانت طريقة حياة الهنود تكاد تكون مجهولة عندما استقر سبروت لأول مرة فيما بينهم. وقصة أصل النار حسبما التقطها منهم هي التالية:

«كيف أمكن الحصول على النار. ـ لقد صنع كواوتيهت الأرض وكل الحيوانـات ولكنـه لم يعـطهم النـار التي كانت تتقـد حصـراً في مسكن

الحُبّار*(تلهوب) الذي كان يستطيع العيش في الماء واليابسة على السواء. وكانت حيوانات الغابة كلها تبحث عن النار (لأن الحيوانات كانت يومذاك بحاجة إلى النار بسبب أن الهنود كانوا يعيشون فيها)**، ولأنها كانت عنصراً حيوياً لهم. وأخيراً تمكن الأيّل (موش) من اكتشاف بيت تلهوب كما تمكن من اختلاس النار منه. ويصف الوطنيون بالصوت والحركة وبفضول فائق كيف حملها في مفصل قائمته الخلفية. وتختلف هذه الأسطورة بعض الاختلاف بحسب الرواة. فبعضهم يؤكد ان النار إنما سُرقت من الحبّار وآخرون يؤكدون أنها سُرقت من كواوتيهت نفسه. ولكنهم يتفقون كلهم على أنها لم تُقدم هبة إلى الحيوانات وإنما كسبوها بالغش والخداع.»

أما الدكتور د. ر. فرانزبوا الاثنولوجي الأمريكي الشهير فيروي نصاً آخر لحكاية النوتكا هو التالي:

في البدء كان الذئاب وحدهم من يمتلكون النار. وكانت الطيور وبقية الحيوانات يتلهفون على أن يكون لديهم شيء منها. وبعد محاولات كثيرة قال النقار الأخضر الذي كان رئيساً عليهم، قال للأيّل: «اذهب وارقص في بيت الذئب وسنرافقك كلنا في الغناء، واربط بعضاً من لحاء الأرز في ذنبك عندماتقترب من النار فيلتهب اللحاء حينذاك». فجرى الأيّل فوراً إلى بيت الذئب ورقص حتى اشتعلت النار في اللحاء المربوط في ذنبه. وعندما هم بالخروج أمسك به الذئاب قبل أن ينجو بنفسه وانتزعوا منه النار. عند ذلك أرسل النقارُ الأخضرُ الطائرَ تساتسيسكوم وقال له: «إن القبيلة كلها سترافقك في الغناء وستحصل أنت على النار». وهكذا ذهبت كل الحيوانات وكل الطيور إلى بيت الذئاب يقودها النقار الأخضر وكواتياث. وقبل دخول المنزل ترنموا بغناء ما لبثوا أن ترنموا بغيره عندما أصبحوا في الداخل. وعند ذلك أخذوا يرقصون على شكل حلقة بينما كان الذئاب مضطجعين بالقرب من

---

* الحُبّار: نوع من الأخطبوط. - المترجم -

** فيها أي في أجسادها، أي أن الهنود كانوا يتقمصون الحيوانات. - المترجم -

النار وهم ينظرون إليهم. وقد رقص بعض الطيور حتى وصلوا إلى الدعامات دون أن يلحظهم الذئاب الذين كانوا مشغوفين برقص الطيور قرب النار. وعندما أصبح الطيور فوق الدعامات وثبوا على جهاز إشعال النار الذي كان مرتباً هناك فأخذوه وهم يتابعون رقصهم حتى أعطوه للنقار الأخضر والكواتياث. ثم استمروا بعد ذلك في الرقص حتى تمكن النقار الأخضر وزميله من الوصول إلى المنزل سالمين. وعندما دخل الكواتياث إلى بيته شغّل آلة إيقاد النار بالحك حتى انبثقت منها الشرارات. فقربها عند ذلك من خده فأحرقته وأصبح له من ذلك الوقت ثقب في خده. وعندما علم الراقصون في بيت الذئاب أن كواتياث وصل إلى بيته أطلقوا صيحة واحدة ولاذوا بالفرار. وهكذا أضاع الذئاب النار.

أما السيد جورج هانت فيروي نصاً أكثر كمالاً من أسطورة النوتكا، وإليك خبره:

في يوم من الأيام كان النقار الأخضر رئيساً على الذئاب وله جارية اسمها كواتيّات. وكان وحده في العالم من يمتلك النار في بيته، حتى أن شعبه نفسه لم يكن يمتلك شيئاً منها. ولم يكن إيبيواياك الرئيسُ العاقلُ لقبيلة مواتكاث، والمنافسُ للنقار الأخضر، لم يكن يعرف كيف يحصل على النار من النقار الأخضر رئيس الذئاب.

وفي أحد الأيام عقدت قبيلة المواتكاث اجتماعاً سرياً بعد أن نما إليها أن احتفال الشتاء سيجري في بيت النقار الأخضر. وقد قرروا أن يذهبوا إلى هذا البيت حيث توجد النار. وكان النقار الأخضر قد وضع كثيراً من العصيّ المدببة على الأرض قرب الباب بحيث أن الناس لا يستطيعون الجري دون أن يجرحوا أقدامهم. وتكلم إيبيواياك في الاجتماع فقال: «من ذا الذي سيحاول من أفراد شعبي سرقة النار من النقار الأخضر؟». فقال الأيّل: «سأحصل لكم على النار». عند ذلك أخذ الرئيس بعض زيت الشعر في قنينة من الطحالب وقال: «خذ هذا معك، وكذلك خذ هذا المشط وهذه القطعة من الحجر. وعندما تحصل على النار يجب عليك أن تحاول الفرار.

وعنـدمـا يتبعـك الذئاب ارم بالحجرة وراءك فتنقلب إلى جبل كبير، فإذا اجتـازوه واقتربوا منك بعد ذلك فارم بهذا المشط فينقلب إلى دغل كثيف. فإذا اجتازوه واقتربوا منك فارم بزيت الشعر فينقلب إلى بحيرة واسعة. عند ذلـك يجب عليك الفـرار بأقصى ما تستطيع. فترى في طريقك الفينيو، فاركض لتنقذ حياتك. والآن دعني ألبسك هذا اللحاء من شجر الأرز لتلتقط النار فيه». وعندما قال ذلك أخذ لحاء الأرز الطري وربط منه حزمة على كل من مرفقي الأيّل وهو يقول بأن عليه أن يستمر واقفاً وأن يرقص حول النار طول مدة الغناء. ثم أضاف: «وعندما ينتهي هذا الغناء سلهم أن يفتحوا لك طاقة الـدخان لأنك بحاجة إلى الهواء النقي، وعندما يفتحونها نقوم نحن بغناء أغنية أخرى. وفي وسطها ينبغي عليك أن تلمس النار بمرفقك وتقفز من خلال طاقة الدخان. وها أنذا سأضع هذه الحجارة السود في قدميك لكي لا تُجرح بالعصيّ المدببة الموضوعة فوق أرض منزل الرئيس». وبعد أن قال ذلك ربط في رجلي الأيل تلك الحجارة السود.

وعنـدما انتهت هذه الوصية كان الظلام قد ساد، وأخذ رجال قبيلة المـواتكـاث بالغنـاء وهم يتقدمون نحو منزل الذئاب. وكان الأيّل يرقص أمامهم. وقبل أن يدخلوا من باب البيت قال النقار الأخضر شيخُ الذئاب لجماعته: «ينبغي علينا ألا نترك المواتكاث يدخلون إلينا لأنهم سيسرقون من النار». ولكن ابنته قالت له: «أريد أن أرى الرقص لأنني علمت بأن الأيّل يحسنه جيداً. وأنت لم تتركني قط أمتع نظري بمثل هذا الرقص». فقال الأب عند ذلك: «افتحوا الباب واتركوهم يدخلون، ولكن راقبوا الأيّل بانتباه ولا تتـركـوه يرقص قرب النـار. وعندما يدخلون أغلقوا الباب وضعوا عليه مزلاجاً قوياً لكي لا يتمكنوا من النجاة». هكذا تكلم الرئيس إلى شعبه.

وفتح الذئاب الباب وأدخلوا الزوار فدخل هؤلاء وهم يغنّون. وعندما أصبحـوا في الـداخـل قام المحاربون الأشداء من الذئاب فأغلقوا الباب ووضعوا مزلاجاً فيه ووقفوا أمامه. وبدأ المواتكاث بغناء أول لحن بينما أخذ

الأيّل يرقص رقصاً خفيفاً حول النار. وفي نهاية الغناء الأول قال الأيّل: «إنني أشعر بحرٍ شديد هنا، فهل تسمحون من فضلكم ان تفتحوا طاقة الدخان ليدخل الهواء النقي فأنتعش لأنني مبلل بالعرق؟». فقال النقار الأخضر شيخُ الذئاب: «إنه لا يستطيع أن يقفز بهذا العلو، فافتحوا طاقة الدخان لأن الجو أصبح شديد الحرارة». وفتح أحد رجاله طاقة الدخان بينما بقي الزائرون صامتين لا ينبثون ببنت شفة وتركوا الأيّل يرتاح.

وعنـدمـا تم فتـح طاقـة الدخان على أقصى اتساعها بدأ قائد الأغاني عند الزائرين بالغناء وبدأ الأيّل يرقص حول النار من جديد. وكان أحياناً يقترب من النار فيرسل له شيخ الذئاب عندما يراه أحد محاربيه ليقول له بأن يبقى بعيداً عنها. وعندما وصلت الأغنية إلى منتصفها قفز الأيّل من طاقة الدخان وهرب في الغابات فتبعه كل المحاربين من الذئاب. وعندما وصل إلى سفح جبـل كبير رأى الـذئاب قريبة منه جداً، فأخذ الحجر الصغير ورماه خلفه فتحول إلى جبل عال أعاق وراءه الذئاب. ثم جرى مسافة بعيدة، ولكن الذئاب أدركته من جديد. عند ذلك رمى المشط فتحول إلى دغل شوكي أمسك بالذئاب على الطرف الآخر منه، وهكذا تمكن الأيّل أن يحرز تقدماً كبيراً على الذئاب، ولكنهم ما لبثوا أن أدركوه من جديد. وكانوا يرونه وهو يجـري أمـامهم عندما سكب زيت الشعر على الأرض فتحول في لحظة واحدة إلى بحيرة واسعة فصلته عن المطاردين. وكان الأيّل قد اقترب عند ذلك من الشاطىء فرأى الفينيو VIGNOT فقال له: «أيها الفينيو، افتح فمك وخذ هذه النار فخبئها عن الذئاب، ذلك لأنني سرقتها من بيت الرئيس النقار الأخضر، ولا تقل له أية جهة سلكت». وأخذ الفينيو النار في فمه وخبأها بينما استمر الأيّل في الجري. وبعد لحظة وصل الذئاب فرأوا الفينيو جالساً على طرف الطريق، فسألوه عن الجهة التي سلكها الأيّل ولكنه لم يجبهم لأنه لم يكن يستطع أن يفتح فاه. على أنه اكتفى بأن قال، وفمه مغلق: «هو، هو. هو»، دالاً بيده على مكان ثم على مكان آخر حتى أضاع الذئاب

أثر الأيّل وعادوا إلى منزلهم دون أن يمسكوه. ومنذ ذلك الوقت انتشرت النار في العالم كله.

في هذا النص الأخير من الأسطورة يُفترض منطقياً أن الأيل قد سرق النار من الذئاب ونقلها في ضمائم لحاء الأرز التي كانت مربوطة في مرفقيه لهذه الغاية على يد رئيسه. ونص السيد هانت يختلف عن نص الدكتور بوا في أنه يقدم النقار الأخضر على أنه مالك النار وليس سارقها. أما كواتيات إحدى هاتين القصتين فربما كان نفس شخصية كواتياث القصة الثانية، على الرغم من أن كواتياث القصة الأولى كان عبداً لمالك النار بينما هو في القصة الثانية المتواطىء على سرقة النار. ويتفق نص السيد هانت مع نص السيد سبروت في أن الأيّل هو الذي سرق النار، بينما في نص الدكتور بوا يخفق الأيّل في محاولته سرقة النار وتتم هذه السرقة على يد النقار الأخضر وشريكه المتواطىء معه.

وإلى الشمال من هنود النوتكا تعيش قبيلة الكاتلولتك الهندية في جزيرة فانكوفر. ويقول أفرادها إن الناس فيما مضى من الزمان القديم لم يكن لديهم نار. ولكن رجلاً عجوزاً من بينهم كان مرزوقاً بابنة تمتلك قوساً وسهاماً عجائبية تستطيع بها أن تصطاد كل ما تشاء. إلا أنها كانت كسولة جداً وتنام على الدوام، وكان أبوها محنقاً من حالتها تلك فكان يقول لها: «لا تنامي دائماً بل خذي قوسك واضربي سُرّة المحيط حتى نتمكن من الحصول على النار». وكانت سرّة المحيط زوبعة عملاقة فيها عصيّ تستعمل لإيقاد النار عن طريق الحك. فأخذت الفتاة قوسها ورمت في سرّة المحيط فقفزت منها آلة إيقاد النار بالحك على الشط. فسُرّ العجوز سروراً كبيراً وأوقد بهذه الآلة ناراً عظيمة. وبما أنه كان يريد أن يحتفظ بها لنفسه فإنه بنى بيتاً له باب واحد يفتح ويغلق بانصفاق كأنه الفم فيقتل أي شخص يحاول الدخول منه. وكان الناس يعرفون أنه يمتلك النار، فقرر الأيّل أن يسرقها منه لمصلحة الجميع. فأخذ لهذه الغاية خشباً راتنجياً نشره وثبّت شظاياه في شعره. ثم ربط قاربين سوية بجسر وأخذ يرقص ويغني فوق هذا الجسر متجهاً إلى بيت

العجوز. وكان يغني: «اوه، إنني أبحث عن نار». وسمعت ابنة العجوز غناءه فقالت لأبيها: «دع هذا الغريب يدخل البيت فإنه يحسن الغناء والرقص». وكان الأيّل في أثناء ذلك قد نزل من القارب واقترب من الباب وهو يرقص ويغني حتى أنه قفز نحو الباب وكأنه يريد الدخول. فانصفق الباب بشدة ثم ما لبث أن انفتح فوثب الأيّل خلال ذلك إلى الداخل بوثبة واحدة دون أن يصيبه مكروه. وهناك جلس قرب النار وكأنه يريد أن يدفىء نفسه واستمر في الغناء. وفي الوقت نفسه انحنى برأسه فوق النار حتى بلله العرق وحتى اشتعلت النار في جذاذات الخشب التي كانت مثبتة في شعره. عند ذلك قفز خارج المنزل هارباً وجالباً النار إلى بني الإنسان.

أما التلاتلا سيكوالا، وهم قبيلة من هنود الكواكيوتل ويسكنون في الأصل في أقصى الشمال الشرقي من جزيرة فانكوفر فيروون هم أيضاً كيف سرقت النار في العصور الغابرة على يد الأيّل الذي أتى بها إلى بني الإنسان. فهم يقولون إنه لم يكن في البداية نار لأن ناتليبيكاك كان يخفيها. عند ذلك قام كوتينا (يبدو أنه نوع من الشجر) فأرسل ليليكواستا ليبحث عنها. وقد تمكن المرسال من أن يحصل على جذوة حارة أخذها في فمه وهرب. وعندما رآه ناتليبيكاك سأله: «ماذا في فمك؟»، وبما أن السارق لم يكن يستطيعه أن يجيب فقد ضربه مالك النار على فمه فسقطت منه.

عند ذلك أرسل كوتينا الأيّل ليأتيه بالنار. فوضع قصاصات من خشب جاف في شعره وجرى إلى بيت ناتليبيكاك حتى وصل إلى الباب. عند ذلك أخذ يغني: «أتيت أبحث عن نار، أتيت أبحث عن نار.» ثم دخل إلى المنزل وصار يرقص حول النار حتى تمكن من إيلاج رأسه فيها ولاذ بالفرار. وتبعه ناتليبيكاك لاسترجاع ناره المفقودة، ولكن الأيّل كان قد قدّر هذا الاحتمال واحترس له، فلما أوشك ناتليبيكاك أن يمسك به أخذ قليلاً من الدهن ورمى به خلفه على الأرض. وقد تحول هذا الدهن فوراً إلى بحيرة كبيرة أجبرت مطارده على أن يقوم حولها بالتفاف كبير. ولكن هذا استمر بالمطاردة حتى إذا ما اقترب منه رمى الأيّل ببعض من الوبر وراءه على

الأرض فتحول فوراً إلى غابة كثيفة ذات أشجار فتية لم يستطع ناتليبيكاك أن ينفذ من خلالها بل اضطر أن يقوم بالتفافة كبرى أعطت الأيّل فرصة كبيرة للابتعاد. ومرة أخرى كاد المطارد أن يلحق بالطريدة عندما رمى الأيل وراءه بأربع حصوات تحولت فوراًإلى أربعة من الجبال العالية. وقبل أن يتمكن ناتليبيكاك من اجتيازها كان الأيّل قد بلغ بيت كوتينا. وعندما وصل ناتليبيكاك قبع أمام الباب يتوسل قائلاً: «أواه، رد لي نصف ناري على الأقل». ولكن كوتينا لم يشأ أن يصغي إليه لدرجة أن ناتليبيكاك اضطر أن يعود أدراجه بدون نار. أما كوتينا فقد أعطى النار إلى كل بني الإنسان.

أما هنود الكواكيوتل الذين يسكنون الساحل الشمالي الشرقي من جزيرة فانكوفر على الجانب المقابل لكولومبيا البريطانية خلف كوين شارلوت ساوند، فإنهم يروون قصة مشابهة عن الطريقة التي أمن بها النار للبشر أيّلٌ أو بطلٌ كان يرتدي لباس الأيّل. والقصة التي يرويها رجال القبيلة هي التالية: كان كاني ـ كي ـ لاك هو الذي سرق النار وأعطاها للهنود. وكان الزعيم الذي يمتلك النار يقيم عند «حدود النهار»، وهذا يعني أنه كان يقيم في الشرق. وبينما كان أصدقاء الزعيم يرقصون حول النار بدا لهم كاني ـ كي ـ لاك في هيئة أيّل ومعه حزمة من الخشب الراتنجي دسها في شعاب قرونه وأخذ يرقص مع الراقصين. وبإشارة من أصدقائه الذين كانوا يقفون في الخارج دس رأسه في النار فاشتعلت العصي الموجودة فيه وقفز فوق النار مندفعاً خارج المنزل وناثراً النار المسروقة في كل الجهات. وتبعه أنصار الزعيم، ولكن أصدقاءه نثروا على آثار أقدامه سمك الراقود مما جعل ملاحقيه يتعثرون. وهذه الحكاية تفسر لماذا أصبح ذنب الأيّل أسود، ذلك لأن النار أمسكت به عند الفرار.

وثمة نص آخر من أسطورة الكواكيوتل لا تجعل الأيّل وإنما الفيزون* هو أول من زود بني الإنسان بالنار. وفي هذا النص أن الفيزون ذهب لمصارعة

* الفيزون: حيوان أمريكي من اللبونات مطلوب جداً لجمال فرائه. ـ المترجم ـ

الأشباح. فانسل بهدوء إلى بيت رئيسهم وسرق ابنه وهو في المهد. فلما رأى الرئيس هذه الخسارة قام بمطاردته ولكنه لم يتمكن من الإمساك به قبل أن يصل إلى بيته ويتحصن به. فأخذ زعيم الأشباح يتوسل إلى الفيزون قائلاً: «أواه، رد لي طفلي». ولكن الفيزون رفض إلا أن يقدم له الزعيم النار تعويضاً، وبهذه الطريقة حصل بنو الإنسان على النار.

ويتفق الأويكينوك، وهم قبيلة هندية تسكن ساحل كولومبيا البريطانية إلى الشمال من الكواكيتول، يتفقون مع النوتكا والكواكيتول من جزيرة فانكوفر في عزوهم سرقة النار إلى الأيّل. فهم يقولون إن الغراب بعد أن حرر الشمس السجينة نزل من السماء كائنان اسم أحدهما نواكاوا (العاقل) واسم الثاني ماساماسا لانيك ليجعلا كل ما على الأرض حسناً وجميلاً. وبحسب رغبة أبداها نواكاوا قام زميله ففصل التراب عن الماء وخلق سمك (الأولاشان) السمين وصنع الرجال والنساء قاطعاً إياهم من خشب الأرز. ثم فكر نواكاوا: «آه، لو يستطيع ماساماسا لانيك أن يذهب ليأتينا بنار». ولكن ماساماسا لانيك لم يكن يستطيع ذلك. فأرسل نواكاوا في بادىء الأمر القاقُمَ* إلى بيت الرجل الذي يحرس النار. فأخذ القاقُمُ النار في فمه خلسة واستعد للذهاب بها عندما سأله مالك النار: «إلى أين أنت ذاهب؟» ولكن القاقُم لم يتمكن من الرد عليه لأن النار كانت في فمه. فلكمه المالك عندئذ على جانب رأسه فسقطت النار من فمه. ولما فشل القاقم في مهمته كلّف نواكوا الأيّل بهذه المهمة. فذهب في بادىء الأمر إلى ماساماسا لانيك ليعطيه قوائم دقيقة وسريعة. وفكّر نواكوا عندئذ: «آه لو أمكن لماساماسا لانيك أن يغرز أغصاناً من الصنوبر في ذنب الأيل»، ففعل ماساماسا لانيك ذلك، وغادر الأيّل هذا المكان بكل سرعة ممكنة. ثم وصل إلى البيت الذي كانت توجد فيه النار فرقص حولها وهو يغني: «كم أحب أن أجد النور». ثم أدار ظهره فجأة إلى لهب النار حتى اشتعل ذنبه ولاذ بالفرار. وعند ذلك

* القاقُم: حيوان من الفصيلة السمورية مشهور بجلده. ـ المترجم ـ

أخذت نار الحطب المتقد تتساقط في كل مكان من ذنبه على الأرض، وأخذ النـاس يحافظون عليها بكل عناية. وكان الأيّل يصرخ في فراره بالأشجار التي يمر عليها: «خبئي النار»، وكانت الأشجار تتلقاها حتى أصبحت منذ ذلك الوقت قابلة للاشتعال.

وهنا، كما في الكثير من الأساطير الأخرى، استخدمت قصة سرقة النار في تفسير كيف يمكن الحصول على النار من الأخشاب عن طريق الحك.

أما عند الهيلتسوك، وهم قبيلة هندية من ساحل كولومبيا البريطانية إلى الشمال من الأويكينوك، فإن الأيّل ـ متخذاً هيئة بشرية ـ هو الذي أُنعم عليه بلقب معناه حامل المشعل لأنه سرق النار بواسطة خشبة ربطها بذنبه.

ويروي التسيمشيان، وهم قبيلة هنـدية أخـرى من ساحـل كولومبيا البريطانية إلى الشمال من الهيلتسوك، يروون قصة مشابهة فيما هو أساسي منها ليفسروا أصل النار عند بني الإنسان. فهم يقولون إنه في أيام العالم الأولى كان يوجد كائن رائع اسمه تكسانسم أو العملاق صنع عدة معجزات منها على سبيل المثال أنه منح نور النهار في العصر الذي كان العالم فيه يغرقون في ظلام دامس. وكان أبوه قد أعطاه ريش وجلد غراب، وفي كل مرة يرتديهما فيها كان يستطيع أن يطير في الهواء كأنه غراب. ونحن نستطيع أن نستنتج من ذلك أن هذا العملاق كان الغراب نفسه الذي سنراه عما قريب يلعب دوراً كبيراً في أسطورة النار عند الهنود الذي يقعون أكثر من ذلك إلى الشمال. ومهما يكن من أمر فإن التسيمشيان يروون أن الناس عندما بدأوا يتكاثرون على الأرض كانوا يعانون من فقدان النار اللازمة لطهو طعامهم ولتـدفئتهم فحاول الذهاب إلى هناك ليأتي بقبس منها إلى بني الإنسان. وهكذا ارتدى لباس الغراب ومضى إلى القرية، ولكن ناس القرية رفضوا أن يعطوه ناراً بل وطردوه من قريتهم. وقد حاول أن يحصل على النار بمختلف الطرق ولكنه فشل لأنهم كانوا يصدونه دائماً عن تحقيق غايته.

وأخيراً أرسل أحد مساعديه، النورس، حاملاً رسالة إلى سكان القرية

هذا محتواها: «سيأتي اليكم عما قريب زعيم شاب ذو طلعة بهية ليرقص أمام رئيسكم». وهكذا تهيأت القرية كلها لاستقبال هذا الزعيم الشاب ساعة قدومـه. ثم استدعى العملاق أيّلاً فتفحصّه. وكان الأيل في ذلك الزمان يملك ذنباً طويلاً كذنب الذئب، فربط بذنبه رزمة من أغصان الصنوبر، واستعار قارب القرش وذهب الجميع إلى القرية حيث أوقد زعيمها ناراً كبيرة في بيته لدرجة أنها كانت أكبر من أي نار عرفها بيت من قبل. وكان قارب القرش الكبير مليئاً بالغربان والنوارس، بينما كان العملاق جالساً في وسط القـارب وقد ارتدى لباسه الحيواني. ودخل الناس كلهم إلى بيت الرئيس الذي كان غاصاً برجال قبيلته. وجلس الضيوف في أحد جوانب البيت الكبير وهم مستعدون للغناء، ثم ما لبث الزعيم الشاب أن بدأ بالرقص بينما كان رفاقه يمسكون له الايقاع بواسطة عصا يضربونها على الأرض. في الوقت الذي كان أحدهم يستعمل طبلاً صغيراً لهذه الغاية. وغنوا كلهم سوية، بينما كان بعض الطيور يصفقون.

ودخل الأيل من الباب. تلفت حوله ثم قفز وهو يرقص ويدور حول النار. وسُر كل الرجال من رقصته المرحة. وأخيراً مرّر ذنبه بسرعة فوق النار فاشتعلت حزمة الصنوبر فأطلق ساقيه للريح على الفور مع الجذوة المشتعلة في ذيله حتى وصل إلى الماء وسبح فيه. وفر من البيت جميع رفاقه أيضاً فتمكنوا أن يبلغوا قارب القرش ويتخذوا طريقهم في البحر سرباً. وحاول الرجال أن يمسكوا الأيّل وفي نيتهم أن يقتلوه، ولكنه قفز إلى الماء وسبح بسـرعـة كبيرة وحزمة الصنوبر ما تزال مشتعلة في ذنبه. وعندما وصل إلى إحدى الجزر نزل فيها فوراً وضرب إحدى أشجار الصنوبر بذنبه وقال لها: «ستحترقين على مدى العام». ومن أجل ذلك كان للأيل ذنب قصير اسود.

في هذه القصة ربما كان بإمكاننا أن نتبين دمجاً لنصين مختلفين من أسطورة النار. في أحداهما سُرقت النار على يد الأيّل بينما سرقت في الآخر على يد الغراب. ذلك لأنه بينما يقول لنا الراوي بوضوح إن النار إنما سُرقت على يد الأيّل وهـو يرقص فإنه كان قد سبق بالكلام بأن الراقص كان في

حقيقة الأمر عملاقاً لبس في هذه المناسبة جلد الأيّل رغم أنه كان يرتدي في العادة جلد الغراب. ويمكننا أن نفسر دمج هاتين القصتين بموقع التسيمشيان الجغرافي، ذلك لأنهم يحتلون أرضاً تحاذي أراضي هنود الجنوب (وهم بينهما. فبينما البطل المعتاد بين الجنوبيين هو الأيّل في أسطورة أصل النار، فإنه الغراب لدى هنود الشمال. وهكذا نستطيع أن نلاحظ لدى هنود التسيمشيان هذا الدمج بين القصتين في محاولة لأن يكون هذا الدمج مقبولاً ومتناسقاً.

وقبل أن نمضي لفحص أساطير النار عند هنود الشمال لابد أن نروي أساطيرها عند هنود الجنوب من كولومبيا البريطانية الذين يسكنون معظمهم داخل البلاد وينتمون إلى جنس الساليش. وسنبدأ بممثلي هذا الجنس الذين يعرفون عموماً تحت اسم هنود تومبسون لأنهم يسكنون في وادي نهر تومبسون.

يقول هنود تومبسون إن الناس في البدء لم يكن لديهم نار، فكان لابد لهم من تفويض أمرهم للشمس لكي تُعنى بانضاج طعامهم. وكانت الشمس في ذلك الزمان أكثر حرارة مما هي عليه الآن، فكان الناس يطهون طعامهم بتعريضه للشمس وفرشه تحت أشعتها. ومع ذلك فإن حرارة الشمس لم تكن في الواقع ناراً حقيقية، لذلك قرر القندس والنسر أن يكتشفا ما إذا كان يوجد في العالم نار والحصول عليها إذا أمكنهم ذلك لمصلحة الانسانية. فتدربا في الجبال «حتى امتلآ بالأسرار» وأصبحا قادرين بفضل سحرهما على أن يشملا العالم كله بنظرة واحدة حتى حدوده القصوى. وعند ذلك اكتشفا وجود نار في كوخ في ليتون ورتبا خطتهما على ضوء ما اكتشفاه. وقد تركا مسكنهما عند مصب نهر فريزر وصعدا في هذا النهر حتى وصلا إلى ليتون. وابتعد النسر محلقاً في الجو حتى اكتشف قوقعة محارة من محار المياه العذبة فاستولى عليها، بينما وصل القندس إلى مكان ينزح الناس فيه الماء من جون صغير. وكان هؤلاء الناس يعيشون في كوخ تحت الأرض، فتمكنت بضع فتيات كن ذاهبات إلى الخليج للمجيء بالماء في الصباح من

رؤية القنـدس عنـد مورد الماء وعدن ليحملن لذويهن هذا النبأ الجديد.
وجـرى نفر من الشبان إلى هناك وهم يحملون الأقواس والسهام فأمسكوا بالقندس وقادوه إلى منزلهم حيث قاموا بتفتيشه. وكان القندس يفكر خلال ذلك: «أوه! لقد تأخر أخي الكبير عن المجيء. لقد أصبحت في حكم الأموات». وفي هذه اللحظة تماماً حط النسر على قمة السلَّم فجذب فوراً اهتمـام الحـاضرين لدرجة أنهم نسوا القندس لرغبتهم بالامساك بالنسر. ولكنهم لم يستطيعوا أن يقتلوه رغم أنهم أطلقوا عليه الكثير من السهام. وفي خلال ذلك كان القندس قد غمر البيت بالماء. وفي غمرة هذه الفوضى ألقى النسر قوقعة المحارة في وسط النار فملأها القندس فوراً ووضعها تحت إبطه وفر بها سابحاً في الماء، ثم نشرها بعد ذلك في كل البلاد. وهكذا أصبح الهنـود بعد ذلك قادرين على إيقاد النار من الأشجار. ويقال بأن القندس وضـع النـار في جميع أنواع الأخشاب التي تنمو بالقرب من مسكنه بينما وضعهـا النسر في الأشجار التي تنمو في المناطق المرتفعة أو البعيدة من البلاد بعيداً عن البحيرات ومجاري المياه.
وثمـة نص آخـر من حكـاية التومبسون هذه يختلف عن النص الأول في تفـاصيله فقط، وهذا النص هو التالي: إن الناس في نيكولا وفي سبينس بريدج لم يكن لديهم نار ولا أية وسيلة للحصول عليها لأن الخشب لم يكن يحترق في ذلك الزمان. ومن بين كل بني البشر كان جماعة ليتون هم الذين يمتلكون النار. وهكذا وقَّع القندس وابن عرس والنسر اتفاقاً بينهم على أن يحـاولوا سرقة النار من جماعة ليتون الذين كانوا يعيشون إلى جانب عين صغيرة قرب مصب نهر تومبسون. وكان القندس أول من ذهب إلى هناك وبدأ ببناء سد في الماء، بينما ذهب النسر وابن عرس يتدربان في الجبال.
وفي اليوم الرابع بينما كانا يستحمان ظهر الروح الحارس لابن عرس في هيئة ابن عرس أيضاً ودخل في الحمام الذي كان يغتسل فيه. وهناك انقسم ابن عرس إلى نصفين ودخـل فيه روحه الحارس متخذاً هيأته. كما أن الروح الحارس للنسر دخل إلى البيت في هيأة نسر ودخل في جسده متخذاً هيأته.

وقال النسر: «سأطير عالياً جداً لأرى أخي القندس». وقال ابن عرس: «سأجرى فوق ذرا الجبال العالية لأرى ماذا يصنع أخي القندس». وعندما أصبحا على مرمى البصر من ليتون وجدا أنه لم يعد أمامهما وقت يضيعانه لأن القندس كان قد وقع أسيراً بين أيدي السكان الذين كانوا يستعدون لتمزيقه. وحط النسر متعلقاً برأس السلم المؤدي إلى البيت الواقع تحت الأرض، بينما سعى ابن عرس لايجاد ثقب في قاعدة المنزل يتسرب منه الماء. وكان الناس من شدة رغبتهم في الإمساك بالنسر قد نسوا أمر القندس ولم يرو أبنَ عرسٍ قط. ولكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى النسر وغضب بعضهم على بعض لأنهم لم يتمكنوا من النيل منه. وفي هذه الأثناء كان النهر الذي بنى فيه القندس سده قد بدأ يتسرب من الثقب الذي أوجده ابن عرس. وفي خلال الفوضى أمسك القندس بجذوة في قوقعة محارة وهرب بها حتى تمكن من النجاة.

وعندما بلغ ثلاثتهم البيت أوقد القندس النار لبني الإنسان، وأبان لهم النسر كيف يطهون الطعام وطريقة شيّ اللحوم. وأظهر لهم ابن عرس كيف يسلقون طعامهم بواسطة الحجارة. ثم قاموا برمي النار في كل أنواع الأخشاب التي أصبحت قابلة للاحتراق منذ ذلك الوقت.

في هذا النص نستطيع أن نكتشف محاولة تفسيرية عقلانية للأسطورة فيما يتعلق بالنسر وابن عرس اللذين ذكرا فيها. فهما ليسا نسراً وابن عرس حقيقيين وإنما هما رجلان سميا على التتابع نسراً وابن عرس من أجل أن يقوما بسرقة النار. ومثل هـذا التأويل للأسطورة القديمة يكشف عن مرحلة متقدمة من التفكير بدأ فيها الناس يشكّون في قدرة الحيوانات على استعمال النار أو على إيقادها.

على أن لدى هنود تومبسون رواية أخرى أيضاً حصل بموجبها أجدادهم على النار من الشمس. فهم يقولون إنه منذ عهد بعيد، وقبل أن يسرق القندس والنسر النار، وقبل أن توجد النار في الأخشاب، لم يكن الناس يستطيعون إيقاد النار. وعندما كانوا يشعرون بالبرد الشديد كانوا

يرسلون رسلاً إلى الشمس ليتزودوا منها بالنار. وكان على هؤلاء الرسل أن يقوموا بسفر طويل. وعندما كان ينتهي استعمال النار التي جلبها الرسل ويحتاج الناس إلى نار أخرى كان عليهم أن يطلبوها مرة أخرى من الشمس. ويقول البعض إن الرسل كانوا يحملون النار في قواقع أو أنهم كانوا يغلفونها بوسائل أخرى. وكانت النار المجلوبة من الشمس تنشر حرارة عالية. وكان بعض الناس ـ كما يقال ـ يستطيعون أن ينزلوا النار من الشمس دون حاجة للذهاب إليها، ذلك لأنهم كانوا يكتفون بأن يستولوا على أشعة الشمس.

وإليك قصة أخرى يرويها هنود تومبسون عن النار على شكل آخر. وفي هذه القصة يلعب القيّوط دور أول سارق للنار. والقصة هي التالية: من قمة أحد الجبال رأى القيّوط ضياء بعيداً نحو الجنوب. ولم يكن في البدء يعرف ما رآه. ولكن بناء على طريقة منهجية في الاستدلال أدرك أن هذه هي النار وقرر عند ذلك أن ينالها. ورافقه في مهمته هذه عدد كبير من الناس، كالثعلب والذئب والظبي وكل من يحسنون الجري. وبعد أن قاموا بسفر طويل وصلوا إلى بيت رجال النار. فقالوا لهم: «لقد أتينا لزيارتكم وفي نيتنا أن نرقص ونتسلى ونلعب». وتهيئوا في هذه الليلة للرقص. وقد وضع القيّوط على رأسه زينة من قطع الصنوبر المعطر الأصفر مع سُجُفٍ من لحاء الأرز وصلت من رأسه حتى الأرض. ورقص رجال النار في باديء الأمر. وكانت النار خافتة جداً فرقص القيّوط وجماعته حولها وهم يتذمرون من أنهم لا يرون شيئاً. فأوقد رجال النار عند ذلك ناراً كبيرة ولكن القيّوط وجماعته بقوا يتذمرون أربع مرات متوالية حتى أصبحت النار في النهاية شديدة الاتقاد. وادعى رجال القيّوط أن الجو أصبح حاراً جداً فخرجوا للترويح عن أنفسهم بالهواء العليل وأخذوا عدتهم للفرار. وبقي القيّوط وحده في الداخل. وقد رقص بطريقة وحشية حتى أمسكت النار بزينته فأظهر خوفه وأخذ يتوسل إلى رجال النار بإطفائها. وقد حذّره هؤلاء بألا يرقص قريباً من النار. ولكنه عندما اقترب من الباب هز سُجُفَ زينته فوق النار ولاذ بالفرار جارياً بأسرع ما يستطيع. أما رجال النار فاندفعوا في أعقابه. عند ذلك أعطى زينته للظبي

الـذي انـطلق حتى أعـطاهـا للعدّاء التالي، وبقيت تنتقل من يد إلى يد وأصحاب النار يمسكون الحيوانات واحداً بعد واحد ويقتلونهم ما عدا القيّوط الذي بقي في النهاية وحده. وقد كادوا أن يمسكوه لولا أنه جرى نحو شجرة وأعطاها النار، وفتش عنه الملاحقون دون أن يجدوه. عند ذلك نفخوا في الريح فهبت وتبعثرت قطع اللحاء الملتهبة هنا وهناك فأحرقت الأعشاب. وقال بعضهم لبعض: «إن القيّوط لن يحترق». وارتفعت غمامة كبيرة من الدخان ولكن القيّوط نجا منها. وامتدت النيران إلى كل البلاد فأحرقت كثيراً من الحيوانات، ولكن القيّوط أسقط مطراً غزيراً نجم عنه طوفان أطفأ النار، إلا أن النار بقيت بعد ذلك في الأشجار وأصبح بالإمكان استعمال الأعشاب والأشجار للحصول عليها. ومن أجل ذلك أصبح لحاء الأرز الجاف يحمل النـار ويمكن استعمـاله للحصول عليها بشيء من الصبر والبطء. كذلك أصبح بإمكان صنوبر المناقع أن يشتعل بسهولة ويمكن استخدامه للحصول بسرعة على النار. ومنذ ذلك الوقت أصبح كل العالم يعرف الدخان والنار اللذين أصبحا متلازمين.

ومن الواضح أن هذه القصة إنما تنتمي إلى طبقة الأساطير نفسها التي وجدنا أمثلة منها في المناطق الأبعد إلى الجنوب لدى هنود نيومكسيكو وأوتاه وكاليفورنيا. والملامح المميزة لهذا النموذج من الأساطير هي أن سارق النار هو القيّوط الذي نقلها عبر سلسلة من الحيوانات العدّاءة المتساعدة التي كان كل واحد منها يحمل النار ويكمل السباق عندما كان ينال من سلفه الخور والضعف.

أمـا هنـود الليللووي LILLOOET الـذين تجـاور بلادهم بلاد هنـود تومبسون فإنهم يروون قصة عن أصل النار تنطبق انطباقاً وثيقاً مع أسطورة النار التي يرويها هنود تومبسون. وليس ثمة ما يدهش في هذا التشابه الكبير طالما أن هنود الليللووي ليسوا جيراناً لهنود تومبسون فحسب وإنما يعودون معهم إلى أرومة واحدة هي أرومة الساليش ويتكلمون لغة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بلغتهم. ونص هذه الحكاية هو التالي:

كان القندس والنسر يعيشان مع أختهما في بلاد ليللووي. ولم يكن لديهم نار ويأكلون طعامهم نيئاً. وكانت الأخت تبكي وتشتكي دائماً لأنها لم تكن تملك النار لشواء جلود السلمون المجففة حتى رق لها قلباهما لكثرة ما بكت وقالا لها: «لا تبك بعد الآن! فإننا سنوافيك بالنار. وإننا سنقوم بالتدريبات اللازمة لفترة طويلة، وفي أثناء غيابنا لا ينبغي عليك أن تبكي أبداً ولا أن تتذمري لأنك لو فعلت فإننا سنخفق في محاولتنا وستذهب جهودنا فيما نقوم به من تدريب أدراج الرياح». وبعد أن تركا أختهما ذهب الأخوان إلى الجبال حيث أمضيا أربعة أشهر كاملة في التدريب. وفي نهاية هذه المدة عادا إلى أختهما التي لم تبك خلال ذلك قط وقالا لها إنهما في طريقهما للحصول على النار لأنهما أصبحا يعرفان الآن أين يجدانها وكيف يستوليان عليها.

وبعد خمسة أيام من السفر وصلا إلى بيت الرجال الذين يمتلكون النار. وعند ذلك ارتدى أحد الأخوين جسد نسر بينما ارتدى الثاني جسد القندس. أما الذي ارتدى جسد القندس فقد صنع سداً في مجرى مائي مجاور وبنى فيه نفقاً يوصل إلى ما تحت بيت هؤلاء الرجال. وفي الصباح التالي سبح في طبقة المياه التي صنعها الحاجز حتى رآه رجل عجوز فالتقطه ومضى به إلى المنزل ووضعه بالقرب من النار وطلب من الرجال أن يسلخوه. وبينما كانوا يفعلون وصلوا إلى شيء قاس تحت إبطيه كان قوقعة محارة مغلقة خبأها القندس هناك. وفي هذا الوقت بالذات رأى الرجال نسراً جميلاً يتسلق شجرة مجاورة فأرادوا قتله للاستيلاء على ريشه. وهكذا خرجوا وبدؤوا بالتسديد عليه ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يناله. وعندما كانوا منشغلين بالنسر قام القندس الذي أصبح وحده في المنزل فوضع النار في المحارة المغلقة وهرب بها عن طريق النفق المائي الذي كان قد أعدّه والذي كان يلامس المنزل حيث مضى فيه سباحة مع غنيمته.

وعندما رأى النسر أن أخاه قد أصبح في أمان طار ولحق به وتابعا سفر

العـودة والنسـر يستـريح كلما تعب فوق ظهر القندس حتى أتيا بالنار إلى منزلهما وأعطياها لأختهما التي أصبحت بعد ذلك سعيدة ومرتاحة البال.

على أن الليللووي يروون أيضـاً عن أصـل النار قصة مختلفة عن القصـة السـابقـة هي التـالية: يقـولون إن الغراب والنورس كانا صديقين ويعيشـان في بلاد الليللووي. وكـان للغراب أربعة من الخدم هم الدودة والبرغوث والقملة والصئبان. وكان الجو مظلماً في عالم ذلك العصر لأن النـورس كان يملك الضياء ويمسكه في علبة لا يدعه يخرج منها أبداً إلا لاستعمـالـه الشخصي. ومع ذلك فإن الغراب تمكن من أن يكسر العلبة بالحيلة وينشر ضوء النهار في العالم ولكنه لم يكن يملك النار بعد أن حصل على الضياء.

وأخيراً، بينما كان ينظر من فوق سطح بيته رأى دخاناً يرتفع من مكان بعيد في الجنوب على ساحل البحر. وفي اليوم التالي ركب مع خدمه كلهم في مركب الصئبان ولكن المركب كان صغيراً جداً فانقلبوا عنه. وفي اليوم الذي يليه ركبوا مركب القملة ولكنه كان هو الآخر صغيراً جداً حتى جربوا مراكب كل الخدم دون أن يصلوا إلى نتيجة أفضل. عند ذلك قال الغراب لزوجته أن تذهب فتستعير مركب النورس الكبير لأنه كان مصمماً على أن يذهب للحصول على النار. وبعد أن حصل على القارب المذكور أبحر في اليوم التالي مع خدمه حيث قضوا أربعة أيام ينزلون مع النهر حتى وصلوا إلى بيت الرجال الذين يملكون النار.

عند ذلك سأل الغراب خدمه عمن يرغب منهم بأن يذهب لسرقة ابنة هؤلاء الناس التي كانت لا تزال طفلة في المهد. فتقدم الصئبان طالباً أن يذهب في هذه المهمة، ولكن الآخرين قالوا له: «سيتسبب ذهابك بضجة كبيرة توقظ كل الناس». وعندما تقدمت القملة قدموا لها الاعتراض نفسه. عند ذلك قال البرغوث: «سأذهـب، إذ أنني بقفزة واحدة أصل إلى الطفلة وبقفزة أخرى أكون قد أصبحت في الخارج ولن يستطيع هؤلاء الناس أن يمسكوني». ولكنهم قالوا له: «ستتسبب في ضجيج ولا نريد أن يلاحظ الأمر

هؤلاء النـاس». عند ذلك نطقت الدودة فقالت: «سأمضي ببطء وهدوء، فأحفر ثقباً تحت الأرض وأخرج منه تماماً تحت المكان الذي تنام الطفلة فيه في مهـدهـا فأسـرقها وأعود دون أن يتمكن أحد من أن يسمعني». وفكر الجميع بأن هذا الحل هو خير الحلول وأعطوا موافقتهم على الخطة التي قدمتهـا الدودة إليهم. وعلى الأثر حفرت الدودة في تلك الليلة ثقباً تحت الأرض وسرقت الطفلة. وما أن عادت بها حتى وضعوها في مركبهم وجذّفوا بسرعة مبتعدين باتجاه منزلهم. وفي الصباح التالي لاحظ رجَال النار اختفاء الطفلة وفهم العقلاء منهم ما حدث. وهكذا بدؤوا المطاردة دون أن يتمكنوا من كشف الغراب أو الإمساك به مع خدمه. فالحَفَش* والحوت وعجل البحر فتشوا بعيداً ولكنهم ما لبثوا أن تخلوا وعادوا إلى منازلهم. ولم تتمكن إلا سمكـة صغيرة من تتبع طريق المركب حتى أدركته. وقد حاولت أن تعيق مسيره متمسكة بمجاذيفه ولكنها ما لبثت أن تعبت لطول ما حاولت وعادت أدراجها إلى بيتها. أما والدة الطفلة فقد أسقطت أمطاراً غزيرة (يقول البعض إن هذه الأمطار كانت دموعها) وهي تعتقد أن هذه الأمطار يمكن أن توقف الخاطفين. ولكن كل ما فعلته ذهب أدراج الرياح. وهكذا أدرك الغراب بلده مع الـطفلة. أما أهلوها فعندما عرفوا المكان الذي اقتيدت إليه ذهبوا إلى الغراب ومعهم كثير من الهدايا ولكنه لم ينظر إليها لأنها لم تكن هدفه فعاد أهل الطفلة إلى ديارهم بخفي حنين.

بعد ذلك عادوا مرتين إلى الغراب ومعهم الهدايا ولكن دون أن ينالوا منه أية نتيجة. وفي الزيارة الرابعة رفض الغراب هداياهم أيضاً رغم أنهم كانوا يجلبون في كل مرة هدايا أكثر قيمة من المرة السابقة. عند ذلك سألوه ماذا يريد إذن، فأجـابهم: «أريد ناراً». فقالوا له: «ولِمَ لم تقل ذلك من قبل؟». وكانوا سعداء من هذا الطلب لأنهم كانوا يملكون وفرة من النار ولا يعرفون ما لها من قيمة كبيرة، وهكذا أتوه بالنار واستعادوا الطفلة منه، وأظهر

* الحفَش: نوع من السمك يصنع من بيض الكافيار. ـ المترجم ـ

شعب الأسماك كيف يمكن الحصول على النار من الجذور الجافة لشجيرات القطن. وبعد أن أصبح الغراب سعيداً بما ناله من النار قال للنورس: «لو أنني لم أسرق منك النور لما تمكنت من رؤية أين تُحفظ النار. والآن أصبحنا نمتلك النور والنار والاثنان هما أمران خيّران». ثم باع الغراب بعد ذلك النار إلى كل العائلات التي كانت ترغب بها. وكل عائلة كانت تدفع ثمناً لها واحدة من بناتها تقدمها إليه. وهكذا أصبح الغراب يمتلك الكثير من النساء.

ولقد رأينا في قصة الكواكيتول أن الفيزون* قد حصل على النار التي كان يشتهيها بسرقة طفل ومقايضة النار به.

وإليك قصة أخرى يرويها الليللووي أيضاً والتقطها منهم الدكتور بوا BOAS في المجرى الأدنى من نهر فريزر عن كيفية الحصول على النار بتطبيق مبدأ الخديعة نفسه ولكن بطريقة مختلفة، ونص القصة هو التالي:

أعطى القندس النار للأرواح. ولم يكن بنو الإنسان يعرفون كيف يتزودون بها فأرسلوا القضاعة LOUTRE في النهاية للبحث عنها. فاستعارت القضاعة الصغيرة سكين جدتها وخبأتها تحت ردائها ومضت إلى مسكن الأرواح. وعندما بلغت منزلهم دخلت فرأتهم وهم يرقصون. وعندما انتهوا من الرقص كان الأرواح يشعرون بالحاجة إلى الاغتسال. فقالت لهم القضاعة: «انتظروا، فسأذهب وآتيكم بماء». وهكذا أخذت دلواً ونزلت إلى شاطىء النهر. وعندما عادت بدلوها ممتلئاً بالماء مرت به أمام النيران التي كانت تتقد في المنزل وتظاهرت بأنها تعثرت حتى سكبت الماء فوق النار فأطفأتها. «أواه، لقد تعثّرتُ»، هكذا صاحت معتذرة عن فعلتها. وبعد أن قالت ذلك عادت إلى النهر وملأت الدلو ثم عادت به وسكبته فوق النار الثانية عندما مرت بقربها فأطفأتها. وعند ذلك عم الظلام في المنزل. فاستلت القضاعة سكينها وقطعت بها رأس زعيم الأرواح وذرت فوق العنق المقطوع

* الفيزون VISON حيوان أمريكي من الثدييات يطلب لفرائه. ـ المترجم ـ

شيئاً من الرمال لتمنعه من النزيف، ثم مضت من المنزل ومعها الرأس المقطوع. ولكن، وحتى قبل أن يتمكن الأرواح من إيقاد النار ثانية كان الرمل قد تخضب بالدم. وقد شاهدته والدة الزعيم، فلما أُشعلت النار رأوا رأس الزعيم المقطوع فقالت والدة القتيل: «اذهبوا غداً إلى بيت القضاعة الصغيرة وأعطوها فدية عن رأس الزعيم». ففعلوا ما أمرتهم به وذهبوا إلى بيت القضاعة الصغيرة التي كانت قد بنت عشرة بيوت وصنعت بمساعدة جدتها عشرة أثواب. فلما وصل الأرواح كانت القضاعة الصغيرة تظهر طوراً فوق سطح هذا البيت وطوراً فوق سطح هذا البيت حتى ظن الأرواح أن ثمة الكثير من الناس. ولما وصلوا قالوا لجدتها: «سنعطيكم كثيراً من الثياب مقابل رأس الزعيم». ولكنها أجابتهم: «إن ابنتي لا تريد شيئاً من الملابس». فعرضوا عند ذلك قوساً وسهاماً ولكن الجدة رفضتها هي أيضاً. فبكى الأرواح عند ذلك وبكت معهم الأشجار التي كانت ثكلى حتى أن دموعها تحولت إلى أمطار. وأخيراً عرض الأرواح على القضاعة الصغيرة «غابة النار» فقبلتها الجدة فوراً وأعادت لهم الرأس. ومنذ ذلك الوقت أصبح لدى بني الإنسان نار.

أما السنانايموك أو النانايمو، وهم قبيلة من الساليش تسكن المنطقة المجاورة لنانايموها ربور ولبحيرة نانايمو إلى الجنوب الشرقي من جزيرة فانكوفر فيتحدثون أيضاً عن كيفية حصول بني الإنسان على النار بمبادلتها بطفل. وهم يقولون إن الناس بقوا مدة طويلة بلا نار. ثم رغب الفيزون أن يذهب للبحث عنها ومضى مع جدته إلى بيت الزعيم الذي كان يحتفظ بالنار. وهكذا أبحرا دون أن يراهما أحد. فلما وصلا تسلل الفيزون ليلاً إلى البيت بينما كان الزعيم وزوجته نائمين والطائر تيجيا يهز سرير الطفل. ولما فتح الفيزون الباب أحس الطائر صريره فصاح «باك، باك» من أجل إيقاظ الزعيم، ولكن الفيزون أسر إليه بصوت خافت: «نم، نم» فنام الطير. عند ذلك دخل الفيزون إلى البيت وسرق طفل الزعيم في مهده وجرى مسرعاً إلى قاربه حيث كانت جدته تنتظره وعادا أدراجهما سوية مستعملين الشراع تارة

والمجداف تارة أخرى. وكلما مرا أمام قرية كان على الجدة أن تقرص الصبي حتى يصيح. وأخيراً وصلا إلى تلالتيك (جزيرة غابريولا أمام نانايمو) حيث كان الفيزون يملك بيتاً كبيراً يسكن فيه هو وجدته وحيدين. وفي صباح اليوم التالي لاحظ الزعيم غياب طفله فحزن عليه حزناً كبيراً ومضى في قاربه يبحث عنه حتى وصل إلى القرية فسأل: «أما رأيتم طفلي؟ لقد سُرق مني». فأجاب الرجال: «في الليلة الماضية مر الفيزون من هنا بينما كان في قاربه طفل يصرخ». وهكذا عرف الزعيم طريقه إلى تالتليك. وكان الفيزون في انتظاره، فلما رآه قادماً عن بعد وضع إحدى قبعاته الفرائية على رأسه وخرج يرقص أمام بيته وجدته تمسك له الوحدة وتغني. ثم قفز إلى بيته فاعتمر قبعة فرائية أخرى وظهر على باب آخر في شكل مختلف. وأخيراً خرج من الباب الأوسط حاملاً طفل الزعيم بين ذراعيه. ولم يتجرأ الزعيم على مهاجمته لأنه ظن وجود عدد كبير من الناس في البيت فقال له: «رد لي ولدي وسأعطيك الكثير من صفائح النحاس»، ولكن جدة الفيزون صرخت فيه: «لا تقبل بها». وأخيراً عرض عليه الزعيم غابة النار فقبلها الفيزون بناء على نصيحة من جدته. وهكذا أخذ الزعيم طفله وعاد إلى بيته بينما أوقد الفيزون ناراً كبيرة وحصل الناس على نعمة النار. ولا شك أنكم تلاحظون أن هذه القصة تنطبق فيما هو أساسي منها على تلك التي وصلت إلينا بشكل أكثر اختصاراً من لدى الكواكيتول.

ويروي الهنود الأوكاناكن، وهم الفرع من الساليش الواقع في أقصى الغرب من كولومبيا البريطانية ويمتد إلى الجنوب من أراضي الولايات المتحدة الامريكية بحيث تفصله الحدود بين الدولتين إلى قسمين متساويين تقريباً، يروي هؤلاء الهنود عن أصل النار القصة التالية: مر على الإنسان حين من الدهر لم يكن فيه يملك النار مما أجبر الناس على عقد اجتماع لمناقشة الطريقة التي يمكنهم بها الحصول عليها. وقد تساءلوا عن الطريقة الأفضل التي يمكن بها التسلق إلى العالم الأعلى حتى عزموا أخيراً على صنع سلسلة من السهام. ومن أجل هذه الغاية أطلقوا سهماً إلى السماء

ولكنه لم يبق ثابتاً فيها. فجربوا جميعهم أن يفعلوا ذلك، واحدهم بعد الآخر، ولكنهم باؤوا بالفشل الذريع. وأخيراً قام الطائر (تسيسكاكينا) فرمى سهامه إلى الهدف المراد حتى تعلق آخر سهم فيها بحيث أصبح بإمكان الآخرين أن يربطوا به ما يرمونه من سهام. وما لبثت سلسلة السهام أن أنجزت بعد ذلك فتسلقوها كلهم ثم تشاوروا في أفضل الطرق التي يحصلون بها على النار. وقد تم عزمهم على أن يذهب القندس في الماء وأن يترك نفسه فريسة بين يدي رجال النار الذين كانوا يصطادون السمك في الجوار، وعندما يبدأ هؤلاء بسلخ جلده ينقض النسر عليهم ويلهيهم عن القندس فيبتعدون عنه. وعند ذلك يمسك القندس بقبس من النار وينجو بنفسه. وعلى الأثر دخل القندس مجرى الماء الذي كان رجال النار يصطادون فيه وترك نفسه يقع في أيديهم. فأخذوه فوراً إلى منزلهم وبدؤوا بسلخ جلده. وما كادوا يشقون جلد صدره حتى أتى النسر محوّماً فوقهم حتى جذب انتباههم فأمسك كل واحد منهم بقوسه وسهامه وقاموا يطاردون النسر محاولين صيده. وقد أفاد القندس من هذه الفرصة فنهض بقفزة واحدة ووضع النار في جلده الذي كان الرجال قد شقّوه وعاد إلى أقرانه حيث ما لبث النسر أن لحق به. وحدثت جلبة كبيرة عند أعلى السلم يحاول كل منهم أن ينزل قبل الآخر. وبينما همو يتدافعون ويتخبطون كسروا سلسلة السهام قبل أن ينزلوا كلهم ولم يبق أمام بعضهم إلا القفز. وقد سقطت السمكة الهر في ثقب وانكسر فكها إلى قطع صغيرة، بينما آذت سمكة الكشك رأسها وانكسرت منها العظام، ولذلك وجب على بقية الحيوانات أن يجهزها كل منهم بعظمة لكي تستعيد رأسها من جديد، ومن أجل ذلك أصبح للسمكة الهر فم يختلف عن بقية الأفواه.

أما هنود السانبوال الذين ينتمون أيضاً إلى أرومة الساليش ويعيشون على نهر سانبوال ونهر كولومبيا في أسفل البيغ بيند من ولاية واشنطن فيروون القصة نفسها مع شيء من التبديلات ذات الدلالة الخاصة. فهم يقولون إن السماء أمطرت في إحدى المرات حتى انطفأت كل النيران على الأرض.

فعقـد الحيوانـات مؤتمـراً قرروا فيه أن يعلنـوا الحـرب على السماء حتى يستعيدوا منها النار. وقد بدأ الرجال حربهم في الربيع حيث أخذوا يقذفون بسهامهم إلى السماء. وكان القيّوط أول من حاول ذلك ولكنه لم ينجح. وأخيراً توصل الشيكادي* لأن يرمي سهماً استقر في السماء، ثم استمر في الرماية حتى صنع سلسلة من السهام تسلق عن طريقها جميع الحيوانات. وكان الدب غريزلي آخر المتسلقين فانكسرت تحت ثقله سلسلة السهام ولم يتمكن من اللحاق ببقية الحيوانات التي وصلت إلى السماء. وعندما وصل الحيوانات إلى السماء وجدوا أنفسهم في واد قريب من بحيرة كان سكان السماء قد أوشكوا على أن يقوموا بصيد السمك في مائها. وقد أراد القيّوط أن يذهب مستـطلعـاً فمـا لبث أن ألقي القبض عليه. عند ذلك حفر فأر المسك ثقوباً على طول شط البحيرة بينما تكفل القندس والنسر بالاستيلاء على النار. فدخل القندس في إحدى شبكات الصيد وتظاهر بالموت فأخذوه إلى بيت الزعيم حيث بدأ الرجال بسلخ جلده. وفي تلك اللحظة تماماً حط النسـر على شجـرة قريبـة من الخيمة، فلما رآه الرجال ركضوا إلى خارج الخيمة بينما ملأ القندس فوراً إحدى قواقع المحار بجذوات من النار الحارة ولاذ بهـا بالفرار. وقد قفز في البحيرة والرجال يحاولون الامساك به بشباك الصيد ولكن المـاء قاده إلى الثقب الـذي حفـره فأر المسـك. وركض الحيوانات عائدين إلى سلسلة السهام فوجدوها قد كُسرت. وعند ذلك قام كل طير بحمل أحد ذوات الأربع على ظهره ونزل به وهو يطير، ولم يبق في الأعلى إلا القيّوط وسمكة اللَشك. فربط القيّوط على كل قائمة من قوائمه قطعة من جلد الفيزون وقفز إلى الأسفل في الهواء حتى استقر فوق شجرة من أشجار الصنوبر. ولما أراد في صباح اليوم التالي أن ينزع هذه القطع الجلدية عن قوائمه لم يتمكن فانقلب إلى خفّاش. أما سمكة اللشك فلم

---

* الشيكادي CHICKADEE نوع من الحيوانات الأمريكية من فصيلة ARTICAPILLVS.
PANTHASTES ـ المترجم ـ

يبق أمـامهـا إلا أن تقفـز من عل فتحطمت إلى قطع صغيرة. وقد أصلح الحيوانات عظامها ولكن بعض هذه العظام بقيت ناقصة فوضعوا في ذنبها بعض أشواك الشربين فأصبح لها منذ ذلك الوقت كثير من الحسك.

والآن بعـد أن أمضينا هذا الوقت مع القبائل التي تنتمي إلى أرومة الساليش وتسكن الجزء الجنوبي من كولومبيا البريطانية سننتقل إلى قبائل أبعد نحو الشمال وتنتمي إلى عائلة أتابا سكان الكبيرة. ومن بين هذه القبائل قبيلة الشيلكوتان أو التسيلكوتان الذين يسكنون وادي نهر عُرف باسمهم، وتمتد أرضهم على حوالي درجة العرض الثانية والخمسين. والقصة التي يروونها عن أصل النار هي التالية:

فيما مضى من الزمان القديم لم يكن في العالم نار باستثناء بيت رجل لم يكن يريد أن يعطيها لبقية بني الإنسان. فقرر الغراب في أحد الأيام أن يسرق هذه النار فجمع إخوته وأصدقاءه وذهب إلى بيت رجل النار. وكانت النار تتقد بجانب المنزل بينما جلس مالكها إلى جانبها وهو يتمتع بمرآها. وما أن دخل الغراب وأصدقاؤه حتى بدؤوا بالرقص. وكان الغراب قد ربط بشعره قطعاً من نشارة الخشب، فما لبث أن قرّبها من النار حتى أوشكت أن تمسك بها لولا أن رجل النار كان متيقظاً فمنع حدوث ذلك. واستمر الجميع بالـرقص. رقصـوا ورقصـوا حتى تعبوا كلهم واحداً بعد الآخر وتوقفوا عن الرقص باستثناء الغراب. وقد رقص الغراب طول النهار وطول الليل وكل اليوم التالي حتى تعب رجل النار نفسه فغفا رغماً عنه. وما أن رأى الغراب ذلك حتى وضع رأسه بحيث تأخذ النشارة النار ثم لاذ بالفرار خارج المنزل جارياً في كل البلاد وموزعاً النار في مختلف الأماكن. ولما استيقظ رجل النار ورأى الدخان في كل مكان أدرك فوراً ما حدث فأخذ يجري هنا وهناك باذلاً جهده لاستعادة ناره ولكنه لم يستطع لأنها كانت تشتعل في كل مكان، ومنذ ذلك الوقت أصبح لدى بني الإنسان نار. ولما بدأت الغابات تشتعل أخذت الحيوانات تجري حتى تمكنت كلها من النجاة باستثناء الأرنب الذي لم يجر بالسرعة الكافية فأمسكت به النار. ومن أجل ذلك أصبح للأرانب

بقع سود في أخمص أقدامها حتى اليوم. ولما احترقت الأشجار بقيت النار في الخشب، ومن أجل ذلك صارت الأخشاب تشتعل اليوم بحك قطعة منها بقطعة أخرى.

أما هنود الكاسكا، وهم قبيلة أخرى من عائلة الأتابا سكان ويحتلون أرضاً تقع إلى الشمال في داخل كولومبيا البريطانية على المنحدر الشمالي من الجبال غير بعيد من أرض الشيكلوتان نحو الشمال، فإنهم يروون القصة التالية عن أصل النار:

في عهد من الماضي السحيق لم يكن الناس يمتلكون النار. ومن بينهم جميعاً كان الدب وحده من يحظى بامتلاكها. فقد كان له حجر ناري يستطيع به أن يوقد النار عندما يشاء. وكان يحرص على هذا الحجر ويحافظ عليه محافظة شديدة ويربطه في زناره. وفي أحد الأيام كان يتمدد في كوخه بالقرب من النار عندما دخل عليه طائر صغير واقترب من النار. فقال له الدب «ماذا تريد؟»، فأجاب الطير: «أكاد أتجمد من البرد فدخلت لأتدفأ». فطلب منه الدب أن يتقدم ليفلّيه. فاستجاب العصفور وأخذ ينطنط فوق الدب مفلّياً إياه. وعندما كان يفعل ذلك نقر العقدة التي كانت تربط حجر النار بالزنار حتى انحلت وسقط الحجر منها فالتقطه الطير وطار به مبتعداً عن الدب. وكانت الحيوانات خلال ذلك قد هيأت نفسها لسرقة النار فاصطفت واحداً بعد الآخر تنتظر الطير. ولما قام الدب بمطاردة الطائر وكاد أن يمسك به كان الطائر قد وصل إلى أول الحيوانات الواقفين في الصف فقذف له بالنار ففر هذا بها. ولما أدركه الدب رمى النار بدوره إلى من يليه وهكذا حتى وصلت النار إلى الثعلب الذي جرى بها نحو جبل عال. وكان الدب قد بلغ منه التعب أقصاه لدرجة أنه لم يكن قادراً على ملاحقة الثعلب فعاد أدراجه. أما الثعلب فإنه كسر حجر النار على قمة الجبل ورمى إلى كل قبيلة بقطعة منها. وهكذا أصبح لدى كل قبائل الأرض نار يوقدونها ويصطلون بها وأصبحت النار موجودة اليوم في كل الأحجار والأخشاب.

أما هنود البابين، وهم قبيلة أخرى من أرومة الأتابا سكان تسكن داخل

البلاد بالقرب من بحيرة بابين في القسم الشمالي من وسط كولومبيا البريطانية فلهم قصة أخرى عن أصل النار. فهم يقولون إنه في ماضي الزمان كانت النار الوحيدة في العالم من نصيب زعيم عجوز كان يحافظ عليها من أجله وحده في كوخه ولا يشاء أن يقاسم عليها أي إنسان. فكان كل بني البشر إذن يرتجفون من البرد ما عدا هذا الزعيم العجوز. وبما أنه كان يصم آذانه عن طلبهم للنار فقد قرروا أن ينتزعوها منه عنوة عن طريق حيلة يلجؤون إليها. ومن أجل تحقيق هذا الهدف توجهوا إلى الرنة وإلى فأر المسك فهيئوا للأول منهما زينة من الخشب الراتنجي ربطوا به نشارة قابلة للاشتعال وألبسوا الفأر مئزراً وجلود مرموط*. ثم دخلوا إلى بيت الزعيم الشيخ مالك النار وهم يغنون. ووقف كل من الرنة وفأر المسك على طرفي الموقد يراقبان بانتباه صاحب الكوخ. ثم أخذ الحيوانان بالرقص. وبينما كانا يفعلان كان الرنة يهز رأسه كعادته من جهة إلى أخرى ويتهيأ لإشعال زينته من الخشب الراتنجي بلهيب الموقد. ولكن العجوز الذي كان متنبهاً لحركاته كان يطفىء النار التي تشتعل فوراً. وبعد ذلك بقليل، وفي وسط الأغاني الصاخبة التي كان القوم يرافقون بها الرقص نجح الرنة من جديد بوضع النار في زينته، ولم يتمكن العجوز من إطفائها إلا بعد جهد جهيد. وفي هذه الأثناء كان فأر المسك يحفر الأرض منذ مدة طويلة منتظراً ساعته المناسبة، فلما أزفت انقض بسرعة فأمسك ببعض جمرات من النار الحارة واختفى بها تحت الأرض. وبعد ذلك بقليل رأى الناس عموداً من الدخان يتصاعد فوق جبل على مستوى الأفق. ثم ما لبثت ألسنة النار أن أعقبت الدخان فعلم الناس عندئذ أن فأر المسك قد نجح في الحصول لهم على النار.

ولا شك أن هذه القصة التي تدل على أن الناس عرفوا نعمة النار بمراقبة الدخان وألسنة النار المنبعثة من الجبل لها دلالتها. فهي تدعونا إلى الافتراض بأن الهنود حصلوا على النار أو ظنوا أنهم حصلوا عليها من أحد البراكين النشطة التي توجد في هذا القسم من أمريكا.

---

* المرموط: حيوان لبون قاضم ينام في الشتاء. ـ المترجم ـ

ويقول هنود الهايدا من جزيرة الملكة شارلوت إنه حدث في الماضي طوفان هلك فيه كل الرجال والحيوانات باستثناء غراب. ولم يكن هذا الطير مع ذلك طائراً عادياً وإنما كان يمتلك، كما هو الشأن في كل القصص الهندية القديمة التي تروى عن الحيوانات، كل خصائص كائن إنساني. فمثلاً كان يستطيع أن يخلع رداءه الريشي وأن يرتديه متى يشاء وكأنه ثوب من الثياب. وتروي هذه القصة أنه وُلد لامرأة لم يكن لها زوج وأنها صنعت له قوساً وسهاماً. وبعد أن دمر الطوفان الإنسانية تزوج هذا الغراب ذو الشأن من محارة ولدت له بنتاً. ولما اتخذ هذه البنت زوجة له عاد فعمر الأرض ببني الإنسان. ولكن الناس الذين نسلوا من ذريته كان لهم احتياجات كثيرة لأنهم لم يكونوا قد امتلكوا النار ولا ضوء النهار ولا الماء العذب ولا سمك الغولاشان. فهذه الأشياء تخص زعيماً كبيراً أو إلهاً اسمه سيتلان ـ كي ـ جاش كان يعيش حيث يوجد الآن نهر ناس. ومع ذلك تمكن الغراب المحتال من أن يسرق كل هذه الأشياء المفيدة من مالكها وأن يتحف بها الإنسانية. والطريقة التي اتبعها في سرقة النار هي التالية: إنه لم يتجرأ أن يقدم نفسه إلى حضرة الزعيم في بيته وإنما اتخذ هيأة شوكة من أشواك الصنوبر وسبح في الماء حتى اقترب من البيت. وكان للزعيم ابنة، فلما كانت تغترف من الماء أخرجت في وعائها شوكة الصنوبر وابتلعتها في شربتها دون أن تقيم لذلك أدنى اعتبار. وبعد فترة من الزمن ولدت ابناً لم يكن إلا الغراب المحتال. وهكذا تمكن الغراب من الدخول إلى الكوخ. ولما واتته الفرصة التقط في أحد الأيام جذوة وارتدى لباسه الريشي وطار من طاقة المدخنة حاملاً النار معه وناشراً إياها في كل مكان. وكان أحد الأمكنة الأولى التي وضع فيها النار في أقصى الشمال الشرقي من جزيرة فانكوفر ولذلك كان لعدد كبير من أشجارها لحاء أسود.

وهنالك نص آخر لحكاية الهايدا هذه مرويّ بلهجة الماسّي هو التالي:

في ذلك الزمان، وعندما كان الغراب يسافر لم يكن أحد يرى ناراً

وكان الناس يجهلونها. عند ذلك ذهب الغراب إلى الشمال فوق سطح البحر. وهنالك بعيداً فوق البحر كانت تنمو أشنة كبيرة نزع منها رأسها وكانت تخرج منها كثير من الشرارات. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يشاهد فيها الغراب ناراً فذهب بعيداً إلى أعماق المحيط. وقد أرادت الأسماك الكبيرة أن تقتله بينما كان يتقدم، كالحوت الأسود وسمك الشيطان والسكولبان وغيرها، وكان مالك النار هو الذي توجه إليه الغراب.

فلما دخل عليه البيت قال له مالك النار: «تعال واجلس هنا أيها الرئيس». فقال له الغراب: «هل سيعطيني الزعيم ناراً؟». فأعطاه منها حسبما رغب، ولما أعطاه منها قدمها له في طبق من حجر وفوقها غطاء. ومضى الغراب مع ما أخذ. فلما بلغ الشاطىء وضع قطعة من الحجر الحار في شجرة أرز كانت موجودة هناك، ثم دخل إلى البيت الذي تعيش فيه أخته وكانت الفراشة معها في البيت فأشعل النار. وبما أنه وضع قطعة من النار في الأرز فإن الناس أصبحوا عندما يحكون أخشاب الأرز بعضها ببعض يحصلون منها على النار.

ويروي هنود التلينجيت من آلاسكا قصة أخرى عن مآثر الغراب في أيام العالم الأولى. فهم يقولون إن النار في ذلك الوقت لم يكن لها وجود بعد على الأرض. وإنما كانت موجودة في إحدى الجزر البحرية فحسب. فطار إليها الغراب والتقط منها جمرة في منقاره وعاد بسرعة إلى الأرض. ولكن المسافة كانت بعيدة جدا لدرجة أنه عندما وصل كانت الجمرة على وشك الانطفاء وكان منقاره قد أوشك على الاحتراق. وما أن وصل إلى الساحل حتى ترك الجذوة الحارة تسقط على الأرض فانتشر رمادها فوق الأحجار، وهذا هو السبب، كما يقول التلينجيت في أن الأحجار والأخشاب تحتوي ناراً يمكن الحصول على شرارات منها بقدح قطعة من الحجر بقطعة من الفولاذ أو بحك قطعتين من الخشب إحداهما بالأخرى.

وهنالك نص آخر لهذه القصة يرويه التلينجيت أيضاً إليك خبره:

في البدء لم يكن لدى بني البشر نار. ولكن الغراب كان يعرف أن بوم

الثلوج الـذي كان يعيش بعيداً في المحيط كان يحتفظ بالنار. فطلب من جميع الـرجـال الذين كان لهم في ذلك الوقت هيأة الحيوانات أن يذهبوا واحداً بعد الآخر للبحث عن النار ولكن لم ينجح أحد في الحصول عليها. فقال الأيّل الذي كان له يومذاك ذنب طويل: «سآخذ خشباً قابلاً للاحتراق فتربطوه بذنبي وبهذا أذهب للبحث عن النار». وتم له ما أراد فجرى إلى بيت بوم الثلوج ورقص حول النار حتى مرّر ذنبه أخيراً بالقرب من اللهب فأمسكت النار بالخشب المربوط بالذنب ولاذ بالفرار. وهكذا احترق ذنب الأيّل ولم يبق له منه إلا نهايته.

ففي هذا النص من حكاية التلينجيت لم يكن الغراب هو الذي سرق النـار وإنمـا هو الأيّل الـذي رقص حولهـا وقـد ربط في ذنبـه خشباً قابلاً للاحتـراق. ولقد رأينا كيف أن مثل هذه القصة كان يرويها خصوصاً هنود النوتكا والكوكيوتل وقبائل أخرى تسكن المنطقة الجنوبية من كولومبيا البريطانية.

وثمة نص ثالث يرويه التلبنجيت لم يكن فيه الغراب ولا الأيّل من سرق النار. فهم يقولون إن الغراب بينما كان في أحد أسفاره وصل إلى مكان رأى فيه شيئاً يعوم غير بعيد عن الشاطىء دون أن يقترب منه. فجمع كل أنواع الطيور وتطلعوا في المساء إلى هذا الشيء فرأوا أنه يشبه النار. عند ذلك أصدر أمره إلى صقر فتي كان له منقار طويل بأن يسرق النار قائلاً له: «كن جريئاً، فإذا أمسكت بشيء من هذه النار فلا تفلته أبداً». وقد وصل الصقـر الشـاب إلى المكـان المقصود وأمسك بشيء من النار وعاد طائراً بأقصى سرعة ممكنة، ولكنه عندما أوصل النار إلى الغراب كان منقاره قد احترق، ولذلك أصبح للصقر هذا المنقار القصير. ثم أخذ الغراب بعد ذلك شجـرة أرز حمـراء وبعضاً من الحصى الأبيض مما وجده على الشاطىء ووضع فيهما النار بحيث يمكن الحصول عليها فيما بعد على يد من يريد من بني الإنسان.

وفي منـطقـة أبعـد إلى الشمـال حيث يسكن الأسكيمـو السواحل

المتجمدة من مضيق بهرنغ يلعب الغراب دوراً هاماً في الأساطير التي يروونها لتفسير أصل الأشياء. ويقول هؤلاء الأسكيمو إنه بعد فترة وجيزة من ظهور أوائل الناس على الأرض علّمهم الغراب صنع غابة النار كما علمهم صنع قوس بقطعة من الخشب وحبل، وذلك بأن يأخذ الخشب من الأدغال والأشجار الصغيرة التي جعلها تنمو في الوديان والأماكن المحمية من الرياح، وبأن يضعوا بعد ذلك الخشب اليابس على العشب الملتهب. فجهاز صنع النار الذي علّمه الغراب إلى الأسكيمو كما يقولون إنما هو غابة النار ذات القوس حيث يدور الوتر حول غابة النار بعد أن يشده القوس فيدير آلة النار بأسرع كثيراً من استعمال حبل بسيط يسحبه بيديه صانع النار من طرفيه. ولا يزال أسكيمو مضيق بهرنغ يستعملون حتى الآن جهاز غابة النار على الشكل السابق وصفه شأنهم في ذلك شأن سائر الأسكيمو وشأن بعض القبائل الهندية في أمريكا الشمالية.

١٤ ـ أصل النار في أوروبا

يروون في نورمانديا القصة التالية عن أصل النار:

«في الأيام الغابرة البعيدة لم تكن نار على الأرض ولم يكن الناس يعرفون كيف يحصلون عليها. فاتفقوا على وجوب البحث عنها لدى الإله، ولكن الإله الصالح كان بعيداً جداً عنهم. فمنذا الذي يحمل على عاتقه مهمة السفر إليه؟. عرضوا الأمر على كبار الطيور ولكن هؤلاء الطيور الكبار رفضوا، وكذلك رفض الطيور ذوو القامة المتوسطة بما في ذلك القبّرة. وبينما كانوا يتباحثون كان عصفور الصعوة ROITELET يصغي إليهم فقال: «بما أن أحداً منكم لا يريد الذهاب إلى هناك فإنني سأذهب بنفسي». ـ «ولكنك صغير جداً ـ قالوا له ـ وأجنحتك قصيرة جداً فتموت من التعب قبل أن تصل». ـ «سأحاول ـ قال الصعوة ـ فإذا مت في الطريق فبئس المصير».

وطار، طار بشكل رائع حتى أنه بلغ الإله الصالح. وقد دُهش الإله من رؤية الصعوة وجعله يستريح على ركبتيه، ولكنه تردد في إعطائه النار. «- إنك ستحترق، قال له، قبل أن تصل إلى الأرض». فألح الصعوة فقال الإله الصالح أخيراً: «حسن، سأعطيك ما تريد ولكن ينبغي عليك أن تتأنى فلا تطير بسرعة كبيرة، فإذا فعلت فإن النار ستحرق جناحيك».

فوعد الصعوة بأن يكون حريصاً وطار يملؤه الفرح نحو الأرض. وكان يمسك نفسه ولا يسرع طالما كان بعيداً عنها، فلما اقترب منها رأى كل الناس ينظرون اليه وينتظرونه وينادون باسمه أسرع على غير رغبة منه. وعند ذلك حدث ما كان يتوقعه الإله. لقد جلب النار إلى بني الإنسان فاستولوا عليها ولكن الصعوة المسكين لم يبق فوق جسمه ريش إذ احترق كله. فتجمع الطيور محتشدين حوله، وكل منهم انتزع ريشة من ريشه ليصنعوا للصعوة ثوباً، ومنذ ذلك الوقت أصبح ريشه مرقّع الألوان. ولم يبق من بين الطيور إلا طائر لئيم لم يقدم له شيئاً من ريشه هو البوم. فانقض الطيور كلهم عليه لعقابه على قسوة قلبه حتى أجبروه على الاختباء ولم يعد يخرج بعد ذلك إلا في الليل، فإذا خرج في النهار عادوا فانقضوا عليه حتى يجبروه على العودة إلى جحره. واليوم إذا قام ولد بقتل صعوة أو خراب عشه فإنه سيجلب على بيته نار الصواعق، بل ربما أصبح يتيماً وبدون مأوى عقاباً له على فعلته تلك». وهكذا فإنهم يحاولون أن يقولوا لنا بوجه عام إن الصعوة في نورمانديا محترم جداً لأنه هو الذي أتى بالنار كما يقولون من السماء، والناس مقتنعون هناك بأنه لابد من أن يلحق الأذى بكل من يقتل هذا العصفور.

وفي بريتانيا العليا يروون القصة نفسها في موضوع الصعوة. فهنا أيضاً يقولون إنه هو الذي أتى بالنار من السماء، وإنه بعد عودته تلقى ريشه من كل طير عدا البوم الذي صرح بأن ريشه كان أجمل بكثير من أن يعرّضه للاحتراق، وكذلك فإن الطيور كلها، وبخاصة طائر العقعق، تلاحقه على الدوام. كما أنهم يقولون في بريتانيا بأنه لا يجب إيذاء طيور الصعوة لأنها

هي التي أتت بالنار إلى الأرض. ويعتقد الناس المجاورون لبلدة (دول) أنه إذا قام أحد بسرقة عش صعوة فإن الأصابع التي سرقت بيضه أو صغاره ستصاب بالشلل. ويقولون في سان دونان إنه إذا لمس بعض الصبية صغار صعوة فإنهم سيصابون بنار سان لوران، أي أنهم سيصابون بثآليل وقروح في الوجه والأطراف ومناطق أخرى من الجسم. أما في نواحي لوريان فتنتشر قصة فحواها أن الصعوة ذهب ليبحث عن النار ليس في السماء وإنما في جهنم فاحترق ريشه عندما كان يجتاز ثقب القفل.

إلا أن بطل أسطورة النار في بعض أجزاء بريتانيا ليس هو الصعوة وإنما أبو الحن. فقد ذهب أبو الحن ليبحث عن النار فأحرق كل ريشه. عند ذلك أشفق الطيور عليه وقرروا أن يكسوه من جديد بإعطائه ريشة من كل منهم، ولم يمتنع عن ذلك إلا البوم المتعجرف صاحب القلب القاسي، ولذلك فإنه عندما يظهر في النهار تصرخ فيه كل الطيور الصغيرة وبخاصة أبا الحن الذي يوبخ البوم على عجرفته فيما يصدر عنه من غناء. ومع ذلك فإنهم حاولوا في بريتانيا أن يوفقوا بين الطائرين اللذين يتنافسان على شرف الإتيان بالنار من السماء، فثمة نص من هذه الأسطورة يقول إنه بينما أبو الحن هو الذي أتى بالنار فإن الصعوة هو الذي قام بإيقادها.

أما في غيرينسي فيقولون إن أبا الحن هو الذي أتى بالنار قبل غيره إلى هذه الجزيرة وبينما كان يجتاز الماء أحرقت النار ريشه وأصبح صدره منذ ذلك الوقت أحمر بسبب ذلك. وتضيف امرأة عجوز ولدت في هذه الجزيرة قولها: «إن أمي تكن تقديراً كبيراً لأبي الحن، فماذا كنا نصنع بدون نار».

وفي شارم من محافظة لوراي تدور قصة فحواها أن الصعوة سرق النار من السماء ونزل بها إلى الأرض فاحترق جناحاه وكان لابد له من أن يعهد بحمله الثمين إلى أبي الحن. ولكن أبا الحن أحرق صدره وهو يحمل النار فكان لابد له من أن يتخلى عن مهمته كحامل للنار المقدسة إلى القبّرة التي أوصلتها سالمة إلى الأرض وأعطت للبشرية هذا الكنز. هذه القصة تشبه

كثيراً أساطير النار عند الهنود الامريكيين الذين يقولون إن النار انتقلت من واحد إلى آخر عبر صف من الحيوانات العدّائين.

ويبدو أن أسطورة الصعوة كأول حامل للنار مجهولة تماماً في ألمانيا.

١٥ ـ أصل النار في اليونان القديمة

كانت تسود في اليونان القديمة أسطورة مفادها أن إله السماء الأكبر زيوس خبأ النار عن بني الإنسان. ولكن بروميثوس البطل الأريب وابن تيتان جابي سرق النار من إله السماء واختبأ في ساق شُمرة FENOVIL (نوع من النبات) وأتى بها إلى الأرض إلى بني الإنسان. فعاقبه زيوس على هذه السرقة بأن سمرّه أو قيده على قمة القوقاز وعهد إلى نسر بأن ينهش كبده أثناء النهار لأن هذا العضو يستعيد في الليل كل ما فقده خلال النهار. واستمر برميثوس يتحمل هذا العذاب ثلاثين أو ثلاثين ألف عام حتى أنقذه في النهاية هرقل.

ومع ذلك، فبحسب ما يذهب اليه أفلاطون لم يقم بروميثيوس بسرقة النار وتقديمها للبشر من لدى زيوس إله السماء وإنما من مصنع هيفايستوس إله النار ومن أثينا إلهة الفنون. ويروي لنا الفيلسوف أن الآلهة صنعوا تحت

الأرض كل المخلوقات الفانية بما في ذلك بنو الإنسان والحيوانات بتركيب أجسادهم من نار ومن تراب. وعندما أزفت ساعة نقل هؤلاء المخلوقات الذين تم صنعهم حديثاً إلى سطح الأرض عهد الآلهة إلى بروميثيوس وأخيه إبيميثيوس بمهمة تدبير أمر الناس والحيوانات بمنح كل نوع منهما وظيفته وامكانياته الخاصة به. ولكن إبيميثيوس المجنون أقنع أخاه العاقل بأن يتخلى له عن هذه المهمة الدقيقة. وكانت النتيجة أنه تصرف أسوأ تصرف بتقديمه أفضل الهبات للحيوانات بينما ترك بني الإنسان عراة لا قدرة لهم على الدفاع. وقد تضايق بروميثيوس صديق الجنس البشري كثيراً وهو يحاول أن يجد دواء لهذه النواقص سيما وأن اليوم الذي حدده القدر لخروج بني الإنسان من أحشاء الأرض أصبح وشيك الوقوع. وفي حيرته تبادر إلى ذهنه أن يمنح نعمة النار إلى خلصائه من بني الإنسان. ذلك لأنه قدّر نفعها للفنون الصناعية التي تعوض على البشرية فقدان الهبات الثمينة التي كان أخوه الأحمق قد منحها للحيوانات. ولكن بروميثيوس لم يكن يستطيع أن يدخل قلعة زيوس لكي يجلب النار من السماء لأنها كانت محمية من حراس أشداء. وهكذا تسلل خلسة إلى مصنع هيفايستوس وأثينا اللذين كانا يعملان سوية يداً بيد. فسرق النار من هيفايستوس، وسرق من أثينا مهارتها الميكانيكية وقدم هاتين الهديتين الثمينتين لبني الإنسان. وقد عرف لوسيان هذا النص الأفلاطوني للأسطورة لأنه قدم لنا هيفايستوس وهو يوبخ بروميثيوس لاختلاسه سر النار منه وتركه كور حدادته معرضاً للابتزاز. كما أن شيشيرون تحدث عن السرقة الليمنوسية التي عوقب بسببها بروميثيوس أشد عقاب، وفي ذلك إلماح إلى أن السرقة حدثت بالقوة من هيفايستوس من جزيرة ليمنوس التي كان هيفايستوس قد سقط فيها عندما قذف به زيوس من السماء. وثمة أسطورة أخرى ربما فسرت أصل النار على الأرض بسقوط هيفايستوس الذي جلب معه بسقوطه النار ـ كما يُفترض ـ من السماء إلى الأرض واستخدمها في إيقاد كوره في الجزيرة المذكورة.

وبمقتضى قصة أخرى فإن بروميثيوس حصل على النار بتسلقه إلى

السماء وإيقاده مشعلا من دولاب ملتهب في عربة السماء. ويفسر المؤرخ الإغـريقي العقلاني ديودور الصقلي أسطورة بروميثيوس وسرقته للنار بأن بروميثيوس هو الذي اخترع غابة النار التي يؤدي حك العصاتين فيها إلى انبثاق النار. ولكن الرواية الإغريقية التي كانت تتناقلها الشفاه كانت تعزو اختراع غابة النار إلى هرمز. ويفترض لوكريس أن الإنسان يمكن أن يكون قد تعلم إيقاد النار من ملاحظته أن الأغصان تنبثق منها النار إذا حُكت بعضها ببعض، أو ربما يكون أجدادنا الغلاظ قد حصلوا على أول نار لهم بفضل حريق أشعلته صاعقة. أما نارثيكس، وهي النبتة التي وضع بروميثيوس النار المسروقة فيها فتنطبق صفاتها بوجه عام على نبتة الشمرة FENOVIL العملاقة التي تنمو في كل أنحاء اليونان والتي يمكن رؤيتها بغزارة بوجه خاص في فالير بالقـرب من أثينا. وقد رأى الرحالة الفرنسي نورنيغور هذه النبتة وقد أصبحت أشبـه بشجـرة في سكينـوزا التي هي تشينـوسّا القديمة الجزيرة الصحراوية الصغيرة التي تقع إلى الجنوب من ناكسوس. وقد وصف ساقها بأنه بلغ ما يقارب الخمسة أقدام في الارتفاع وبسماكة ثلاث من البوصات، مع عُقد وأغصان وفواصل تبلغ عشر بوصات، وكل ذلك مغلف بلحاء قاس: «وتجويف هذا الساق مليء بنسغ أبيض يستطيع عندما يكون جافاً أن يتقد كفتيلة مصباح، ويمكن للنار أن تحفظ فيه تماماً ولا تستهلك النسغ إلا ببطء دون أن تلحق ضرراً باللحاء، وهذا ما يساعد على استعمال هذه النبتة لنقل النار من مكان إلى آخر مما حمل بحارتنا على جعلها ذخيرة لنيرانهم. ويعود هذا الاستعمال إلى الزمن القديم ويمكن استخدامه في تفسير مقطع من هزيود HÉSIODE الـذي يقول عندما يتكلم عن سرقة بروميثيوس للنار إنه نقلهـا في نبتـة من نبـات الحلتيب FERULE.وفي ناكسـوس رأى الرحالة الانكليزي جـ. ت. ترانت حقولاً من البرتقال مفصولة بأسيجة من القصب العالي ويضيف: «إن هذا القصب يطلق عليه في لسبوس اسم يوناني هو بقية من كلمة قديمة تعني القصبة التي خبأ بها بروميثيوس النار التي جلبها من السماء. ونحن بإمكاننا أن نفهم اليوم هذه الفكرة تماماً، فعندما يريد

فلاح في زمننا أن ينقل النار من بيت إلى آخر فإنه يضعها في واحدة من هذه القصبات ليحميها من هبات الرياح». ولاشك أن السيد بينت قد خلط بين شجيرة الشُمرة الضخمة وبين عود القصب. وينفي الأرغوسيون (سكان أرغوس) أن بروميثيوس أعطى النار لبني الإنسان، ويعزون هذا الشرف في اكتشاف النار إلى ملكهم القديم فورونيوس الذي استمروا يقدمون على قبره الضحايا حتى القرن الثاني الميلادي على الأقل. وفي مذبح أبولو ـ ليكيوس في أرغوس كانوا يحافظون على ما يسمونه نار فورونيوس. وحول موضوع فورونيوس توجد ملحمة قديمة تسمى الفورونيس لم يبق منها اليوم إلا بضعة أشعار. وهذا الشعر كان يروي بلا شك تاريخ اكتشاف النار الطويل على يد بطلها فورونيوس. وقد أراد بعض علماء اللغة اللامعين أن يشتقوا اسم فورونيوس من فعل PHEREIN بمعنى حمل أو جلب، فإذا كانوا على حق أمكن أن نفسّر اسم فورونيوس بحامل النار. وذهب أداالبيرت كون إلى مطابقة اسم فورونيوس مع الكلمة السنسكريتية BHURANIA التي هي لقب تقليدي للإله الفيدي أغني AGNI وتُشتق كما يقال من فعل BHAR السنسكريتي المطابق للفعل الاغريقي PHEREIN (حمل أو جلب). إلا أنه في الميثولوجيا تعتبر المقارنات التي تعتمد على تشابه الألفاظ منبوذة بوجه عام وينبغي تجنبها.

وهذه الملاحظة الأخيرة تنطبق على تشابه لفظي شهير عرضه نفس العالم الأديب كون ليدعي بأن اسم بروميثيوس إنما هو مشتق من برامانتا الذي هو اسم القسم العلوي من غابة النار في اللغة السنسكريتية. وبذلك يعتبر بروميثيوس تشخيصاً لهذه الآلة البدائية المستعملة في إيقاد النار. إلا أن هذا الاشتقاق قامت عليه اعتراضات ذات وزن. والواقع أن لا بروميثيوس ولا مثيله الهندي ماتاريشفان لم يُشتركا قط في اختراع غابة النار، فالأسطورة الاغريقية تنسب هذه الآلة إلى هرمز، وذلك على الرغم من أن ديودور الصقلي جعلها تنتسب إلى بروميثيوس. ويبدو أنه ليس ثمة من أسباب كافية تجعلنا نهجر المعنى الواضح لـ «ذلك الذي فكر أخيراً» الذي أطلقه الاغريق

نعتاً معبّراً على بروميثيوس في مقابل «ذلك الذي فكر أولاً» الذي أطلقوه على إبيميثيوس مقابلين بذلك الأخ المتروي مع الأخ المجنون، الأخ العاقل مع الأخ المعتوه.

وبالمقارنة مع الأساطير الوحشية التي مر ذكرها والتي رأينا فيها النار الأولى تجلب إلى الإنسانية على يد طير، فإن سالومون ريناخ اعتبر بروميثيوس من حيث الأصل نسراً جلب النار من السماء، ولكنه تبعاً لتفسير الأسطورة الأولى أصبح آلة انتقام مكرسة لعقاب الجريمة التي ارتكبها هو نفسه. إلا أن العالم مخترع هذا التفسير، مشبهاً فرضيته بقصر من ورق، ما لبث أن اعترف بصراحة بضعف الأسس التي اعتمدت عليها هذه النظرية.



١٦ ـ أصل النار في الهند القديمة

تقول الميثولوجيا الفيدية إن ماتاريسفان، الذي ينطبق مع بروميثيوس الاغريقي، هو الذي أتى بالنار من السماء. وكان رسولاً لفيفا سفان المضحي الأول الذي ذهب يبحث عن النار لاستعمالها في تقديم الأضاحي، ذلك أن رأى الشعراء الفيديين هو أن غاية النار لم تكن تدفئة بني الإنسان أو طهو طعامهم وإنما هي إهلاك الضحية المقدمة للآلهة. وثمة تسبيح من تسابيح الريغ فيدا RIG - VEDA * مرفوع بشكل جماعي إلى آغني (النار المؤلّهة) وإلى سوما (النبتة المؤلهة منبع السقاية المسكرة) يقول:

«أي آغني، وياسوما، يامن تعملان بانسجام، لقد وضعتما الأنوار المتلألئة في السماء.

---

* الريغ فيدا: هو أول كتب الفيدا الأربعة في الهند. وقد كتب بالسنسكريتية.
ـ المترجم ـ

«من اللعنة والتوبيخ، أي أغني وياسوما، حررتما الأنهار المقيدة.

«أحدكما (يعني أغني) بعثه إلينا ماتاريسفان من السماء، والثاني (أي سوما) هبط علينا من الجبال».

وفي تسبيح موجه إلى أغني وحده نقرأ:

«ذلك الذي يهيم بحرية على هواه، أغني المختبىء عن أعيننا. ذلك الذي بعثه إلينا ماتاريسفان من مكان بعيد بعد أن أنتجه بالحك، بعثه إلينا من مقر الآلهة».

وفي تسبيح آخر موجه أيضاً إلى أغني وحده:

«أمسكه العلي القدير في وسط الأمواج: والشعب يخدم المليك الجديد بكل مديح. مبعوثاً من فيفاسفان، حمل إلينا ماتارسفان من أبعد مكان، أغني فيسفانارا».

وفي تسبيح آخر مرفوع إلى أغني وحده:

«ماتاريسفان ذو الثروات الوافرة والكنوز العامرة، المنتصر على الضياء، وجد طريقاً لنزول حفيده.

ياحارس شعبنا، ياأبا الأرض والسماء. الآلهة يحتفظون بأغني مبدد الثروات».

وفي تسبيح آخر لأغني وحده نقرأ:

«كبير كوجود الصباح المجنّح بالنسبة لمن يسكن بقربك، أي ماتاريسفان* هو عمل براهامان عندما تقدم للتضحية وجلس عند أقدام هوتار».

وأخيراً تسبيح مرفوع إلى الفيسفيدفاس يقول:

«منبعان كاملان للحرارة اجتاحا الثالوث ومن نعيمهما أتى ماتاريسفان

«راضعين من حليب السماء حضر الآلهة وهم يعرفون غناء الحمد والسامان».

---

* ماتاريسفان هو الإله الذي أرسل أغني إلى الأرض. ـ المترجم ـ

وعنـدمـا يتكلم الشعـراء الفيديون عن ماتاريسفان لا يستطيعون أن يحـددوا شخصيته بوضوح. ولم يكن عندهم كنظيره الاغريقي بروميثيوس الإنسان العاقل الذي سرق النار إلى أشباهه الغلاظ من الناس، وإنما كان مفهومه لديهم كنصف إله أتى بالنار من السماء إلى بني الإنسان دون أن يكون ثمة أي افتراض بأنه قام باختلاسها من الآلهة.

ويبدو أحياناً أن آغني في الريغ فيدا يمثل النار تماماً بينما هو يختلف عنها في مواضع أخرى.

وفي الأثارفافيدا كما في البراهمانا وكل الأدب الذي تلاهما يعني اسم ماتاريسفان، مع تغيير طفيف في المعنى، يعني الهواء VAYU، ولكن يبدو أن هذه الكلمة لم تكن تحمل في الريغ فيدا هذا المعنى قط. وإذا تقصينا الظاهرة الطبيعية التي يرتبط ماتاريسفان بها فمن المحتمل أن يكون مبدئياً تجسيداً للصـاعقة التي تشعل النار في الأرض لدى سقوطها من السماء. وثمة من الباحثين الأريبين من يقبل وجهة النظر تلك. وربما كانت الأسطورة الاغـريقية عن سقوط هيفايستوس من السماء تعبيراً أسطورياً عن الظاهرة الطبيعية نفسها التي تحدث في كل زمان ومكان. فإذا كان الأمر كذلك فإننا نستطيع أن ننتظر رؤية هيفايستوس لاعباً في الأسطورة الاغريقية دور حامل النار إلى بني الإنسان، ولكنني بحسب معرفتي للأمور لم يترام إلى مسمعي أية أسطورة إغريقية من هذا الطراز، وذلك على الرغم من ان أفلاطون كما رأينا عزا إلى بروميثيوس أنه سرق النار من كور هيفايستوس عندما أنعم بها على الناس.



١٧ ـ خلاصة ونتيجة

١ ـ العصور الثلاثة

هذه القصص التي ألقينا النظر عليها تكفي لاثبات أن مسألة اكتشاف النـار ووسائل إيقادها أثارتِ الفضول وشحذت أذهان الرجال المبتكرة في مختلف العصور وفي كثير من مناطق العالم. وإذا أخذناها في مجموعها بدت لنا وكأنها تكشف عن اعتقاد عام آمن به بنو الإنسان فيما يتعلق بالنار، وتـدل على أن البشـرية مرت بثـلاثة أدوار، في أولها كان الناس يجهلون استعمال النار بل ويجهلون حتى وجودها، وفي الثاني توصلوا إلى معرفة النار واستعملوهـا للتـدفئة وطهو الطعام ولكنهم كانوا لا يزالون يجهلون طريقة إيقادها، وفي الثالث اكتشفوا أو استعملوا بشكل منتظم طريقة أو عدة طرق لاشعالها لا تزال، أو كانت لا تزال تستعمل حتى عهد قريب لدى الأجناس الأكثـر تخلفاً من البشر على الأرضَ. وتفترض هذه القصص ضمناً وجود

ثلاثة عصور متتالية تنطبق على ثلاث مراحل ثقافية يمكننا أن نطلق عليها الأسماء التالية: العصر الخالي من النار، وعصر النار المستعملة، وعصر النار الموقدة. ومهما كانت الوسيلة التي وصلوا فيها إلى هذه النتائج، وسواء حدث ذلك عن طريق إعمال الفكر أو اعتماداً على ذكريات حقيقية كانت تتناقلها الألسن شفاهاً فيبدو أن من المحتمل جداً أن هذه النتائج صحيحة إلى أبعد الحدود. ذلك لأنه إذا كانت الإنسانية ـ كما هو متفق عليه اليوم ـ قد تطورت بالتدريج من أبسط أشكال الحياة الحيوانية المتواضعة فمن المؤكد أن كل اجدادنا الحيوانات كانوا يجهلون النار كما هو حال حيوانات اليوم باستثناء الإنسان. وحتى عندما وصل هذا الجنس الإنساني إلى درجة من التطور تستحق أن توصف بالإنسانية فإن الناس لابد أنهم قضوا فترة طويلة وهم يجهلون استعمال النار وطرائق إيقادها. ونستنتج من ذلك أن هذه الأساطير التي استمعنا إليها عن أصل النار، على الرغم مما فيها من ملامح المبالغة والخيال التي تزين الكثير منها فإنها تحتوي على عنصر واقعي من الحقيقة، وهي تستحق أن تُدرس عن كثب كما تدرس الوثائق التاريخية المعترف على صحتها.

٢ ـ العصر الخالي من النار

كثير من الأجناس البشرية كما رأينا تعتقد أن أجدادهم في الماضي، بل وكل البشرية أيضاً، كانوا محرومين تماماً من استعمال النار. وهكذا فإنهم كانوا يعانون معاناة كبيرة من البرد وفقدان الوسائل التي تساعدهم على طهو الطعام حتى أنهم كانوا مضطرين إلى أكله نيئاً. فالوطنيون في فكتوريا يتحدثون عن عصر لم يكن أجدادهم فيه يملكون النار فكانوا في حالة بائسة لأنه لم يكن لديهم وسيلة لطهو طعامهم ولم يكن في مخيمهم نار يتدفؤون عليها عندما يداهمهم برد الشتاء. ويقول الماسينغارا من غينية الجديدة إنه في البدء لم يكونوا يملكون ناراً وإن طعامهم الوحيد كان مؤلفاً من الموز

الناضج والسمك المجفف في الشمس حتى ملوا من هذه الحِمية الممجوجة الرتيبة. ويؤكد وطنيو باب إحدى جزر كارولين أنه كان لهم في الماضي اليام والقلقاس ولكن لم يكن لديهم نار لطهو هذين الطعامين، فكانوا لذلك يطهونهما في أشعة الشمس التي تسخّن الرمل، ولكنهم كانوا يعانون من جراء ذلك من مغص شديد. وعند الكاشين في برمانيا رواية تقول إن الناس لم يكن لديهم في البداية نار، فكانوا يأكلون طعامهم نيئاً ويعانون من البرد فكانوا من أجل ذلك ضعاف الأجسام. ويقول البوريات في سيبريا، مرددين الفكرة نفسها، إن الناس في البداية كانوا يجهلون النار ولا يستطيعون نتيجة لذلك أن يجهزوا طعامهم فكانوا يعانون من الجوع والبرد. وكذلك أمر الواشاغا في أفريقيا الشرقية، فهم يدّعون أن الناس في الأزمنة القديمة كانوا يجهلون النار، لذلك كانوا مجبرين على أكل طعامهم نيئاً حتى الموز وكأنهم من القراديح*. ويتحدث الشيلوك في النيل الأبيض عن وجود عصر لم يكن فيه أحد يعرف النار. وفي هذا العصر كان من عادة الناس أن يسخّنوا طعامهم في الشمس، فالطبقة العليا الناضجة منه كان يأكلها الرجال بينما تأكل النساء الطبقة السفلى النيئة التي لم تتعرض لأشعة الشمس. ويقول الجيفارو قاطنو الاكوادور من أمريكا الجنوبية إن أجدادهم كانوا في قديم الزمان يجهلون استعمال النار، لذلك كانوا يجهزون طعامهم بتسخين اللحم تحت آباطهم، والجذور الصالحة للأكل في أفواههم. ويشوون البيض في أشعة الشمس الحارة. ويؤكد هنود السيا في نيومكسيكو أن الناس في البدء لم يكونوا يملكون النار في الأرض فكانوا يقضمون الأعشاب كما تفعل الأيائل والحيوانات الأخرى. ويقول هنود الأويجيبواي إن الناس في البدء كانوا جاهلين، فلم يكن لديهم ثياب ولا نار. وبينما كان بإمكان الناس في الجنوب أن يستغنوا عن الثياب فإن ناس الشمال العراة كانوا يعانون من البرد. وثمة مثال آخر هو أن العجائز من هنود الهولموش سكان ولاية واشنطن

* القردوح: نوع من القرود. ـ المترجم ـ

وكولومبيا البريطانية اعتادوا أن يتحدثوا عن عصر لم يكن فيه أجدادهم يملكون النار، فكانوا مجبرين على أن يأكلوا طعامهم نيئاً وأن يقضوا لياليهم في الظلام.

وثمة شعوب أخرى لم تتحدث بإسهاب عن الحرمانات التي تعرضت لها البشرية في العصر الخالي من النار أظهرت أن اضطرارها لطهو طعامها في حرارة الشمس هو من أشد الحرمانات التي سببها للبشر فقدان النار. والإلحاح في كلامهم على هذا الحرمان الخاص يوحي إلينا بأن الحاجة إلى الطعام الساخن إنما هي غريزة طبيعية في عضوية الإنسان يمكن أن يعزوها العلم إلى أسباب فيزيولوجية.

٣ ـ عصر النار المستعملة

إذا اعتبرنا حكايات بعض الشعوب أهلاً لأن نصدقها فإن العصر الخالي من النار تلاه عصر كان فيه الناس يعرفون النار ويستعملونها في حاجات حياتهم اليومية، ولكنهم كانوا لا يزالون يجهلون طريقة إيقادها. وفي هذا المجال يتحدث وطنيون من كوينزلاند (استراليا) كيف أن قبيلة من السود حصلت على النار مصادفة للمرة الأولى بسبب حريق اشعلته صاعقة، وكيف عهدوا بهذه النار الثمينة إلى امرأة للمحافظة عليها وألزموها رسمياً بذلك لكي لا تدع النار عرضة للانطفاء. وكيف أنها حافظت عليها بكل نشاط خلال بضع سنين ثم تركتها تنطفىء في ليلة ممطرة، وكيف هامت على وجهها طويلاً في الصحراء في بحثها عن النار دون أن تحصل عليها. وكيف بعد أن فقدت صبرها كسرت عودين من شجرة وروَّت غليلها بحك أحدهما بالآخر بشدة حتى حصلت على نار لم تكن تتوقعها من هذا الاحتكاك.

كذلك يقول سكان مانغايا في المحيط الهادي إن أجدادهم بعد أن حصلوا على النار بطريقة مشابهة بسبب حريق واستعملوها لطهو طعامهم ما لبثوا أن فقدوها بعد أن انطفأت ولم يتمكنوا أن يوقدوها من جديد. ويروي

التوراديا من وسط جزر سيليبس أن الخالق في البدء أعطى النار إلى أول إنسان، وأن الناس في هذه الأزمان الأولى كانوا يحرصون كثيراً على ألا يدعوا نارهم تنطفيء في البيت. فلما انطفأت تضايقوا كثيراً لأنهم لم يعودوا يعرفون كيف يطبخون أرزهم. كذلك توجد عند البوشونغو، وهم شعب يسكنون وادي الكونغو، توجد رواية تتحدث عن عصر قديم اكتسب فيه أجدادهم النار من حريق أشعلته صاعقة. ولكنهم لم يكونوا هم أنفسهم يعرفون كيف يوقدونها.

ولدى السؤال: كيف تمكن بنو الإنسان أن يحصلوا على نارهم للمرة الأولى؟، فإن الحكايات السابقة تهيء لنا الاجابة: لقد حصلوا عليها بفضل الحرائق التي كانت تشعلها الصواعق. ويروي الباكونغو من وادي الكونغو الأدنى قصة مشابهة مفادها أن النار الأولى أتت من السماء بفضل صاعقة ضربت إحدى الأشجار فأشعلتها. ويمكن تماماً أن يكون هذا الجواب صحيحاً بالنسبة للكثير من القبائل والأجناس البشرية. ذلك لأننا اذا فكرنا بعدد المرات التي يمكن فيها في ماضي البشرية الذي لا تعد سنواته للصواعق أن تضرب أشجاراً وأدغالاً وأعشاباً وتحرقها فإن من الصعب علينا أن نتجنب الوصول إلى نتيجة مفادها أن الصاعقة كانت المصدر الذي حصل منه الإنسان على النار في معظم الأحيان قبل أن يصبح هو نفسه قادراً على إيقادها.

وحتى عندما امتلك الناس النار منذ أمد بعيد فإنهم كانوا ولا شك يولون النار المتولدة عن الصاعقة خوفاً واحتراماً خصوصيين. وهكذا فإن الأوراون سكان شوتاناغبور في الهند، بالرغم من أنهم لا ينظرون في العادة إلى النار نظرة تقديس، فإنهم ينظرون إلى «نار الصاعقة» كأنها «رسول من السماء». ومنذ بضع سنوات، في قرية هاريل، ضربت صاعقة شجرة كان مزارع من الأوراوان قد كدس تبنه على أغصانها فاحترقت، فاجتمع كل سكان القرية من الأوراوان وقرروا أنه منذ اللحظة التي أرسل فيها «نار الصاعقة» تلك، فإن على نيران القرية كلها أن تنطفىء وأن يؤخذ قسم من

«النار المرسلة من السماء» بحيث يحفظ في كل بيت ويستفاد منه في كل الاستعمالات. ولم يكن أمام الجميع إلا أن ينفذوا هذا القرار.

ومع ذلك فإن هؤلاء الأوراوان أنفسهم كانوا يعرفون النار منذ زمن طويل. وكان من عادتهم قبل اختراع الكبريت أن يحصلوا عليها باستعمال غابة النار. ومع ذلك فإن أي رجل منهم يذهب إلى الغابة لا يزال يحصل على النار أحياناً بهذه الطريقة، فيستخدم لهذه الغاية قطعتين من الخشب يسهل إشعالهما فيضع إحداهما على الأرض ويثبتها بقدميه بينما يثبت الأخرى عمودياً في شق يصنعه في الأولى ويديرها حتى تمسك النار بالنشارة الناجمة عن ذلك ويضع النار في صوفان أو خِرَق أو أوراق أشجار جافة.

وحك غصنين أحدهما بالآخر تحت تأثير الهواء هو مصدر طبيعي آخر فكرت به بعض الشعوب للحصول على النار. فالوطنيون من جزيرة نوكو فيتو أو من جزيرة بيستر في المحيط الهادي يقولون إن الناس اكتشفوا النار من رؤيتهم دخاناً يتصاعد من غصنين يحتك أحدهما بالآخر بتأثير الرياح. ويقول الكياو دوسون من شمالي بورنيو إن شجرتين من أشجار البامبو (الخيزران) اتقدت فيهما النار بتأثير احتكاك إحداهما بالأخرى وإن كلباً كان ماراً بقربهما أمسك ببعض جذواتها ونقلها إلى منزل سيده الذي ما لبث أن أوقدها. ولم تقتصر هذه النار على إنضاج عرانيس الذرة الصفراء التي كانت في الدار وإنما شوَت أيضاً بعض درنات البطاطا التي كانت مرمية على الأرض. وبذلك يكون الدوسون قد تعلموا في آن واحد كيف يوقدون النار وكيف يستخدمونها في طهو الطعام.

وكان لوكريس قد ذهب ـ كما رأينا ـ إلى أن الإنسان يمكن أن يكون قد حصل على النار للمرة الأولى بسبب حريق أشعلته الصاعقة، وأنه تعلم إيقاد النار من ملاحظته اتقاد غصنين يحتك أحدهما بالآخر بفعل الرياح. وهذان الاقتراحان اللذان تقدم بهما هذا الشاعر تأكدا بشهادة عدد من الشعوب البدائية. ومنذ عدة أعوام عندما كان لي شرف التحدث عن إيقاد النار عند البدائيين مع السيد هنري بالفور في معرض بيت ـ ريفرز في

أكسفورد قال لي إن النار ـ دون أي شك ـ إنما انبثقت غالباً بدون تدخل من الإنسان من غصنين كانا يحتكان ببعضهما بفعل الرياح، وأن هذا العمل، كما قال، إنما شوهد ووُصف في كثير من المناسبات.

ويمكن للشمس والقمر والنجوم أن تكون هي الأخرى مصادر طبيعية تفترض بعض الشعوب أن الإنسان الأول قد حصل منها على النار في الأصل. فبعض الوطنيين من فكتوريا (إحدى الولايات الاسترالية) يروون أن رجلاً قذف مرة إله السماء بحربة قد رُبط بها حبل وأنه أتى من الشمس بالنار إلى الأرض. ويروون في إحدى قبائل كوينزلاند (استراليا) كيف حصل الناس على النار من الشمس بطرائق مختلفة عن الطريقة السابقة. فقد ذهبوا إلى الغرب في الناحية التي تغرب فيها الشمس ويختفي قرصها وراء الأفق، فكسروا منها قطعة وعادوا بها إلى مخيمهم وهي لا تزال في حالة الالتهاب. ويقول سكان جزر جيلبرت إن النار أتت من قوس قزح الذي أمسك به رجل أو بطل بين أسنانه. ويؤيد هنود تومبسون من كولومبيا البريطانية أنهم كانوا في ماضيات الأيام البعيدة لا يستطيعون إيقاد النار فكانوا يعانون من البرد الشديد. فأرسلوا مبعوثين إلى الشمس كي يحصلوا لهم على النار، فلما نفـذت مؤونتهم منها أوفدوا على جناح السرعة مبعوثين آخرين فتلقوا مؤناً جديدة. وقد وجب على المبعوثين أن يقطعوا طريقاً طويلاً وأنهم اضطروا ـ كما يقولون ـ لأن يحملوا النار في قواقع. أما أسطورة بروميثيوس فتروي أنه زود الناس بالنار بربطه مشعلاً متقداً بدولاب عربة الشمس. ويدعي هنود تولووا من كاليفورنيا أنهم حصلوا على النار من جديد بعد أن أطفأ طوفان كبير كل نيران الأرض بذهابهم إلى القمر بعد أن تسلقوا إليه بمنطاد ثبت إلى الأرض بحبل.

وثمة أساطير أخرى تربط أصل النار بالنجوم أكثر مما تربطها بالقمر أو الشمس. ويبدو أن التاسمانيين ربطوا بين صانعي أول نار على الأرض وبين النجمين التوأمين كاستور وبولوكس. وترجع قبيلة بونارونغ من فكتوريا أصل النار إلى أحد سكان السماء الذي قدم لهم هذه النعمة فتحول مكافأة له على

صنيعه إلى كوكب المريخ. وتعتقد قبيلة الووروونجيري من فكتوريا أن أول من حصل على النار من السماء نساء تحولن إلى كوكبة الثريا. وتدعي قبيلة البورونغ من فكتوريا أن النار قُدّمت في الأصل إلى الوطنيين عن طريق غراب تحول إلى نجم الكانوبوس.

وتقودنا هذه الأسطورة الأخيرة إلى أن مجموعة الأساطير التي قيلت في هذا المكان من أستراليا إنما تذهب إلى أن طائراً أو حيواناً هو الذي قدم أول نار إلى بني الإنسان. ومما يثير الفضول أن الكثير من البدائيين يعتقدون على ما يبدو أن النار كانت ملكاً للحيوانات قبل أن تكتشف على يد بني الإنسان ويفيدوا من استعمالاتها المختلفة. وهكذا يقول هنود التسيمشيان من كولومبيا البريطانية إن الناس عندما بدؤوا بالتكاثر على الأرض وجب عليهم أن يتحملوا الألم لأنهم لم يكونوا يملكون ناراً لطهو طعامهم ومن أجل أن يدفئوا أنفسهم من قر الشتاء، بينما كان الحيوانات يملكون النار في قريتهم. ومع ذلك فإن من الأغلب الأعم أن يقال إن النار لم تكن ملكاً للحيوانات كلهم وإنما لنوع خاص من بينهم أو إلى حيوان واحد من هذا النوع. وهكذا نرى النار، بحسب ما يقوله الوطنيون في فكتوريا، كانت تخص في الماضي الغربان وحدهم الذين كانوا يسكنون جبال غرامبيان، ولم يكن هؤلاء الطيور يسمحون لأي حيوان آخر بإيقادها. وفي مكان آخر من أستراليا يقول الوطنيون إن البانديكو (نوع من الكنغر) كان الوحيد الذي يملك النار في الماضي البعيد وكان يحافظ عليها بغيرة شديدة فيحملها معه أينما ذهب دون أن يعير شيئاً منها لأحد. ويعتقد بعض القبائل من غاليا الجديدة الجنوبية (استراليا) أن فأر الماء والمورة (نوع من السمك) كانا الوحيدين اللذين يمتلكان النار فيما مضى من الزمان، وكانا يحافظان عليها بكل غيرة في مكان مكشوف بين كتل القصب الكثيفة في نهر موراي. أما الكابي، وهم قبيلة من كوينز لاند (استراليا) فيقولون إن الصِلَّ الأطرش كان الوحيد الذي يملك النار فيما مضى ويحافظ عليها بأمان داخل جسمه. ويوجد لدى قبائل البوانديك من استراليا الجنوبية حكاية تقول إن النار كانت

في الأصل في قنزعة الكُتُوَّة (نوع من الببغاوات) الحمراء، وكان هذا الطائر السعيد بملكية هذه الثروة الثمينة يحتفظ بها لاستعماله حصراً ولا يريد أن يشرك بها بقية الببغاوات الذين كانوا حاقدين عليه بسبب أنانيته. ويقول الأرونتا من استراليا الوسطى إنه في زمن قديم جداً يطلقون عليه اسم عصر الألشيرينغا كان يوجد حيوان عملاق يسمى (أورو) ويملك النار في جسده بينما كان يلاحقه صياد لم يكن يملك شيئاً من النار فلما تمكن من قتله أخرج النار من جسده. وفي جزيرة بادو من مضيق توري يتحدث الوطنيون عن تمساح كان يملك النار في طرف هذه الجزيرة بينما لم يكن الإنسان الذي يسكن الطرف الآخر من الجزيرة يملك شيئاً من النار.

أما التابييت، وهم قبيلة من منطقة غران شاكو في امريكا الجنوبية، فإنهم يقولون إن أجدادهم لم يكونوا يملكون النار بينما كان يملكها الصقر الأسود مكتسباً هذه النعمة الثمينة من الصاعقة. ويقول هنود ماتاكو من منطقة غران شاكو بل هو الجاغوار (النمر الامريكي) من كان يمتلك النار ويحتفظ بها قبل أن يحصل عليها الإنسان. ويدعي هنود الباكيري في البرازيل الوسطى أن سيد النار في العصور البدائية من العالم كان حيواناً يطلق عليه علماء العلوم الطبيعية اسم CANISVETULUS. أما التيمب، وهم قبيلة هندية من شمال شرقي البرازيل فيقولون إن النار كانت تخص في البداية ملك الصقور وإن أجدادهم كان عليهم لفقدان النار لديهم أن يجففوا في الشمس ما يريدون تناوله من طعام. ويتحدث هنود الأريكونا من البرازيل الشمالية عن عصر سابق للطوفان كان فيه أجدادهم لا يملكون ناراً فكانوا مضطرين لأكل طعامهم نيئاً بينما كان يمتلك النار طائر صغير أخضر يسميه علماء الطبيعة PRIDNITES MOMOTA. ويقول هنود الكورا في المكسيك إن الايغوان (وهو نوع من الحراذين) كان يملك النار، فلما تخاصم مع امرأته وحماته انسحب إلى السماء واستقر في برج حاملاً معه النار حتى لم يبق منها شيء على الأرض. ويقول أباش جيكاريلا من نيومكسيكو إن أجدادهم عندما ظهروا لأول مرة خارج مساكنهم في العالم الأسفل كانوا محرومين من

النار بينما كان الحباحب* يمتلكونها. ويؤكد هنود النوتكا (أو الآهت) من جزيرة فانكوفر في رواية يحكونها أنه بعد الخلق بقليل كانت النار تتقد في منزل الحبّار** وحده، بينما يروي نص آخر من الأسطورة نفسها أن الذئاب هم أول من كان يمتلك النار.

ولكن بينما تعتبر بعض الأساطير أن النار كانت حصراً مملوكة لبعض الحيوانات الذين كانوا يحتفظون بها لهم وحدهم فإن قصصاً كثيرة أخرى تقول إن حيواناً أو طائراً كان هو الواسطة التي عن طريقها عرف الناس طريقة إيقاد النار أو طريقة استعمالها. فهذا الكائن هو الذي سرق النار أو حصل عليها من مالكها الأول الذي كان حيواناً أو طائراً أيضاً أو كائناً خارقاً للطبيعة، ثم نقلها هذا الحيوان أو الطائر إلى بني الإنسان أو استعملها على الأقل بطريقة سمحت للناس بأن يشاطروه هذه النعمة الكبيرة. وهكذا فإن الوطنيين في فكتوريا يقولون إن طائراً صغيراً يصفونه كما لو كان صعوة ذا ذنب ناري أو كان شرشوراً ذا ذنب ناري هو الذي أتى بالنار إلى بني الإنسان سواء ذهب للاتيان بها من السماء أو سرقها من الغربان الذين كانوا وحدهم من يمتلك النار. وفي بعض الأساطير الأسترالية أن الصقر ـ بطريقة أو بأخرى ـ كان الواسطة التي حصلت بها الإنسانية على نعمة النار. وفي أساطير أخرى يلعب الكتوة هذا الدور. وبموجب ما يرويه اليوورنغ من فكتوريا فإن الغراب هو أول من أعطى النار إلى بني الإنسان. وهذا الطائر نفسه تصوره حكايات أسترالية أخرى أيضاً على أنه أصل النار.

ويقول الوطنيون من جزيرة كيواي في بحر غينيا الجديدة إن الكتوة الأسود أتى بأول نار وإن العلامة الحمراء التي لا تزال موجودة حول منقاره تظهر المكان الذي احترق بسبب جمرة النار الحمراء التي حملها في منقاره. ومع ذلك فإن الكلب في مناطق أخرى من غينيا الجديدة هو الذي يلعب في معظم الحكايات دور الحيوان الذي كان أول من حمل النار إلى بني

---

* الحباحب: هي الحشرات الصغيرة التي تضيء في الظلام. ـ المترجم ـ

** الحبّار: حيوان بحري من الرخويات هو نوع من الاخطبوط. ـ المترجم ـ

الإنسان. ويؤكد سكان واجيفا، وهي جزيرة صغيرة في أرخبيل أنتريكاستو أن النار حملها إلى الإنسان كلب اجتاز المضيق سباحة وهو يحمل جذوة مربوطة في ذنبه. وفي أسطورة يرويها الوطنيون في جزر أنداامان أن القاوند (نوع من الطيور) سرق النار من كائن أسطوري اسمه بيليك وأتى بها إلى بني الإنسان. ولكن بيليك هذا رمى الطائر بجمرة أصابته في نقرته تدل عليها البقعة الحمراء الصارخة التي لا تزال هناك وتدل على المكان الذي أصيبت فيه بالنـار. إلا أن الحمـامة ذات الأجنحة البرونزية كانت في أسطورة أخرى من جزر أنداامان أول من سرق النار من بيليك ونقلتها إلى بني الإنسان. أما الميـنـري من شبه جزيرة ملقا فيقولون إن النار جُلبت إليهم على يد النقار الأخضر، فهم من أجل ذلك لا يقتلونه لأنه كان أول من قدم لهم هذه النعمة ليتدفؤوا عليها ويطهوا عليها الطعام. ويعتقد بعض السيمانغ من شبه جزيرة ملقا أن قرد جوز الهند هو الذي سرق النار من الكائن الأعلى الذي يعيش في السماء ويصنع الرعد، وأن القرد أشعل بهذه النار عشب السافان فوضع النار بذلك في متناول الإنسان. إلا أن أجداد قبائل الأقزام عندما هربوا أمام هذا الحريق أمسك بهم لهيبه فأحرق شعورهم فأصبحت شعورهم مفلفلة حتى اليوم. أما البوريات السيبيريين فيقولون ان بومة هي التي سرقت النار من تينغـري الذي في السماء وجلبتها إلى بني الإنسان. فغضب تينغري غضباً شديداً ورماها بسهم جعل ذنب البومة مقسوماً حتى اليوم إلى نصفين. وتدور في سيلان قصة مفادها أن ملتهم الذباب الأسود الأزرق الذي له ذنب بومة كان أول من أتى بالنار من السماء من أجل سعادة بني الإنسان.

ويقـول الباكونغو من أفريقيا الغربية إنه عندما لم يكن ثمة نار على الأرض أرسل الإنسان ابن آوى ليبحث له عن النار في الشمس الغاربة ولكن هذا الحيوان لم يعد قط. ويروي الشيلوك من النيل الأبيض كيف أنهم في الأزمنة التي لم يكونوا يمتلكون فيها النار أحاطوا ذنب كلب بالقش وأرسلوه ليأتي لهم بالنار من بلد الروح الأكبر، فعاد الكلب وذنبه يشتعل وأصبح لدى الشيلوك منذ ذلك الوقت نار.

ويدعي الشير يغـوانو من بوليفيا أنه بعد الطوفان وعندما أطفئت كل نيران الأرض تلقى النـاس النـار من علجوم كان قد اختبأ قبل ارتفاع مياه الطوفان في جحر حاملاً معه بعض جمرات حارة حافظ عليها مشتعلة طول مدة الطوفان وهو ينفخ عليها من أنفاسه. ويقول هنود الخوروتيس من غران شاكو إنهم عندما وجدوا في وضع مشابه بعد الطوفان أخذوا النار من صقر كان يحتفظ بها في عشه فوق مستوى المياه. ويؤكد أفراد قبيلة التابييت، وهي قبيلة أخرى من غران شاكو أن الصقر الأسود عندما كان يمتلك النار ولم يكن لديهم شيء منها أخذت الضفدع شفقة بهم فسرقت بعض النار التي كان يتدفأ الصقر عليها وأتت بها في فمها إلى الهنود. أما هنود الماتاكو، وهم أيضاً قبيلة أخرى من قبائل غران شاكو فيقولون إنهم يدينون بامتلاكهم للنار إلى خنـزير الهنـد* COBAYE الـذي سرقها من الجاغوار مالكها الأصلي واستعملها قبل أن يزود بها بني الإنسان. والواقع أن خنزير الهند لم يكن هو الذي سمح لبني الإنسان بالحصول عليها وإنما تشبت النار بالعشب مصادفة عندما كان في إحدى المرات يطهو طعامه، وهكذا حصل عليها الماتاكو للمرة الأولى من ذلك الحريق المشتعل. ويدعي الباكيري من وسط البرازيل أن أول نار قُدّمت للإنسـان كانت على يد سمكـة وحلزون كانـا أخـوين مشهورين ارتديا لباس هذين الحيوانين وسرقا النار تحت مظهرهما هذا من حيوان الـ «CANIS VETULUS» الذي كان سيد النار في أيام العالم الأولى. أمـاالجيفارو من الاكوادور فيقولون إن أول نار تلقوها كانت على يد طائر الطنّان الذي سرقها من رجل كان يمتلكها ويحتفظ بها لاستعماله الشخصي دون أن يتنازل عنها للآخرين.

ويقـول هنود السيا من نيومكسيكو إنهم تلقوا النار من القيّوط الذي سرقها لهم من العنكبوت الذي كان يعيش في سرداب وضع فيه ثعباناً ونمراً امـريكياً ودبـاً لحـراسـة النـار من كل دخيل. ولكن القيّوط وجد الحراس

---

* خنزير الهند: حيوان صغير يستعمل في المخابر للتجارب. ـ المترجم ـ

والعنكبـوت نياماً، وقبل أن يستفيقوا كان قد استولى على النار وفر بها بعيداً عن المنـزل. وفي بعض الحكايات التي يرويها الهنود الذين يسكنون جنوبي الولايات المتحدة الامريكية يقال إن الأرنب هو أول من زود بني الإنسان بالنار. وبحسب رواية تحكيها السيو من قبائل الميسيسيبي أن رجلاً وامرأة كانـا الوحيدين اللذين نجوا من الطوفان فتلقيا النار من طائر رمادي صغير أرسله لهما الروح الأكبر حاملاً هذه الهدية التي لا تقدر بثمن. ومن أجل ذلـك يحترم الهنود هذا النوع من الطيور فلا يقتلونه أبداً ويرسمون خطين سوداوين على طرفي كل عين من عيونهم تقليداً منهم لخطوط هذا الطير. أما هنود النوتكا أو الآهت من جزيرة فانكوفر فيقولون إن أول نار إنما سرقت على يد أيّل من حبّار أو من الذئاب الذين كانوا وحدهم من يملكونها في أيام العالم الأولى. وفي أساطير هندية أخرى من شمال غربي أمريكا لعب الأيل أيضاً دور الكائن الذي سرق النار وحملها لبني الإنسان، ولا يزال الأيل حتى الآن يحمل بقعة سوداء في ذنبه في المكان الذي أحرقتها لنار. ومن بين الهنود الذين يروون هذه القصة هنود الكواكيوتل من جزيرة فانكوفر، ولكنهم يقولون في نص آخر منها إن الفيزون هو الذي زود بني الإنسان بالنار بسرقة طفل لزعيم الأرواح وإجبار هذا الزعيم على أن يبادل بالنار طفله المسروق. ويروي النـانيمـو من جزيرة فانكـوفـر قصـة مطابقة للقصة السابقة تماماً. وبموجب ما يقصه بعض قبائل الهنود من كولومبيا البريطانية وآلاسكـا يكون حامـل النـار هو الغراب الذي لعب دوراً كبيراً في ميثولوجيا هذه الشعوب الشمالية. والطريقة التي اتبعها للاستيلاء على هذا العنصر الثمين تشكل موضوعاً لأكثر من قصة أخاذة عن سرقة النار. كما أن أسكيمو مضيق بهرنغ يدعون بأن الغراب هو الذي علمهم صناعة النار.

أما في فرنسا فيقال إن طائر الصعوة أو أبا الحن هو أول من حمل النار من السماء إلى الأرض، والريش الأحمر الذي يزين صدر أبي الحن إنما هو أثر في المكان الذي أحرقته النار.

على أن ثمة أساطير كثيرة تقول إن أول نار لم يأت بها طائر وحده أو حيوان وحده وإنما حيوانات جمعت جهودها واصطفت صفاً واحداً فانتقلت النـار بينهـا من واحـد إلى آخر حتى تعب كل واحد منها على طول مدى السباق، أو أن عدداً كبيراً من الحيوانات حاولت إنجاز هذه المهمة الصعبة ولكن واحداً منها هوالذي نجح في النهاية في إنجازها. ومن أجل أن نعطي أمثلة عن هذه الأسـاطير التي تتساعد فيها الحيوانات للحصول على النار نعطي أسطورة الصقر والحمامة الأسترالية حيث تساعد هذان الطائران في سرقة النار من الباندیکو (نوع من الكنغر). وفي أسطورة يرويها سكان جزر مضيق تورّي تعاون الثعبان والضفدع وأنواع مختلفة من الحراذين في محاولة لسرقة النار، وأخيراً نجح الحرذون الكبير ذو العنق الطويل في السباحة إلى الجزيرة ومعه النار في فمه لأن رقبته الطويلة ساعدته على إبقاء النار مرفوعة فوق الماء. ويروي الماسينغارا من غينيا الجديدة قصة مشابهة لذلك. وفي كيوي، وهـي جزيرة قريبـة من ساحـل غينيا الجـديدة يروون كيف أن الحيوانـات حاولـوا، واحـداً بعـد الآخر، أن يجلبوا النار من القارة ففشل القنـدس والتمساح والكلب. ثم حاولت الطيور بدورها حتى نجح الكتوة الأسود أخيراً فبقي يحمل حتى اليوم علامة حمراء في المكان الذي لامسته النار. وفي أسطورة لها المعنى نفسه ترويها قبيلة الموتو من غينيا الجديدة أن الثعبان والبانديكو والكنغر وأحد الطيور فشلوا كلهم في محاولتهم حتى نجح الكلب في نهاية المطاف. ويروي التسوو TSUWO ، وهم قبيلة جبلية من فورموزا (تايوان)، قصة مشابهة ليفسروا كيف حصل أجدادهم على النار بعد الـطوفـان، فغـرق التيس في محاولة جريئة ذهب فيها للبحث عنها ولكن التـاورون أتى بهـا سليمـة حتى الشاطىء، ومن شدة فرح السكان أخذوا يداعبونه ويملّسون ظهره حتى أصبح له اليوم جلد لامع جداً وجسد قميء. ويروي الشـاي من سيام كيف أحس أجـدادهم بعـد الـطوفان بالصعوبات المعتـادة لاستعادة النار المفقودة وكيف أرسلوا البوم والثعبان للبحث عنها فتسكعا في الطريق ولم يصلا إلى الهدف. ثم طارت النُعرة (ذبابة كبيرة) بعد

ذلك إلى السماء ولكنها لم تأت بالنار وإنما بسر إيقادها حيث تحايلت حتى راقبتِ سيد السماء وهو يشعل النار بيده الإلهية.

ويروي سكان إحدى جزر الأميرالية أنه في الزمن الذي لم تكن النار موجودة فيه قامت امرأة فأرسلت عُقاب الشواطىء والزرزور للبحث عنها في السماء. وطار الطائران إلى السماء حيث سرق العُقاب الصياد النار ولكنه في طريقه إلى الأرض أوكل بها الزرزور الذي حملها على عنقه فأحرقته.

أما البايلا من روديسيا الشمالية فيقولون إنه عندما لم يكن على الأرض نار قرر الصقر والنسر الصياد والغراب والزُنبور البناء أن يذهبوا للبحث عنها عند الإله الذي كان يسكن يومذاك في مكان ما من السماء. وهكذا طاروا فما لبثت عظام الصقر والنسر والغراب أن سقطت على الأرض وبقي الزنبور وحده يتابع الطيران طول طريقه الخطر. ولما وصل إلى السماء أجرى مقابلة ودية مع الذات الإلهية التي أعطته مبتغاه فعاد وتزود الناس بالنار.

ويروي هنود الكورا في المكسيك كيف أن النار كانت في البداية ملكاً خالصاً للإيغوان (عظاية أمريكية عاشبة)، فلما تنازعت نزاعاً شديداً مع أمها وحماتها حملتها إلى السماء فأصبح سكان الأرض محرومين من هذا العنصر الضروري للحياة. وفي هذه الأزمة طلبوا مساعدة الطيور والحيوانات كي يذهبوا إلى السماء للبحث عن النار. وقد ضحى الغراب الشجاع بحياته عبثاً في هذه المحاولة. وفشل الطنان أيضاً كما فشل كل الحيوانات واحداً بعد الآخر. وأخيراً نجح الأوبوسّوم* في تسلق السماء وسرقة النار من شيخ هناك بينما كان يغط في النوم. ويقول النافاهو من نيومكسيكو إنه في اليوم الذي كانت فيه الحيوانات تمتلك النار بينما كان الإنسان محروماً منها اتفق القيّوط والوطواط والسنجاب على أن يزودوا بها أصدقاءهم من الهنود. وهكذا بينما كان بقية الحيوانات يلعبون حول النار هيأ القيّوط نفسه لسرقة بضع جمرات

---

* الأوبوسّوم: OPOSSUM حيوان أمريكي من ذوات الجراب يتظاهر بالموت عندما يداهم الخطر. ـ المترجم ـ

حارة وفر بها يتبعه كل الحيوانات الأخرى الذين جروا في أثره. وعندما أدركه الاعياء أعطى النار للوطواط، فلما أوشك على الانهاك أعطاها للسنجاب الذي تمكن بفضل مهارته الكبيرة وقدرته على الصمود من إيصال النار سالمة إلى النـافاهو. ويبدو أن هذه الأسطورة عن نار يحملها حيوانات عداؤون يتبادلونها كانت منتشرة لدى الهنود في أمريكا الشمالية، إذ أننا سنصادفها من جديد مع بعض التغيير في التفاصيل عند الأوت أو الأوتاه وعند هنود الكاروك في كاليفـورنيا وكـذلـك عنـد هنود تومبسون في كولومبيا البريطانية، وإلى الشمال من ذلك عند الكاسكا من كولومبيا البريطانية أيضاً، وهم يسكنون على منحدرات الجبال الشمالية. ويجد هذا النموذج من الأسطورة شبيهاً له في القصـة الفرنسية التي تروي لنا كيف أن الصعوة عندما سرق النار من السماء نقل حمله الثمين هذا إلى أبي الحن الذي نقله بدوره إلى القبرة التي نقلته سليماً إلى الأرض.

ويروي هنود الشيروكي أسطورة أخرى من النمط التعاوني دون تبادل بين العـدائين. فهم يقـولون إن النار الوحيدة في الأرض كانت في البدء موضوعة في شجرة جميز كبيرة مجوفة كانت تنبت في إحدى الجزر. فاجتمع الحيوانات الذين كانوا في ذلك الوقت في أشد حاجة إلى النار شأنهم في ذلك شأن بني الإنسان ليجدوا وسيلة يحصلون فيها على النار. وهكذا اجتاز الغراب المياه طائراً حتى تلك الشجرة فلما سرق النار أحرقت حرارتها ريشه فأصبح أسود كما نراه اليوم. عند ذلك حاول البوم الناعق الصغير، ولكنه عندما نظر إلى الشجرة المجوفة كاد أن يعمى من نفحة هواء حار وبقيت عيناه حمـراوتين منـذ ذلـك الحين. بعـد ذلك ذهب الخَبَل (نوع من الغربان) والغراندوق ولكنهما لم يكونا أكثر نجاحاً لأن الدخان المحرق كاد يحرمهما من نعمة النظر وترك الرماد حول عيونهما دوائر بيضاء لم تمح حتى الآن. وعندما استنفذت الطيور طاقتها دون أن يتمكن أحد منها من النجاح غطس الثعبان الصغير الأسود والثعبان الكبير الأسود في فجوة الشجرة التي كانت تحترق ولكن الدخان خنقهما وتركهما اللهيب أسودين وبقيا أسودين حتى

اليوم. وأخيراً حاول عنكبوت الماء جارياً فوق سطح المار حتى وصل إلى الشجرة فأخذ منها النار حاملاً إياها في خيوط متداخلة نسجها من جسده.

أما هنود النيشينام من كاليفورنيا فيروون أنه عندما كانت كل نيران الأرض مخبأة في الغرب البعيد جداً اقترح الوطواط على الحرذون أن يذهب لاختلاسها. وقد قبل الحرذون هذا الاقتراح واختلس النار، ولكن عندما كان يحملها أحرق العشب ووجب عليه أن يجري لانقاذ حياته. أما الوطواط الذي حرّض على السرقة فنال العقاب الذي يستحقه لأن النار أعمته أو كادت على الرغم من أنّ الحرذون وضع له على عينيه كمادة من القار لم تجده إلا قليلاً، ولا يزال نظر الوطواط حتى الآن مشوشاً، ولا يزال هو أسود اللون إذ ليس علينا إلا أن ننظر إليه حتى ندرك أن النار قد أحرقته. ويذكر هنود الميدو من كاليفورنيا كيف أن الفأر والأيّل والكلب والقيّوط تنافسوا على سرقة النار من الرعد الذي كان يحرسها في مكان ما في الغرب. وقد نجحت السرقة فخبأ الكلب النار في أذنه بينما حملها الأيل قليلاً في عرقوبه حيث لا تزال توجد بقعة حمراء هي بدون شك مكان النار التي أحرقته.

وإذا ما بحثنا عن السبب الذي من أجله نُسبت حيازة النار الأولى في هذه الأساطير إلى الحيوانات في غالب الأحيان أو إلى الطيور التي هي محرومة منها اليوم، فإن الجواب الأكثر احتمالاً في ذلك هو أن هذه الأساطير إنما وضعت على ما يبدو لتفسير بعض الألوان أو بعض المميزات التي نسبها الإنسان البدائي في هذه الحيوانات إلى تأثير النار، وهو لم يلجأ إلا بعد ذلك إلى تفسير أصل النار تبعاً لما وضعه من هذه الأساطير. فإذا كان هذا الاحتمال صحيحاً فإن الأساطير موضوع بحثنا إنما هي أساطير ترتبط بعالم الحيوان أكثر من ارتباطها بعالم الطبيعة. وعلينا أن نتذكر في هذه المناسبة أن البدائي في فلسفته الفجة التي لابد أن هذه الأساطير نبعت منها كان أبعد ما يكون من أن يميز تمييزاً واضحاً بين الإنسان وبين الحيوانات الدنيا التي منحها حياة وذكاء مشابهين مشابهة كاملة لحياته وذكائه ولم ير شيئاً من الغرابة أو الاستحالة في فكرة أن تمتلك هذه الحيوانات النار أو تستعملها ولا

في أن تمتلكها قبل الإنسان وأن تكون الوسائط التي بفضل مؤازرتها حصل الإنسان للمرة الأولى على النار.

ويمكننا بطبيعة الحال أن نفترض أن من بين المصادر التي حصل منها الإنسان على النار قبل أن يتعلم طريقة إيقادها كانت البراكين. إلا أن الأساطير التي تكلمت عن أصل النار لم تبد اهتماماً بعمل البركان ولم تشر أية إشارة إليه. والاستثناء الرئيسي من هذه القاعدة العامة يمكن أن تقدمه لنا الأساطير البولينيزية التي تصف بانتظام كيف ذهب بطل كبير للبحث عن النار الأولى في العالم السفلي حيث تصدى لكائن مخيف هو إله أو إلهة النار. ففي نص من ساموا لهذه الأسطورة كان إله النار الموجودة في باطن الأرض هو نفسه إله الهزات الأرضية، والطريقة التي تفجر بموجبها كوره فجأة فانتثر رماده يمكن أن تكون وصفاً أسطورياً لانفجار بركاني. وينبغي علينا أن نتذكر بهذه المناسبة أنه يوجد في هاواي واحد من أخطر براكين العالم، فلن يكون مدهشاً إذن أن يلجأ الناس الذين كانوا يعيشون تحت ظله ويشهدون انفجاراته الرهيبة إلى نسبة قصصهم عن أصل النار إلى هذا الجبل الحار وإلى كوره العملاق المليء باللافا البركانية الملتهبة.

كذلك نرى في أسطورة عن أصل النار يرويها هنود البابين الذين يسكنون إلى الشمال من القسم الداخلي من كولومبيا البريطانية تلميحاً إلى عمود من الدخان تبعته ألسنة من اللهب رأوها ترتفع من أحد الجبال. وربما أوحى لنا ذلك، كما قلنا سابقاً، باندفاع دخان ولهيب من أحد البراكين الموجودة في الشمال الغربي من القارة الامريكية.

أما هذا الاعتقاد المثير للفضول والذي صادفناه في أسطورتين متشابهتين من أونتونغ جاوه ومن جزر جيلبرت من أن النار انبثقت من أعماق البحر فيمكن أن يكون مرده إلى المنظر الرائع المثير لبحر إستوائي مشعشع يلتمع بضوء متألق. وبما أن هذا المنظر ليس مقصوراً على البحار الاستوائية لذلك يمكن أن يكون أيضاً مصدراً لأسطورة النوتكا التي تذهب إلى أن النار كانت تتقد في الأصل في بيت حبار (نوع من الأخطبوط)، كما يمكن أن

تكون مصدراً لأسطورة الهايدا التي تقول إن الغراب أتى بأول نار إلى الأرض من أعماق البحر حيث تعرض هناك لهجمات من أسماك شديدة الخطر.

٤ ـ عصر النار الموقدة

تذكر لنا أساطير أصل النار كما رأينا كيف أن بني الإنسان بعد أن حصلوا على النار استعملوها لعدة قرون على الأغلب دون أن يعرفوا كيفية إيقادها حتى اكتشفوا أخيراً طريقة أو عدة طرائق بدائية ما لبثت أن أزاحتها الحضارة بطرائق أكثر كمالاً وجدوى. ومن بين الطرائق البدائية في إيقاد النار كانت أكثرها انتشاراً تلك هي التي تقوم على حك الخشب أو قدح الحجر، وقد أشير إلى كلتيهما في أساطير أصل النار. ومن بين هاتين الطريقتين كانت طريقة حك الخشب هي الأكثر استعمالاً وشيوعاً إلى حد كبير وهي التي أشارت إليها الأساطير في الأغلب الأعم من الأحيان، وها نحن أولاء نعالج أمرها أولاً.

تُطبق طريقة حك الخشب في إيقاد النار على أوجه كثيرة نستطيع أن نميز من بينها في العادة ثلاثة أوجه نطلق عليها أسماء: غابة النار، منشار النار، ومحراث النار (أو العصا والفُرضة). وغابة النار هي الأكثر انتشاراً بين الأجناس البشرية المتخلفة، ولذلك لا ندهش إذا كانت قد ذكرت في الأساطير في أغلب الأحيان.

وغابة النار في شكلها الأكثر بساطة تتألف من عصاتين إحداهما مؤنّفة وتُمسك بشكل عمودي بحيث تستند نهايتها المؤنّفة على العصا الأخرى التي توضع مسطحة على الأرض. وتدار العصا العمودية التي هي غابة النار الحقيقية بسرعة بين راحتي اليدين حتى يحدث رأسها المؤنّف ثقباً في العصا الأخرى، ويؤدي الحك المتواصل في البداية إلى ارتفاع الحرارة ثم إلى ظهور الشرارة التي تنقلب لهباً في النهاية يمسك بأنواع مختلفة من الصوفان فيتم الحصول على النار.

وغـابة النار في شكلها البسيط السابق أو شكلها الأكثر كمالاً الذي يعتمد على وسائل ميكانيكية مختلفة كاستعمال حبل أو سَيْر من جلد يدار حول غابة النار ويُسحب من طرفيه لزيادة سرعة الدوران، غابة النار هذه كان لها بين شعوب العالم البدائية سيطرة واسعة لأنها استعملت ليس فقط على يد المتوحشين والقبائل البربرية في تاسمانيا وأستراليا وغينيا الجديدة وأفريقية وأمريكا وآسيا وإنما أيضاً على يد أجناس متمدنة من العصر القديم أو حتى من العصور الحديثة في مصر والهند واليابان والقارة الأوروبية.

وإذا تساءلنا كيف اكتشف الإنسان طريقة إنتاج النار عن طريق غابة النار فإن الجواب المناسب تقدمه لنا واحدة من الأساطير التي رويت عن أصل النار. فالبازونغومينو، وهم زمرة من قبيلة أفريقية تسكن وادي الكونغو، يقولون كما رأينا إنهم منذ العصور الموغلة في القدم كانوْا يصنعون شباك صيد أو قففاً من أضلاع شجرة الرافيا. وفي أحد الأيام بينما كان أحد الرجال يقوم بصنع إحدى هذه القفف أراد أن يحفر ثقباً في طرف أحد هذه الأضلاع فاستخدم لهذه الغاية عصا مدببة. وعندما كان يحفر الثقب انبثقت النار، فاكتشف الرجال بذلك طريقة إيقادها. فإذا أخذنا بعين الاعتبار عدد المرات التي يمكن لرجل أن يستخدم فيها عصا لاحداث ثقب في عصا أخرى قبل اكتشاف المعادن فإن من المحتمل أن نكون مستعدين لقبول هذه الفرضية. واذا قبلنا ذلك فإننا سنصل إلى أن اكتشاف طريقة إيقاد النار بواسطة غابة النـار لم يتم على يد رجل واحد ولمدة واحدة عن طريق المصادفة وإنما يمكن أن يحدث ذلك آلاف المرات خلال تاريخ الإنسانية الطويل. وينجم عن ذلـك أن كثيراً من الشعوب يمكن أن تكون قد اكتشفت هذه الطريقة وحدها وفي معزل عن غيرها. وهذا الاستنتاج يجعلنا نستغني بطبيعة الحال عن فرضية وجود مخترع واحد، بروميثيوس متوحد، هو الذي قدم للإنسانية هذا الإحسان الثمين.

ومن المحتمل أن استعمال غابة النار يمكن أن يفسر بعض الملامح الخاصة لبعض الأساطير التي تحدثت عن أصل النار. فقد قيل في عدد منها

إن النار إنما سُحبت من الاصبع السادس في اليد اليمنى لإحدى النساء. ومما بين الاصبع والإبهام من اليد اليمنى لاحدى النساء. ومن بين السبابة والإبهام من اليد اليسرى لإحدى النساء. ومن بين السبابة والإبهام من اليد اليمنى لإحدى النساء. ومن بين السبابة والإبهام من اليد اليمنى لأحد الرجال. ومن طرف السبابة في اليد اليمنى لصبي فتي. ومن أظافر الأصابع في اليد أو الرجل لإلهة النار. ومن أصابع إله النار. . . وربما كان الرأي الذي اعتمد على أن النار إنما سحبت من اليد قد أوحت به غابة النار التي تدار بين راحتي اليدين فتنبق النار من طرفها المدبب الذي اعتبر على أنه إصبع النار. كما أن فكرة أن النار إنما تنبثق من الفجوة الفاصلة بين السبابة والإبهام يمكن أن تأتي من منظر غابة النار وهي تدور بين الإبهام والسبابة، وليس تخيل ذلك بعسير.

ومن جهة أخرى فإن فكرة أن النار إنما تنبثق من امرأة، وبوجه أخص من عضوها التناسلي، هذه الفكرة تجد تفسيراً مؤكداً لها في التشابه الذي رأيناه. فالكثيرون من البدائيين يرون في عمل غابة النار من جهة وفي العلاقات الجنسية من جهة أخرى شبهاً واضحاً. إذ أن العصا الأفقية التي تثقبها غابة النار العمودية يمكن اعتبارها أنثى، بينما العصا العمودية أي غابة النار نفسها يمكن أن تعتبر هي الذكر، وإذ قدمنا هذا التشابه فإن بإمكاننا القول إن النار المنبثقة من غابة النار إنما تنبثق من جسد انثى، وبخاصة من عضوها التناسلي الذي يُمثل هنا بالثقب الذي تدور فيه غابة النار. ومن الواضح أن هذا التشابه مقبول ويوضع موضع العمل في الطقوس الهندية حيث يشعل براهمان كاهن النار وزوجته ناراً مقدسة لهما كليهما بواسطة غابة النار. ففي الليلة التي تسبق إيقاد النار يُعهد بالغاطس، أي القسم العلوي من غابة النار (آراني ARANI) إلى الكاهن، بينما يُعهد بالقسم السفلي إلى زوجته. وينام الرجل والمرأة ليلتئذ كلاً مع آلته (ذلك لأن إيقاد النار إنما يرمز إلى التزاوج). وفي الصباح التالي يقوم الزوجان سوية لإيقاد النار المقدسة. ز دلك يمسك الرجل بالغاطس بثبات كي لا تتمكن نهايته المدببة من

ترك فجوة الخشبة السفلى، بينما تديره زوجته بسحب الحبل الذي يحيط به حتى تنبثق النـار وتشعـل الفتيل من الصـوفـان. ويخضـع الزوج والزوجة لمحرمات خاصة بينما هما مستسلمان لانجاز هذا الواجب المقدس.

ومثل هذا التشابه يمكن أن يفسر لمَ يعتبرون النساء في هذه الأساطير في معظم الأحيان على أنهن امتلكن النار قبل الرجال. ذلك لأن النار التي تخرج من الخشبة عن طريق الدوران إنما يعتبرها البدائيون بطبيعة الحال موجودة في الخشبة منذ الأصل وقبل أن تشتعل النار التي خرجت منها، أو أنها في لغة الأسطورة ملازمة للمرأة قبل أن يخرجها الرجل منها. فالبدائي يتصـور أن النـار مكرسة في داخل الأشجار قبل ان تخرج منها عن طريق الحك كما بذرة الإنجاب موجودة في المرأة قبل أن يقترب الرجل منها. ومن هنا يبدو طبيعياً في ذهن البدائي أن تمتلك النساء النار قبل الرجال.

ولكن إذا كانت غابة النار هي الأكثر انتشاراً فإنها على كل حال ليست الآلة الوحيدة المستعلمة من البدائيين لايقاد النار عن طريق الحك. فهنالك منشار الخشب الذي يوجد منه نموذجان المنشار القاسي والمنشار اللين. أما القـاسي منه فهو قطعة من الخشب أو الخيزران (بامبو) تحرك بسرعة إلى الأمام وإلى الخلف فوق قطعة أخرى من الخشب أو الخيزران حتى تنبثق النار عن طريق هذا الاحتكاك. وفي هذه الآلة يستعمل الخيزران أكثر من غيره لأن غطاءه من السيليلوز أكثر ملاءمة لانتاج النار عن طريق الحك. ويكون الحك كما لو أننا نستعمل منشاراً تمثله القطعة العليا لنشر القطعة الدنيا من الخشب أو الخيزران. فالقطعة العليا تكون مشحوذة الطرف بحيث يسحب حدها بسرعة فوق قطعة دنيا محدبة تنشر على هذا الشكل من جهة إلى جهة بينما تتساقط نشارتها فوق صوفان موضوع تحتها ليمسك بسرعة بالنـار الناجمة عن عملية النشر. وقد أعلمني السيد هنري بالفور أن هذه الطريقة أسهل من كل الطرق الأخرى البدائية في إيقاد النار. وقد أوقد هو نفسه النار باستعمالها خلال أربعين ثانية. وقد استعملت هذه الآلة أو هذا الجهـاز على يد الوطنيين في مختلف أرجاء الأرخبيل الماليزي والفيليبين

وجزر نيكوبار وبرمانيا والهند وبعض المناطق من أوروبا. ويفترض المرحوم وليام كدوك أن «إنتاج النار عن طريق الحك لابد أنه حدث لدى الأجناس الغابية بطبيعة الحال الذين رأوا بدون شك كيف تنجم الحرائق دائماً من احتكاك سيقان الخيزران تحت عصفات الرياح الصيفية. ولابد أنهم أوجدوا، نتيجة لملاحظتهم هذه، غابة النار البدائية أو الآسغارا ASGARA التي لا تزال مستعملة حتى اليوم عند الشيرو والكوروا والبويا وسكان آخرين من درافيديي الغابة، فهؤلاء الشعوب لايزالون يحصلون على النار باستعمالهم هذه الطريقة بوجه عام حتى اليوم. فتُصنع فجوة صغيرة مستديرة في قطعة من الخيزران الجاف، ويدير رجلان براحتيهما المفتوحتين إلى الأمام والوراء قطعة أخرى مدببة من الخيزران فوق التجويف فما يلبث أن يظهر دخان ونار وشرارات تلتقطها وقة جافة من شجرة أو نوع آخر من الصوفان أعد لهذه الغاية تحت التجويف».

أما منشار النار اللين فيتألف من صفيحة لينة من قصب السكر أو من نبات متعرش أو أية مادة أخرى مناسبة تُسحب إلى الأمام والوراء كالمنشار على قطعة من الخيزران أو الخشب حتى ينجم من هذه العملية نشارة دقيقة وحرارة كافية لتسخين هذه النشارة وتوهجها. ويمكننا بعد ذلك أن نحصل بسهولة على لهيب من هذه النشارة المحمرة باستعمال عشب أو أي نوع من الصوفان المناسب. وقد درس السيد هنري بالفور هذه الطريقة في إيقاد النار وتتبعها منذ سلسلة جبال الناغا في أسّام وعبر سلسلة شيتاتونغ في أنّام وفي شبه جزيرة ملقا حتى بورنيو وغينيا الجديدة، كما لاحظ استعمالها في أوروبا وبخاصة في السويد وألمانيا وروسيا من أجل إيقاد نار جديدة كانت تُعرف عادة بنار الحك.

وقد ذكرت مناشير النار هذه كلها، القاسية منها واللينة، في الأساطير التي تناولت أصل النار، كما أننا نجد منشار النار اللين في قصة وصلتنا من الكيوي وتروي كيف أن أحد الأرواح علّم في المنام أحد بني البشر كيف يوقد النار بنشره قطعة من الخشب بوتر قوس. كما تروي لنا قصة أخرى من

الكيوي كيف اكتشف أحد الرجال مصادفة طريقة إيقاد النار بأن ينشر إلى قسمين ساقاً من الخشب بحبل من الخيزران. ومن جهة أخرى فقد وُجد منشار النار القاسي في قصة يرويها التوراريا من سيليبس وتحكي كيف أن سيد السماء أوقد ناراً بحكه قطعتين من الخيزران إحداهما بالأخرى. كما وجد في قصة مشابهة منتشرة لدى الثاي أو التي في سيام. كما أن الكاشين من برمانيا يقولون إنه في أيام العالم الأولى قام روح بتعليم بني الإنسان إيقاد النار بأن يشترك رجل وامرأة بحك قطعتين من الخيزران إحداهما بالأخرى.
أما الكياودوسون من شمالي بورنيو فيقولون إن النار الأولى إنما نجمت عرضاً عن ساقين من الخيزران احتكا بفعل الرياح، وهذا الاحتكاك العرضي بين سيقان الخيزران إنما يحدث في أغلب الأحيان كما أشرنا إلى ذلك من قبل بتأثير ما يهب من رياح على الغابات. فيبدو إذن أن من الممكن تماماً أن كثيراً من الحالات المشابهة هي التي حصل منها البدائيون على نارهم وتعلموا منها طريقة إيقادها. فإذا كان الأمر كذلك فإن المنطقة التي اكتُسبت النار منها على هذه الصورة لابد أن تكون منطقة خيزران وبالتالي لابد من أن تكون من المناطق المدارية أو الاستوائية.

وثمة طريقة أخرى بموجبها يحصل الكثيرون من البدائيين على نارهم معروفة باسم محراث النار أو العصا والفُرضة. وتقوم على أساس حك رأس عصاة في فُرضة من عصاة أخرى حتى يؤدي الاحتكاك إلى ظهور النار ومن بعدها اللهيب. ونجد هذا الجهاز البدائي بخاصة لدى سكان جزر المحيط الهادي وبولنيزيا وماليزيا وغينيا الجديدة وبورنيو. وتوجد بشكل نادر في بعض أجزاء من أفريقيا وأمريكا. ومما لا شك فيه أن بعض الأساطير التي التقطت في هذا الكتاب أشارت إليها من طرف خفي رغم أن رواة الأساطير غلفوها بجمل غامضة من أمثال: «حك الخشب» و«حك قطعتين من الخشب إحداهما بالأخرى» وهكذا مما يمكن أن ينطبق على غابة النار التي هي جهاز مختلف كل الاختلاف.

ومن واقع أن الإنسان كان يحصل على ناره في العادة بحك قطعتين

من الخشب أو الخيزران إحداهما بالأخرى كان لابد له من أن يستنتج ان النار إنما هي شيء مخزون في كل الأشجار أو على الأقل في الأشجار ذات الخشب الذي اعتاد أن يحصل منه على النار. وهكذا فإن عدداً كبيراً من الأساطير عن أصل النار حاولت أن تفسر كيف أن العنصر الناري كان مخزوناً في الأشجار. وفي بعض الأحيان قيل إنه إنما دخل إليها عن طريق ضربة صاعقة وضعت النار في الأشجار. ويقول كثير من الأساطير إن النار وضعت في أشجار من نوع خاص أو أنها لم يستحصل عليها إلا من مثل هذه الأشجار عن طريق الحك. ومن بين الأشجار التي أشير إليها في كلتا الحالتين السابقتين أشجار الكسانتوري والخيزران BAMBOU والخبيزة HIBISCUS والأوجينيا وشجرة جوز الهند وشجرة الخبز والكورديا والأورتيكات أرجانتيا والأثاب* BANIAN وشجرة القطن والأرز. ومن هذه الأشجار كانت الخبيزة HIBISCUS أكثر الأشجار التي ورد ذكرها. وبحسب ما يذكر داروين فإن خشب HIBISCUS TILIACEUS الخفيف كان وحده المستعمل في تاهيتي من أجل إيقاد النار بواسطة غابة النار. وقد وجد التونغا من جنوبي شرق أفريقيا أن نوع الخبيزة الذي يسمونه BULOLO هو أفضل نوع لإيقاد النار. ولكن البدائي لا يحصل على النار أحياناً من حك الخشب وإنما من قدح الأحجار أو من قدح قطعة من الصوان بقطعة من الحديد كما حدث في مرحلة متأخرة. وهذه الطريقة في إيقاد النار يبدو أنها كانت نادرة وقليلة الانتشار في العالم، أي أنها كانت أقل انتشاراً بكثير من طريقة حك الأخشاب. والأحجار المستعملة لهذه الغاية هي من كبريتات الحديد (المسماة أحجار النار) أو من كبريتات السيليس (الصوان). وقد استعمل الأسكيمو وبعض قبائل الهنود من كندا هذه الطريقة للحصول على النار، كما فعل ذلك سكان أرض النار الغلاظ، ولكنها كانت مجهولة كما يقال في المناطق الواسعة المتوسطة بين هذين المكانين من القارة الامريكية.

---

* الأثاب: BANIAN شجر كبير تتدلى أغصانه إلى الأرض وتعرّق فيحصل منها أشجار جديدة. ويعرف أيضاً بتين البنغال. ـ المترجم ـ

وفي أسـاطير أصل النار التي استعرضناها حتى الآن توجد إشارات تكفي لاثبـات أن صانعي الأسـاطير كانوا يعرفون* الطريقة التي تؤدي إلى انبثـاق النـار أو الشـرارات من الحجارة التي يُقدح بعضِها ببعض. فهنود التوليبانغ من شمالي البرازيل يقولون إن النار في الأزمنة القديمة نُقلت من جسد امرأة إلى حجارة اسمها واتوا إذا ضرب بعضها ببعض أعطت النار. كما أن هنود السيامن نيومكسيكو يقولون إن العنكبوت خالق الناس والحيوانات كان من عادتـه إيقاد النار في بيته تحت الأرض بحك حجر مسنن بحجر مسطح مستدير. ويبدو أن هاتين الأسطورتين تبرهنان على أن هنود التوليبانغ وهنود السيا عرفوا طريقة الحصول على النار من الحجارة سواء أستعملوها أو لم يفعلوا. كما أن هنود الكاسكا من كولومبيا البريطانية يقولون إنه منذ زمن طويل جداً وقبل أن يحصل الناس على النار كان الدب يملك حجر النار ويمكنه أن يحصل منه على النار متى يشاء. إلا أن طائراً سرق هذا الحجر الثمين الذي تنقل من يد إلى يد، أو بالأحرى من قائمة حيوان إلى قائمة حيوان آخر، حتى حمله في النهاية الثعلب الذي ضربه إلى قمة جبل فانكسر ورمى بشظاياه إلى كل قبيلة من قبائل الهنود، وهكذا حصل كل بني الإنسان على النار التي أصبحت مبذولة في كل الحجارة حتى اليوم. كذلك يروي المـوري موري من جزر شاتـام كيفد أن إله النار ماوهيكا رمى بالنار إلى الصوان SILEX حتى يمكن أن تُستخلص بعد ذلك منه.

أما لدى الشعوب التي تتمتع بدرجة أعلىٰ من الثقافة أو التي أصبح لها صلات مع الحضارة فإن الأساطير تحتوي على إشارات عن إيقاد النار بواسطة الصوان والفولاذ أو على الأقل بواسطة الصوان والحديد. من هذه الشعـوب شعب التـورايدا من سيليبس الذي يروي أفراده كيف أن حشرة واسعة الحيلة سعت حتى شاهدت الإله الخالق وهو يوقد النار بقدح قطعة من الصوان بساطور. ولدى إحدى القبائل التترية من سيبيريا الجنوبية تدور رواية فحـواها أنه بعد أن خُلق الإنسان توصلت ثلاث نسـاء تنفيذاً لايحاء صادر عن الـذات الإلهية إلى إيقاد النار بقدح حجر بقطعة من الحديد.

ويروي الساكالاف والتسيميهيتي من مدغشقر كيف أن اللهيب بعد أن انهزم في معركة كبيرة له مع الرعد اختبأ في كثير من الأشياء منها الخشب والحديد والحجارة القاسية، ومن أجل ذلك تقول هذه الشعوب إن بالإمكان إيقاد النار إما بحك عصاة بعصاة أخرى أو بقدح قطعة من الصوان بقطعَة من الفولاذ.
أما هنود التيلينجي من آلاسكا فيقولون إنه في الأيام الأولى من العالم لم يكن ثمة نار على الأرض إلا في جزيرة في البحر، وقد طار إليها الغراب وأتى منها بجذوة في منقاره فأحرقته النار، فلما وصل إلى الشاطىء أسقط الشرارات المتقدة على الأرض فتبعثرت فوق الخشب والحجارة، وذلك هو السبب، كما يقول التيلينجي، في أن الخشب والحجارة لا تزال تحتوي على النار، وأن بالإمكان أن نفجّر شرارات النار إذا قدحنا الحجارة بالفولاذ، أو أننا نحصل على النار بحك قطعتين من الخشب إحداهما بالأخرى.

وإذا قدّرنا عدد المرات التي قام بها رجال العصور الحجرية خلال الأحقاب الطويلة التي سبقت اكتشاف المعادن بطرق الأحجار ليشكلوا منها أدواتهم الفظة التي بقي منها العديد من الآلاف فوق ظهر الأرض فإن من الصعب علينا ألا نستنتج أن طريقة إيقاد النار عن طريق القدح لابد أن تكون اكتُشف وأعيد اكتشافها منها مرات عديدة وفي كثير من الأماكن المعزولة عن بعضها من أنحاء العالم. وفي هذه الحالة كما في حالة غابة النار لن نكون بحاجة للجوء إلى نظرية المخترع الواحد، إلى بروميثيوس وحيد نُقل اكتشافه السعيد من يد إلى يد حتى وصل إلى أقاصي الأرض. ويروي ياقوت سيبريا كيف اكتشفت النار في البدء مصادفة على يد رجل عجوز لم يكن لديه ما يفعله فأخذ يتسلى بضرب حجرين ببعضهما حتى انبثقت منهما شرارات ما لبثت أن أمسكت بالعشب اليابس. ولسنا بحاجة لأن نقبل هذه القصة على أنها قصة تاريخية ولكنها ربما كانت مثالاً نموذجياً لما يمكن أن يكون قد حدث على وجه التأكيد ثم حدث وحدث مرات عديدة في عصور ما قبل التاريخ.

وهكذا فإن أساطير أصل النار، وعلى الرغم من الملامح الخيالية التي

شوهت بعضها، إنما كانت تحتوي على سبيل الاحتمال على عنصر جوهري من الحقيقة وتقدم لنا خيطاً يساعدنا على تلمس طريقنا في ظلام الماضي الذي اجتازته الإنسانية عبر عصور لا يحصرها العد سبقت شروق التاريخ.



دار الكندي
للترجمة والنشر والتوزيع
حمص — سورية ص.ب ١٦١٠